المجموعة الكاملة لمؤلفات

جبران خليل جبران

نصوص خارج المجموعة



المجموعة الكاملة لمؤلفات

جبران خليل جبران

نصوص خارج المجموعة

المجموعة الكاملة لمؤلفات

جبران خليل جبران

نصوص خارج المجموعة

جمع وتقديم

أنطوان القوّال

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

الإهداء

إلى زوجتـي الحبيبـة
لبيبة

انطوان

المقدمة

الغوص في الأوراق الصفراء والخروج منها بنصوص ضائعة ومنسية لأدباء كبار، تغذّي الفكر، كالغوص في أعماق البحار والفوز بلآلىء تبهج العين، لا سيّما وأنّ الأدباء والشعراء مهما جمعت أعمالهم، يبقى لهم مثل ما يبقى في أقبية النبيذ، يزيده العتق طيباً وحلاوة.

وقد اعتادت الأوساط الثقافية في العالم أن تقيم الدّنيا وتقعدها، إذا ما ظهر نصّ مجهول لأحد مشاهير الأدب والفنّ، لأنّ قيمته تكمن في أنّه لا يكمل المجموعة وحسب، وإنّما يكمل شخصية صاحبه أيضاً. فكم من أثر مهمل في صحيفة أو مخطوط محفوظ في جارور، يضيف إلى وجه كاتبه ملامح جديدة، أو يبدل في الملامح المعروفة، والتي تكاد تكتسب صفة الثبات.

ونحن تعوّدنا أن نرى دور النشر عندنا تصدر، بين الحين والآخر، نتاج الأدباء في «مجموعة كاملة»، تضمّ، عادةً، مجمل الكتب المطبوعة، فيبقى البعض من آثار هؤلاء الأدباء، المخطوط أو المنشور في الصحف والمجلات، نسياً منسيّاً.

غير أنّ هناك باحثين إذا ما تولّوا نشر «مجموعة كاملة»، قاموا

بجهد ملحوظ، فضمّوا إليها قسماً من النصوص الضائعة والمجهولة، ما يجعلها تقرب من الكمال، لأنّه من المتعذّر الوصول إلى جمع نتاج الأديب كاملاً، لأسباب، منها:

ـ عدم رضى الأديب نفسه عن بعض نتاجه، لا سيما في مراحل العطاء الأولى، فيحاول طمسه.

ـ لا مبالاة الأديب بجمع نتاجه، وحفظ المنشور منه في الدّوريّات، فيضيع أكثره.

ـ عدم وجود مؤسّسات ثقافية تقوم بعملية حفظ وتوثيق النتاج الثقافي، فيسهل الرجوع إلى آثار الأدباء وجمعها.

فإذا نظرنا إلى آثار جبران خليل جبران، وجدنا أنّ مجموعتيه العربيَّة والمعرّبة لا تضيفان شيئاً إلى كتبه المنشورة، فيما يظلّ الكثير من نتاج جبران تائهاً في كتب صدرت قديماً وحديثاً[1]، وفي دوريّات مهجريّة ومحليّة عدّة، أو في أدراج البعض ممن ينامون على «الأشياء القديمة» فتذهب بذهابهم. ورغم ما ظهر للضوء من تراث جبران، فإنّ المنسيّ منه والضائع لا يزال كبيراً.

---

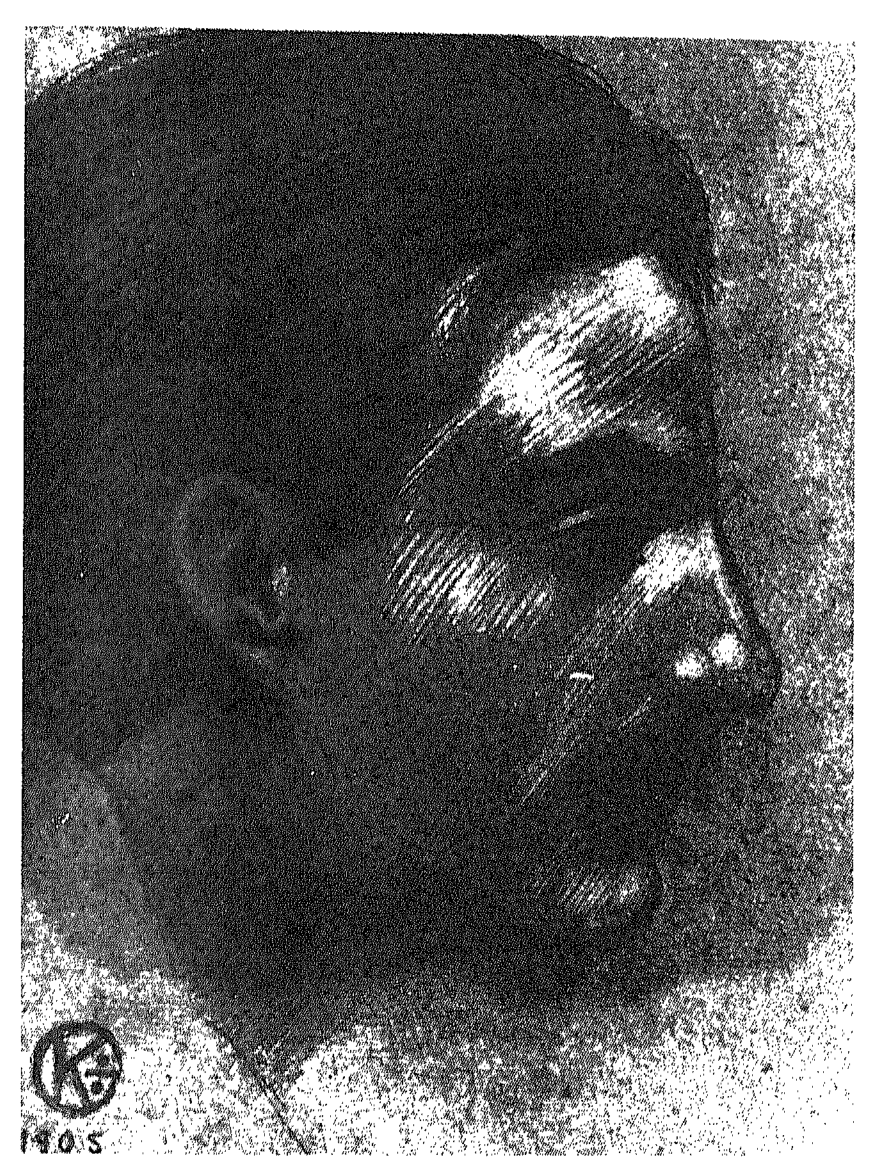
(١) من هذه الكتب نذكر:

«جبران حياً وميتاً» لحبيب مسعود، و«جبران خليل جبران» لمخائيل نعيمة، و«رسائل جبران» لجميل جبر، و«أضواء جديدة على جبران» لتوفيق صايغ، و«الشعلة الزرقاء» لسلمى حفار الكزبري ود. سهيل بشروئي، و«رسائل جبران التائهة» لرياض حنين، و«عقيدة جبران» لجان دايه، و«عالم جبران الرسّام» لوهيب كيروز. وقد أثبتنا في كتابنا هذا ما وجدناه لجبران خارج مجموعته باستثناء ما نشره رياض حنين في كتابه «رسائل جبران التائهة».

لذلك يستحقّ جبران العظيم كلّ جهد منّا لجمع تراثه، ووضعه في دائرة الضوء، لما يمثّل من قيم إنسانية وأبعاد فكرية، جعلته في طليعة نابغي الأدب في لبنان والعالم. وقد قمنا بما علينا، في هذا السبيل، فجمعنا نصوصاً له من كتب مدرسيّة وغير مدرسيّة ومجلاّت، أشرنا إليها في حينه، وهذه النصوص لم ترد في مجموعتيه: العربية والمعرّبة.

ما كتابنا «نصوص خارج المجموعة»، إذاً، إلاّ محاولة متواضعة في تحقيق، هذه الغاية، حاولناها على أمل أن تلقى الرضى والتشجيع، فتفتح الباب لمهتمّين يحاولون، فيضيفون، والله وليّ التوفيق.

إهدن في ٦ آب ١٩٩٢
انطوان القوال



صورة الغلاف: وجه جبران بريشته ـ ١٩٠٥ م.

ترجمة جبران خليل جبران

حداثته:

ولد جبران في السّادس من كانون الثّاني سنة ١٨٨٣ م في بلدة بشّري المجاورة لأرز الربّ، والرابضة على كتف الوادي المقدّس «قنّوبين». والده خليل المكلّف جباية الرّسوم على الماشية في جرود شمالي لبنان. أمّه كاملة ابنة الخوري اسطفان رحمة، كانت ذات ثقافة محدودة، غير أنّها كانت تتحلّى بإرادة وهمّة قويّتين ساعدتاها على تدبير شؤون المنزل ورعاية أولادها الأربعة: بطرس من زوجها الأوّل، وجبران ومريانا وسلطانة.

ما أن بلغ الخامسة حتّى أدخل في مدرسة دير مار اليشاع القريب من بشّري، فتلقّى مبادىء القراءة والكتابة، وكان مواطنه الطبيب سليم الضّاهر يساعده في تعلّمه وفي تنمية موهبة الرّسم، التي ظهرت فيه.

إلى ذلك كان جبران الصّغير يتمتّع في انصرافه إلى الطّبيعة الخلاّبة التي تتميّز بها المنطقة، وظلّ جمالها منطبعاً في نفسه، وحبّها لا يفارقه. ففي إحدى رسائله إلى ابن عمّه نخله يقول: «هل يأتي ربيع حياتنا ثانية فنفرح مع الأشجار ونبتسم مع الزّهور ونركض وراء السّواقي ونترنّم مع

العصافير مثلما كنّا نفعل في بشرّي... هل نرجع ونجلس بقرب مار سركيس وعلى نهر النبات وبين صخور مار جرجس... وأجمل ما في هذه الحياة يا نخله هو أنّ أرواحنا تبقى مرفرفة فوق الأماكن التي تمتّعنا فيها بشيء من اللذّة...»

هجرة جبران:

لم ينعم جبران طويلاً في حداثته، إذ ضاقت أسباب الحياة أمام عائلته، لأنّ الأب اتّهم باختلاس ما كان يجبيه من الرسوم، وسجن، وحجزت أملاكه. فما كان من الأم إلاّ أن غادرت الوطن، ومعها أولادها الأربعة، قاصدة الولايات المتّحدة الأميركيّة، حيث نزلت في حيّ الصينيّين في بوسطن، وكان ذلك سنة ١٨٩٥ م.

وفي بوسطن عملت كاملة وبطرس في التجارة، والابنتان مريانا وسلطانة في خدمة الجيران. أمّا جبران فأدخل في مدرسة مجانية، وكان يقضي معظم أوقاته في الرّسم ومطالعة الروايات الانكليزيّة التي كانت معلّمة اللغة الانكليزية تختارها له. وذات يوم قال لأمّه: «أوما أخبرتك بما فعلته معلّمة التّصوير؟ جاءت اليوم برجل، قالت إنّه مصوّر - يصوّر بيده يا أمّي، لا بالآلة - وأرته بعض رسومي. فقال لي: «أنت فرخ مصوّر». ودعاني لزيارته في الغد...».

جبران يدرس في لبنان:

في سنة ١٨٩٨ م أُرسل جبران إلى لبنان ليدرس اللّغتين العربية والفرنسية، فالتحق بمعهد «الحكمة» في بيروت، حيث تلقّى دروسه على يد مشاهير الأساتذة يومذاك أمثال الخوري يوسف الحداد، وأمضى في

« الحكمة » مدّة ثلاث سنوات، تبلورت في خلالها مواهبه في الرّسم والكتابة.

وكان يتردّد في فصل الصّيف على مسقط رأسه بشرّي، فيزور أقاربه ورفاقه. وفي بشرّي، يومذاك، تعرّف إلى فتاة من أهل الغنى وأحبّها، ولكنّ تقاليد المجتمع حالت دون زواجهما، فذاق الحبيبان كثيراً من قسوة الحرمان وظلم الأهل.

عودته إلى بوسطن:

في سنة ١٩٠١ م عاد جبران إلى بوسطن، مثقلاً بالمعرفة وألم الخيبة بالحب. وكان هذا الألم فاتحة لسلسلة من الآلام، عاناها جبران، وتمثّلت بفقده شقيقته سلطانة، ثم أخيه بطرس فأمّه. ولكن هذه المآسي المتلاحقة لم تهدّ من عزمه، مع أنّه لم يبقَ له من معين إلاّ إبرة أخته مريانا، فتابع محاولاته في الكتابة والرّسم.

وفي سنة ١٩٠٤ م أقام جبران أوّل معرض له في الرّسم، وشاءت الأقدار أن يتعرّف إلى سيّدة أميركية ثرية راقية هي ماري هاسكل، كانت زارت المعرض وأعجبت برسوم جبران، وكان هذا اللّقاء نقطة تحوّل في حياته، وبداية ترقّي سلّم الشّهرة.

وفي السنة نفسها، بدأ جبران ينشر مقالاته في جريدة « المهاجر » لصاحبها أمين الغريب، فاستأثر أسلوبه الجديد بإعجاب القرّاء، ما شجّعه على إصدار « الموسيقى » و« عرائس المروج » (١٩٠٥ م) و« الأرواح المتمرّدة » (١٩٠٨).

جبران في باريس:

قدّرت ماري هاسكل مواهب جبران، وكان الحبّ قد جمع بينهما، فأرسلته إلى باريس سنة ١٩٠٨م، ليدرس أصول الرّسم في معاهدها العالية.

وفي باريس، في الحي اللاتيني، تعرّف إلى الأدباء والفنّانين، ولا سيّما النحّات الكبير أوغيست رودان، واجتهد طوال سنوات تخصّصه الثّلاث، وزار مدن فرنسا، ومتاحف إيطاليا وبلجيكا وانكلترا وروائعها الفنيّة الخالدة.

جبران في نيويورك:

عاد جبران إلى بوسطن، ومنها انتقل سنة ١٩١٢م إلى نيويورك، حيث استقرّ، بعد أن لمع نجمه في عالمي الأدب والرّسم. وهناك في طابق علوي من بناية قديمة تخالها أحد أديرة لبنان التاريخية، في جو «صومعة» فسيحة هادئة، عزل جبران نفسه منصرفاً إلى الرّسم والتّأليف باللّغتين العربيّة والانكليزيّة، فتوالت إصدارات مؤلّفاته: «الأجنحة المتكسّرة» (١٩١٢م) و«دمعة وابتسامة» (١٩١٤م) و«المجنون» (٩١٨م) بالانكليزية، و«المواكب» (١٩١٩م). وهنا لا بدّ أن نشير إلى أنّ حبّاً بالمراسلة بدأ منذ سنة ١٩١٤م بين جبران والأديبة ميّ زيادة، واستمرّ حتى ١٩٣١م.

وبفضل جهده وعطاءاته في الأدب والرّسم أصبح جبران قبلة أنظار أدباء المهجر، فالتفّوا حوله، وأسّس مع بعضهم «الرابطة القلمية» سنة ١٩٢٠م، فكان جبران عميدها، وسمّي أعضاؤها عمّالاً وهم: ميخائيل نعيمة، وليم كاتسفليس، ندره حدّاد، إيليّا أبو ماضي، وديع باحوط،

رشيد أيّوب، الياس عطاالله، عبد المسيح حدّاد، نسيب عريضة.

وفي سنة ١٩٢٠ م أصدر جبران «العواصف» و«السّابق» بالانكليزيّة، وفيها أيضاً كانت بداية ظهور اضطراباته الصحيّة.

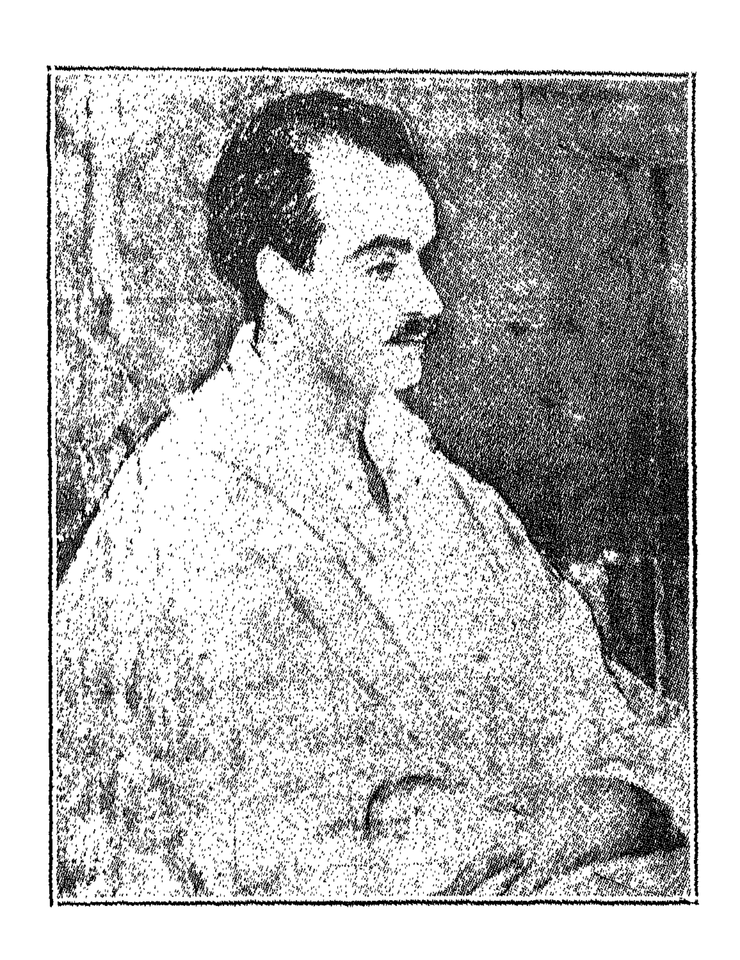
ثم تتابع صدور مؤلّفاته العربيّة والانكليزيّة: «البدائع والطرائف» (١٩٢١ م)، و«النّبي» بالانكليزيّة (١٩٢٣ م) وهو خير ما ترك جبران، إذ ترجم إلى أكثر اللغات الأجنبية و«رمل وزبد» بالانكليزية (١٩٢٦ م)، و«يسوع ابن الانسان» (١٩٢٨ م) و«آلهة الأرض» (١٩٣١ م).

وفاته:

أخذت منه العلّة يوماً بعد يوم، يمكّنها من صحّته وقوّته استمراره في العطاء دون ملل أو كلل، حتى انطفأ سراج حياته في العاشر من نيسان سنة ١٩٣١ م. وفي ٢١ آب من السّنة نفسها نقل رفاته إلى بشرّي، مسقط رأسه، ليرقد بسلام في دير مار سركيس، المكان الذي كان يحلم بالعودة إليه. وبعد وفاته صدر «التّائه» (١٩٣٢ م) و«حديقة النّبي» (١٩٣٢ م) وكلاهما بالانكليزيّة. وبقي الكثير من آثاره ينتظر الكشف والجمع والصدور.

لا يزال جبران، بعد رحيله، يشغل الناس بأدبه وفنّه كما كان يشغلهم في حضوره، فالآداب العربيّة، لم تعرف حتّى الآن أديباً، كان له الأثر الذي لجبران، إذ إنّه فاصل تاريخي حاسم، كما يقول جميل جبر، بين التقليد والتجديد. إنطوى بوجوده عهد وبدأ عهد.

إنّ جبران، كما عرّفه، حنّا الفاخوري، «عبقرية خالدة تخطّت حدود المكان والزّمان. وكان لها تحت كلّ كوكب مملكة وسلطان. نطقت بالكلمة، فردّدها الكون بكلّ لغة ولسان».



جبران خليل جبران عن صورة زيتية للمصور موريس فرمكيس

الباب الأول

مقالات



Courtesy of "The New Orient"

لجبران خليل جبران

الشاعر الاعمى

١ - صحيفة مطوية

في هذه الغرفة المنفردة الهادئة قد جلست بالأمس المرأة التي أحبّها قلبي. إلى هذه المساند الوردية الناعمة قد ألقت رأسها الجميل ومن هذه الكأس البلّورية قد شربت جرعة من الخمر ممزوجة بقطرة من العطر. كلّ ذلك كان بالأمس حلم لا يعود. أمّا اليوم فقد ذهبت المرأة التي أحبّها قلبي إلى أرض بعيدة خالية مقفرة بأداة تدعى بلاد الخلوّ والنسيان.

إن آثار أصابع المرأة التي أحبّها قلبي لم تزل ظاهرة على بلّور مرآتي وعطر أنفاسها ما برح متضوّعاً بين طيّات أثوابي وصدى صوتها لم يضمحل بعد من زوايا منزلي - ولكنّ المرأة نفسها التي أحبّها قلبي - قد رحلت إلى مكان قصيّ يدعى وادي الهجر والسلوان، أمّا آثار أصابعها وعطر لهاثها وأشباح روحها فستبقى في هذه الغرفة حتى صباح الغد، وعند ذلك أفتح نوافذ منزلي لتدخل أمواج الهواء وتجرف بتيّارها كلّ ما تركته لي تلك الساحرة الحسناء.

إنّ رسم المرأة التي أحبّها قلبي لم يزل معلّقاً بجانب مضجعي، ورسائل الحبّ التي بعثت بها إليّ ما برحت في العلبة الفضية المرصّعة بالعقيق والمرجان، التي حبتني بها تذكاراً لم تخرج قطّ من الغلاف الحريري المبطّن بالمسك والبخور - جميع هذه الأشياء ستبقى في أماكنها

حتى الصباح - وعندما يجيء الصباح أفتح نوافذ منزلي ليدخل الهواء ويحملها إلى ظلمة العدم - إلى حيث تقطن السكينة الخرساء. إنّ المرأة التي أحبّها قلبي شبيهة بالنساء اللواتي أحبتهنّ قلوبكم أيّها الفتيان. هي مخلوقة عجيبة صنعتها الآلهة من وداعة الحمامة وتقلّبات الأفعى وتيه الطاووس وشراسة الذئب وجمال الوزّة البيضاء وهول الليلة السوداء مع قبضة من رماد وغرفة من زبد البحر.

وقد عرفت المرأة التي أحبّها قلبي أيام الطفولية، فكنت أركض وراءها في الحقول وأتمسك بأذيالها في الشوارع.

وعرفتها أيّام الصّبا، فكنت أرى خيال وجهها في وجوه الكتب والأسفار وأشاهد خطوط قامتها بين غيوم الماء، وأسمع نغمة صوتها متصاعدة مع خرير السواقي.

وعرفتها أيام الرجولية فكنت أجالسها محدّثاً وأسألها مستفتياً وأقترب منها شاكياً ما في قلبي من الأوجاع باسطاً ما في روحي من الأسرار. كلّ ذلك كان بالأمس، والأمس حلم لا يعود، أمّا اليوم فقد ذهبت تلك المرأة إلى أرض بعيدة خالية مقفرة باردة تدعى بلاد الخلوّ والنسيان.

أمّا اسم المرأة التي أحبّها قلبي فهو الحياة، فالحياة امرأة حسناء تستهوي قلوبنا وتستفدي أرواحنا وتغمر وجداننا بالوعود، فإن أمطلت أماتت فينا الصبر وإن أبرّت أيقظت فينا الملل.

الحياة امرأة تستحمّ بدموع عشّاقها وتتقطّر بدماء قتلاها. الحياة امرأة ترتدي بالأيام البيضاء المبطّنة بالليالي السوداء. الحياة امرأة ترضى بالقلب البشري خليلاً وتأباه حليلاً. الحياة امرأة غاوية ولكنّها جميلة ومن يرَ غوايتها يكره جمالها (★).

(★) ما وراء الخيال أو فلسفة جبران، جبران خليل جبران، أصدره علي أحمد، بيروت، لا تاريخ، مطبعة العرفان - صيدا، من ص ٨ - ١٠.

٢ ـ الناس أربعة

الناس أربعة: رجل تتهيّبه حين تستقبله ورجل لا تتهيبه وقد تستضعفه حين تستقبله ولكن لا تلبث بعد عشرة قصيرة أن تستقويه وربّما تضطر أن تتهيّبه. ورجل تتهيّبه حين تستقبله، ولكن بعد عشرة قصيرة أو طويلة تزول هيبته من نفسك، وربّما حملته على أن يتهيّبك. ورجل تستضعفه مذ تستقبله وتحمله على أن يتهيبك دائماً.

أمّا الأول الذي تتهيّبه أولاً وآخراً فهو العظيم النفس والجسد معاً وعظمة نفسه مقرونة بالذكاء الطبيعي وقوّة الجنان. وعظمة جسده مقرونة بالملامح الحادّة أي أنّ أخلاقه جلية في عينيه وسحنته.

ويمتاز هذا المهوب بقوة إرادته وتهيّبه وتيقّظه وحدّة ذهنه، ويكثر عناؤه في الأمور ولا تندر أصالة رأيه وحكمته. فكأنّ القوة والفهم مجتمعان فيه؛ فإذا لم تكن مساوياً له فيها سطا عليك من أول وهلة واستضعفك واضطررت أن تتهيبه.

هذا الصنف من الناس أسبق الأصناف الأربعة إلى قيادة الهيئة الاجتماعية واستلام مقاليد الأمور وأكثرها نفوذاً وسؤدداً ويغلب أن

يكون ذووه من مديري الأعمال المسيطرين وندر من يستسلم منهم لسيطرة حتى ولو كان مرؤوساً.

وهم لا يبتغون المال إلاّ لكي يستخدموه للنفوذ والاستقواء. وربّما كانوا أكثر استقامة من سواهم لاعتمادهم على قوتهم. على أنّهم قلّ ما يرثون للضعيف وإن فعلوا فلسياسة غالباً لا دائماً، ولا ريب أنّهم هم العنصر الأهمّ في الاجتماع الانساني وربّما كان رقيّه متوقّفاً عليهم حتى إذا كثروا فيه كان أسرع رقيّاً. وهؤلاء هم الذين نقول إنّ السعد خادمهم إذ نرى أنّ الأمور موفقة لهم. والحقيقة أنّنا لا نشعر بأنّ نفوذهم يقود الأمور حسب رغبتهم لأنهم بما لهم من الهيبة يسطون على العناصر الأخرى العاملة في الاجتماع ويجعلونها كآلات في أيديهم فتلك العناصر تعمل معاً لمصلحتهم. فهي بحسب الظاهر تعمل متباينة والحقيقة أنّ صاحب النفوذ يفتكر ويريد، والعناصر العاملة تنفذ إرادته لا إرادتها، فتتفق طبعاً ولهذا نرى الأمور موفقة لهم. أمّا الثاني الذي لا تتهيّبه بل قد تستضعفه حين تستقبله ولكن لا تلبث بعد عشرة قصيرة أن تستقويه ولا يبعد أن تضطر أن تتهيّبه فهو العظيم النفس دون الجسد وعظمة نفسه مقرونة بالذكاء الطبيعي وقوة الجنان، ولكن ليس في ملامحه ما يدلّ على تلك العظمة بجلاء وقلّ أن تشعر بحدّة في عينيه.

وهو كالأول من حيث قوة الإرادة والتنبيه والتيقظ وحدّة الذهن والعناء في الأمور وإصالة الرأي وإلاّ فلا يتسنّى له أن يصبح ذا سطوة وهيبة وسيطرة.

وإنّما يختلف عن الأوّل غالباً بالدّهاء واستعمال الحيلة لأنّه يعتمد على قوة عقله أكثر من قوّة فراسته، وقد لا يقلّ عن الأوّل في قوة جنانه وجرأته.

ويغلب أن يكون أصحاب الدسائس والمكايد من هذا الصنف وأكثر أهل السياسة ومديري دقّة الأحكام ومديري الأعمال الكبرى من متاجر وشركات الخ إنّما هم من هذا الصنف من البشر.

هؤلاء هم الذين كلّما عرفناهم ازددنا تهيباً لهم لأنّنا نشعر بقوة إرادتهم وإصالة رأيهم ورسوخ كلمتهم وثباتهم على مبادئهم وجهادهم في تنفيذ مآربهم.

أمّا الثالث الذي تتهيبه حين تستقبله ولكن بعد عشرة قصيرة أو طويلة تزول هيبته من نفسك وربّما حملته على أن يتهيبك فهو الذي تنحصر قوته في ملامحه ومظاهره الخارجية، وأمّا دماغه وجنانه فصغيران. هو الذي يغشّك مظهره ويفضحه مخبره. وكثيرون من أهل هذا الصنف من البشر يغشّك مظهرهم إذا كان عندهم قليل من الجرأة والإقدام والحزم استطاعوا التمويه والتهويل وظلّوا في عيون المحيطين بهم من السذّج نافذين معظّمين ومسيّدين مع أنّ رؤوسهم فارغة وقلوبهم ضعيفة.

ويكثر في هذه الطبقة المغرورون الذين لا يدرون بغرورهم ولا يعرفون أقدار نفوسهم فيتبعون غرورهم ويهوّلون على بسطاء الناس فيجوز تهويلهم. ولا يندر أن يكون من ذوي الدعاوى الفارغة ولكنّ مظاهرهم تؤيّد دعاويهم في نظر الساذجين فينخدعون بهم.

أما الذين تستضعفهم منذ تستقبلهم وتحملهم على أن يتهيبوك دائماً فهم معظم العامّة المنقادون الذين يكونون آلات في أيدي ذوي النفوذ والجاه وهم الذين تعرب ملامحهم ومظاهرهم جلياً عن صغر نفوسهم وأدمغتهم وإرادتهم. ويكادون لا يحسنون عملاً بلا مدرّب يدرّبهم.

هذا بيان إجمالي لطبقات الناس ينسبه بعضهم إلى بعض من حيث

التهيّب. على أنّ الأفراد يتنازعون النفوذ والهيبة، وأقواهم جناناً أسبقهم إلى الفوز والتسديد والنفوذ.

ولكن قد يكون لمعرفة هذه الحقائق شأن في الفوز وسطوة الواحد على الآخر فإذا اجتمع اثنان من طبقة واحدة من الطبقات السابق وصفهما فأسبقهما إلى التأثير والسطوة والاعتصام بهيئة الشخصية يتغلّب على الآخر ويضطره إلى تهيبه.

وهذه هي سياسة بعض الناس ولا سيما الذين ليس لهم رأس مال كاف من الفهم الحقيقي في التغلّب على غيرهم، فإنهم يبذلون جهدهم منذ أوّل مقابلة أن يؤثروا على الذين يجتمعون بهم تارة بالتشامخ، والجسارة، إلى غير ذلك مما يصوّرهم في أعين محاضرهم شيئاً عظيماً ولكن لا يندر أن تنكشف حقيقة جوهرهم بعد حين فتنحطّ مكانتهم.

وإذ عرفت كلّ ذلك فيسهل عليك أن تفهم كيف تسلك مع الناس، فلا تستسلم لهم ولا تحكم على مركزهم ومقدار نفوذهم قبل أن تعرف جوهرهم ولا تهوّل عليهم وتموّه على عيونهم أكثر مما يحقّ لك لئلا يحطّوا من مقامك متى عرفوا جوهرك فاجتهد أن تعرف نفسك وقدر غيرك معاً، واعط نفسك حقّها وغيرك حقّه(*).

(*) ما وراء الخيال، م.س. من ص ٢٦ ـ ٣٠.

٣ ـ الجمال

أنا دليل الحب، أنا خمرة النفس أنا مأكل القلب.

أنا وردة أفتح قلبي عند فتوّة النهار فتأخذني الصبية وتقبّلني وتضعني على صدرها.

أنا بيت السعادة. أنا مصدر الفرح. أنا إذاً مبدأ الراحة.

أنا ابتسامة لطيفة على شفتي غادة يراني الشاب فينسى أتعابه وتصير حياته مسرح أحلام لذيذة.

أنا موحي الشعراء وهادي المصوّرين، ومعلّم الموسيقيين.
أنا نظرة في عين طفل تراها الأمّ الحنونة فتسجد وتصلّي وتمجّد الله.

تجلّيت لآدم بجسم حوّاء فاستعبدته وظهرت لسليمان في قدّ فصيّرته حكيماً شاعراً.

ابتسمت لهيلانة فخرجت ترواده وتوجّت كليوبطره فعمّ الأنس وادي النيل.

أنا كالدهر أبني اليوم وأهدم غداً. أنا أحيي وأميت.

أنا أرق من تنهيدة زهرة البنفسج وأشدّ من العاصفة.

أنا حقيقة أيّها الناس ـ أنا حقيقة وهذا غير ما تعلمون (★)

(★) الدرر المختارة مجموعة مقالات شائعة أدبية أخلاقية انتقادية روائية، بقلم جبران خليل جبران. المطبعة الرشيدية كفرشيما، من ص ٥٨ ـ ٨٠.

في «دمعة وابتسامة» نصّ آخر عنوانه «الجمال» يدعو فيه جبران إلى اتخاذ الجمال ديناً. وفي «النبيّ» فصل خاص يتحدّث فيه المصطفى عنْ الجمال.

٤ ـ إلى السوريين[١]

دعوها تمت فقد طال نزاعها أمام وجه الأبدية. اتركوها تهلك وشعاع الاستشهاد في عينيها فذاك خير من أن تعيش ومرارة الأوجاع بين شفتيها. ذروها تقضي تاعسة فأنتم لا تستطيعون إسعادها. ابتعدوا عن مضجعها فعلّتها تهزأ بأدوائكم ويأسها يحتقر دموعكم وحشرجة صدرها تسخر بتنهّداتكم.

تفرّقوا عنها واسلموا بأرواحكم فالأرض قد فتحت صدرها لتخفيها وثعبان الجحيم فغر فاه ليبتلعها وأشباح الهاوية تراكضت نحوها لتبيدها.

إنّ غبار الصحراء قد أعمى عينيها وحَرّ القيظ أذاب شحمها ووحوش الغاب مزّقت جلدها وطيور السماء نتفت شعرها فلم يبق منها سوى هيكل من عظام مطروح على أكمة من رماد.

لقد فتك الأعداء بأبنائها وهدمت الحروب بروجها وهياكلها وأفنت اللصوص حقولها وكرومها ولم يبق لها غير مضجع من تراب ومسند من هشيم.

لقد اختلس الفاتحون خزائنها واقتسم الجنود عقودها وأساورها وسرق

(١) تقول مرآة الغرب التي اختصها الكاتب بهذه المقالة أنه ربما كان يقصد سورية بمقالته ولهذا جعلنا عنوانها «الى السوريين».

الرعاع أثوابها ومناطقها فلم يبق على جسدها سوى إكليل من الأشواك وقلادة من الدموع.

دعوها تنسحق فأنتم لا تستطيعون انتشالها من بين الأقدام والسنابك لأنّ الخوف قد أمات نفوسكم والتردّد أوهى سواعدكم والجبانة كسرت سيوفكم ورماحكم.

تفرّقوا عنها صامتين فالعويل لا يبعث الأموات والصراخ لا يعيد الأرواح. قفوا بعيداً ساكتين فأنّة الكهوف لا توقف مدّ البحر وجزره.

دعوها تقضي فهي أمام عرش الموت أكثر هيبة منكم تحت أقدام العبودية.

أمّا أنت أيّها القلب الكبير المنير المملوء بأغاني الحياة والحريّة فسر أنت وحيداً منفرداً نحو قمّة الجبل وما هذه الأشباح التي تراها على جانبي الطريق سوى صخور جامدة وعظام بالية(★).

(★) مرآة الغرب، ٢١ تشرين الثاني، ١٩١٠، نقلاً عن «عقيدة جبران» لجان دايه ص ٢٢٩.

٥ ـ فتى الأرز

إلى روح سليم حنا ضاهر

لقد مات فتى الأرز فهلم يا أبناء الأرز نحمله على نعش من الغار والورود ونطوف به الأودية والمنحدرات.

لقد مات فتى الجبال فلنقلده سيف ابيه ونكفنه باعلام جده وندفنه حيث دفن المردة ابطالهم.

قد مات ابن الفوارس فاسرجوا خيوله وزينوها بسلاسل الفضة وسيروها وراء نعشه فهو يستأنس بصهيلها ويطرب لوقع سنابكها.

قد مات عميدكم ايها الفتيان فلا تندبوه ولا تغمروا جثمانه بالعويل والبكاء بل اعيدوا حديث أيامه ولياليه ورددوا ذكر مناقبه ومآتيه.

لكل امرىء يوم تنعكس فيه رسوم حياته على وجوه قومه. ويوم ذوي النفوس النبيلة يبتدىء باحتضارهم ولا ينتهي بموتهم بل يظل مستتباً على مرسح الوجود حتى ينغمر الوجود بضباب الأبدية.

ولكل فتى حقيقة يبينها الصباح ويخفيها المساء أمـا حقيقـة ذوي القلـوب الكبيرة فتظهر مشعشعة عندما يسيرون في موكب المنايا ولا تختفي حتى ينقرض الانسان. إذاً لا تنوحوا على فتى الأرز يا أبناء الأرز فهو في مسارح

الأخيلة أكثر شرفاً من أسيري الاجساد .

ولا ترثوه فهو أمام العرش الأبيض يسخر بالجالسين في ظلال العروش السوداء ولا تقرعوا الصدور حزناً عليه فهو بين أجنحة الموت أكثر حرية من المقيدين بسلاسل الحياة.

لا تبكوا عليه لان من يبلغ المنايا وهو جميل الروح نبيلها تجدد المنايا أيامه وتوقفه ثانية أمام وجه الشمس. ولكن من كان بينكم عزيز الدموع طليقها فليبك على نفسه لأنه فقد بموته صديقاً وعميداً وطبيباً وشاعراً وأديباً (★).

(★) « مرآة الغرب » ٩ تموز ١٩١٢ ، نقلاً عن « عقيدة جبران » ص ٢٣٤ .

٦ ـ رضا توفيق بك

إذا عاند القضاء أمة جعل حكماءها تحت رحمة جهالها.

وإن صح قول الأقدمين ان القضاء فكرة قوية خفية عمياء تطوف في مشارق الأرض ومغاربها أقل ان تلك الفكرة تهزل مع الأمم كافة ولكنها تسخر بالعثمانيين وتداعب الشعوب في بعض الأحايين ولكنها تلعب بالأتراك على الدوام.

منذ بضعة أسابيع القى رضا توفيق بك الفيلسوف العثماني خطابا في مجمع عام في الآستانة، ولم ينزل عن منبر الخطابة حتى حكم عليه (الأحرار المتحدون الراقون) بسجن خمسة وعشرين يوماً ذلك لأنه لم يحصل على إجازة من الحكومة عندما افتكر ليتكلم وقبل أن تكلم ليجعل الناس ان يفتكروا.

ومنذ اسبوعين وقد افرج عن رضا توفيق بك ذهب إلى مدينة كولمنجة وبينما كان يتكلم عن الانتخابات الحاضرة هجم عليه خمسة عشر رجلاً من رعاع الأتراك واجلافهم وطفقوا يضربونه ضرباً مبرحاً حتى أدموه وأنهكوه.

إن الحكومة العثمانية قد سجنت الفيلسوف ورعاع العثمانيين ضربوه وأهانوه، ومن يجد فرقاً بين حكومة تضع رجلاً مفكراً في ظلمة السجن،

وأجلاف يضربونه على قارعة الطريق يكن من العميان الثرثارين الذين لم يرثوا عن آبائهم سوى علم الكلام المحبوب كثيراً عند الشرقيين.

ولكن إذا أراد الله إظهار حق بعث إليه من يقاومه.

إن حكومة الاستانة قد أولت رضا توفيق بك شرفاً عظيماً على غير قصد منها عندما حكمت عليه بالسجن. ورعاع كولمنجة قد حبوه وسام فخر اثيل على غير معرفة منهم لما أوسعوه ضربا وإهانة. لأن العدل الخفي لا يأخذ من الفرد الكبير راحته الجسدية الا ليمنحه شرفاً نفسياً عوضاً عنها، ولا يستبيح دماء الرجل الحر الا ليصوغ له عقوداً من المجد والفخار.



إنما الحرية الحقيقية عاطفة تحبل بها الأرواح الراقية ولكنها لا تتمخض بها إلا في ظلال الاستبداد ولا تلدها إلا أمام العروس القائمة فوق العظام والجماجم البشرية.

الحرية شعلة مقدسة توقدها الآلهة في نفوس الأفراد الأقوياء ومهما اكتسحتها الأنواء والعواصف تظل متقدة مشعشعة هازئـة بدخان محيطها ساخرة برماد مضطهديها.

قد يسجن الحر اما حريته فتبقى مرفرفة في الفضاء المتسع أمام وجه الشمس. وقد يضرب الحر ويهان اما حريته فتظل في مأمن من الأيدي الخشنة والأصابع القذرة. وقد يموت الحر اما حريته فتبقى سائرة مع مواكب الحياة نحو الأبدية.



ومما لست افهمه وجود قوم يحاولون اخضاع الفكر وقتل المبادىء غير

عالمين ان مناصبة القوى النفسية تنميها والضغط على الأميال الوضيعة يثيرها. ومن العجائب ان يكون القائمون بشؤون الدولة العثمانية متعامين عما تركه لنا التاريخ من الأمثلة التي تظهر بأن الحق لا يغلب على أمره وان الذين يحاربون المباديء والتعاليم الاجتماعية يكونون كالذين يحاولون اطفاء النار بالزيت.

اما المبادىء التي تندثر بالمقاومة فليست بمبادىء بل هي من الأوهام التي تجيء مع اخيلة الليل وتروح بيقظة الصباح. والتعاليم التي تنسحق تحت أقدام المقاومين تكون خالية من الحقيقة، لأن الحقيقة روح أزلية أبدية تتوارى عن أبصار الناس هنيهة أو أكثر ولكنها لا تضمحل وتبتعد عن العائلة البشرية جيلاً وجيلين وثلاثة ولكنها لا تلبث ان تظهر امامها بظهور نبي كريم أو شاعر كبير أو مصلح عظيم وما الأنبياء والشعراء والمصلحون سوى أوتار فضية في قيثارة الوجود تحرك بحراك الفكر الكلي المطلق، وتولد انغاماً هائلة بعذوبتها، فتاكة بحلاوتها، خالدة بخلود السماء والأرض وما بينها من الملائكة والشياطين.

إن النبي الذي صرخ قائلاً «الله أكبر» لم يقل شيئاً من عنده بل أسمع الناس حكمة ترددها النجوم والشموس والأقمار وتُرجع صداها اعماق البحار وخلايا الأودية في كل دقيقة من كل ساعة من كل يوم وليلة. لم يختلق فكراً جديداً بل وضع في آذان البشر ما كان مختبئاً في قلوبهم منذ ابتداء الدهور.

والشاعر الذي قال «الجمال هو الحق» لم يبن أمراً خفياً بل فتح عينيه فرأى حقيقة أولية كائنة بكيان الطبيعة.

★ ★ ★

تقرر في ما جاء ان الحق قوة حية وضعية تعلن بذاتها على رؤوس الاشهاد رضي الناس ام غضبوا. وان القائمين باظهار الحق هم آلات توقع عليها أصابع الله الخفية، فإن ضربوا فالحق لا يضرب وان سجنوا فالحق لا يسجن وان قتلوا فالحق لا يموت بل يظل سائراً في سبيله ساخراً بالأيدي الضعيفة المتمسكة بقدميه.

فإذا كان رضا توفيق بك ممن اتخذهم الحق اتباعاً فليفتخر بظلمة السجن لأنها أوقفته خمسة وعشرين يوماً بين سقراط وميرابو، وليفرح بخشونة اكف الرعاع والاجلاف لأنها سقته بالكأس التي شرب منها على السعاوي ومدحت باشا، وليصرخ معي قائلاً إنما الحق عاصفة هوجاء وما المقاومون سوى أغصان يابسة ومنازل متداعية(*).

(*) مرآة الغرب، ١٧ نيسان ١٩١٢. نقلاً عن «عقيدة جبران» ص ٢٣١.

٧ ـ ما أكرم الحياة

ما أكرمَ الحياة، وما أسنى هباتها

ما أجودَ الأرض، وما أبسط راحتها

ولكن ما أعجزني عن الأخذ والقبول

ما أصغر جرّتي أمام فيض الحياة

وما أضيق حقيبتي حيال خزائن الأرض وكنوزها

ليتَ لي الف يد تمتدُّ وتتناول وتمتلىء ثم تفرغ لتتناول وتمتلىء ثانيةً بدلاً من يدٍ مرتعشةٍ مستترةٍ بطيات أثوابي

ليتَ لي الفَ يدٍ منبسطة أمام الحياة والأرض بدلاً من هذه اليد المستحيية القابضة على حفنة من رمال الشاطىء

ليتَ لي ألفَ كأس تترعها لي الأيام والليالي فأشربها وأبقى ظامئاً، ثم استزيد الليالي والأيام، ثم أشرب وأبقى ظامئاً

ليت لي الف كأس بدلاً من كأس واحدة طافحة بنقيع أنانيتي، هذه الكأس التي ما ترشفتها مرة إلا هجعت نشوانَ شهراً كاملاً

ليتَ بي جوعَ الف جائعٍ ، فأجلس الى الف وليمة تولمها لي الفصول الأربعة ، فألتهم ألوانها بشوق ولهفة وأظلّ ساغباً لاغباً .

ليتَ لي الفَ حشاً طاوية بدلاً من هذه الأحشاء التي تبطنت بالاكتفاء قبيل ولادتي

ليت لي ألف أُذن تسمع أُغنية تغنيني بها بلابل هذه اليقظة وشحاريرها ، وليتني أستعيد الأنغام بلجاجة من استعبدته سكينة السجون الف عام

ليت لي الفَ أذن بدلاً من هذه الأذن المصغية أبداً الى ندبة واحدة تتداولها أمواج البحر وهبَّات الريح .

ليت لي الف عينٍ ترى كل ما يعرضه عليَّ الوجود من عجائبه وطرائفه ، وليتني أبقى تائقاً إلى مرأى ما خفي عني من أسراره ومكنوناته

ليت لي الف عين بدلاً من عين واحدة أغمضت إلا عن شعاعٍ شحيحٍ تغالبه الأنواء فوق خط الأفق البعيد

ليت لي الف جسد فأرتدي الف حلة يخلعها عليَّ الفُ صباح والف مساء ، وليتني بعد ذلك أخجل من عريي وتجرُّدي فأقف مستعطياً متسولاً أمام الامساء والاصباح

ليت لي الف جسدٍ بدلاً من جسد واحدألبسهُ الخوفُ رداء منسوجاً من الضباب .

ما أكرم الحياة وما أجود الأرض

ولكن ما أعجزني عن الأخذ والنوال

ما أعماني عما أعطى كل يوم بل كل ساعة

ما أشغفني بهذه الذات الصغيرة المحدودة

هي الذرة التي تحسب نفسها عالماً لا حدّ له ولا قرار

هذه النواة المشغولة بقشرتها عن جمال الغاية وكمالها

هذه الغرسة الواهية التي أيقظها الربيع من رقادها ثم رفعها الصيف ووضعها على منكبيه، ولكنها تتوهم اليقظة ميزة فيها والرفعة صفة من صفاتها

هذه النصبة المغمورة بالنور ولكنها تحسب ظلها على أديم التراب آية من آياتها

وهل أنا وحدي المأخوذ بالصغير المحدود دون العظيم الفسيح؟

ترى هل أنا وحدي رهين الظلمتين ظلمة الأنانية وظلمة الاستكفاء

أليس بينكم أيها الناس من تمرُّ به مواكب الحياة فلا يلتفت ليشاهد أمجادها بل يظل منحني الرأس يداعب بأصابعه سبحةً من حصى الوادي

أليس بينكم من اذا شرب غبةً من الماء نسي صانعَ الكأس بل نسي الينابيع والأنهار

ومن إذا تناول لقمة من طعام ترفّع عمَّن طبخها بل عن الحقول والبساتين التي كوّنت عناصرها

ومَن إذا لبس رداء ناعماً توهم ان ذلك الرداء قد حيك بمعجزة لجلده الناعم، وأن الانسانية جمعاء لا تلبس سوى الألياف الخشنة.

ومن إذا توسَّد فراشاً ليناً شعر براحته أولاً ثم تمثَّل العالم كله متقلباً على الأشواك والحسك

ترى هل أنا وحدي أسير المحبسين محبس الدعوى ومحبس الكبرياء؟

أليس بينكم من إذا أشعل شمعة سخر بالكواكب ؟

ومَن إذا قال كلمة تصامّ عن تهاليل الدهور ؟

ومَن إذا كتب فقرةً ظنها زبدة النواميس والأنظمة

ومَن إذا تنهّد تنهدة استهزأ بالعواصف والبراكين

ومَن إذا مشى خطوة ظنّ انه بلغ المشتري

ومَن إذا قفز فوق ساقية حسب انه حلّق فوق المجرّة

ترى هل وُلدت وحدي عبد الغيبوبتين غيبوبة الجحود وغيبوبة النسيان

أليس بينكم ايها الرجال من إذا أحبته امرأة غفل عن عطفها ووقف أمام مرآته بجمال طلعته؟

ومَن إذا قيل فيه كلمة حسنة تبختر كالطاووس بدلاً من أن يقف متهيّباً خجلاً

ومَن إذا حباه القوم بمكرمة توهم انه مغناطيس جميع المكرمات

لا ، لست وحدي رهين الظلمتين ظلمة الأنانية وظلمة الاستكفاء

ولست وحدي أسير المحبسين محبس الدعوى ومحبس الكبرياء

ولست وحدي عبد الغيبوبتين غيبوبة الجحود وغيبوبة النسيان

لست وحدي، فكلنا من جبلة واحدة، فالفخّار في عظامي كالفخّار في عظامكم، والعصارة التي تتمشى في عروقي مثل العصارة التي تتراكض في عروقكم

وما أشْبه فكرتي اللاَّجئة الى المغاور بروحكم المحتجبة عن فضاء الله
ولكن الحياة كريمة ولولا كرمها ما حسبتنا من ابنائها
ولكن الأرض جوّادة ولولا جودها ما سيرتنا أمام وجه الشمس(*).

(*) جبران حيّاً وميتاً ص ١٥٩ - ١٦٢. والدرر المختارة. م. س. ص ٧ - ١٣.

٨ - أبو العلاء المعري - ١

لقد مرّ الف سنة على عهد ابي العلاء المعري ولكن أبا العلاء لم يزل حياً بحياة الفكرة البشرية كائنا بكيان الروح المطلق.

وأبو العلاء وهو منحجب وراء الف عليّة من نقاب الأبدية لفي غنى عن تمجيد وتبجيل الذين ما برحوا في قبضة المقاييس والكمية فنحن مهما فعلنا لا نستطيع ان نكرمه بعد أن مرت عشرة أجيال على انعتاقه من ظلم الحياة وظلمة الجسد غير أننا نقدر ان نتخذ اسمه الكبير واسطة لتكريم نفوسنا ونقيم من اخلاقه النبيلة معاهد لأخلاقنا ونبني من مظاهر روحه الخالدة مساجد لأرواحنا. فإذا ما عيدنا له لا نكون إلا كأطفال جائعين جلسوا حول مائدة شهية المآكل والمشارب. وإذا ما ترنمنا متشجعين بذكره لا نكون الا كقوم أخافهم هول الليل فهبوا قابضين على سيوفهم ورماحهم - وهل أوجد الشرق من الأسلحة المعنوية سيفا أمضى من اسم ابي العلاء أو رمحا أصلب من وجدانه؟ هل ظهر في سوريا فكرة أشد ذكاء من فكرة المعري؟ هل قام في الاسلام أو المسيحية روح تمردت على أوهام العصور وتقاليدها قبل أن تتمرد روح المعري؟

مهما علت أصواتنا لا تبلغ ذلك العالم الذي تسكنه نفس المعري. أما

صوته الشجي الرهيب فقد اخترق عشرة عصور وبلغ مسامعنا كهدير مياه غزيرة. صوت هائل برقته رقيق بهوله يرتفع بالأميال الى مسارح الخيال المطلق ثم يهبط بالأماني إلى مراسح الحقيقة المجردة. صوت تأتلف بنبراته ضجة الأمواج مع تنهدات الورود وصراخ العواصف مع تغريد البلابل. صوت شاعر أعمى. صوت متألم متمرد. صوت متجبر متجلد. صوت ملك من ملوك الفكر. صوت سوري عصامي يتموج لن يُخرسه الدهر حتى يغمر البحر جزيرة العرب ويفني الموت آخر عربي عن وجه الأرض.



هذا هو أبو العلاء المعري وقد حبانا القضاء فجعل عظمته ميراثا لنا فعلينا ونحن بحاجة الى امرىء نفتخر به ان نستثمر تلك العظمة ونعلم الآتين من بعدنا كيفية استثمارها. علينا أن نقوم بواجب أولي نحو ابنائنا وأحفادنا بأن نرفع بين المنازل التي نبنيها لهم تمثالاً جليلاً لأبي العلاء ينظرون اليه ويستظلون بفيئه ويومئون نحوه متفوقين عندما يجمعهم المستقبل بأبناء وأحفاد الذين يفتخرون بشكسبير ودانتي وملتون وجوث.

ولهذا أطلب اليكم أيها السوريون ان تشاطروني شرف القيام بهذا المشروع. اطلب من كل فرد منكم رجلاً كان أو امرأة. اطلب من العامل والأديب والتاجر والصحافي بل أطلب من كل من يحب نفسه ويكرمها ان يساعدني على ايفاء دين أوجدته الحياة وأوجبته علينا نحو نفوسنا.

ليس بينكم من لا يستطيع المساعدة بأمر من الأمور بالذي لا يقدر ان يساعد بماله فليساعد بقلبه أو بمحبته ولكن ان كان بينكم من لم ترزقه الأيام مالا ولم تعطه الحياة قلباً ولم يهبه الله حمية فله أقول «لست بسوري وسوريا بغنى عن أمثالك».

المرآة ـ «إحدى جوائز النبوغ» كلمتنا في هذا الموضع. فإن المنارة التي أقامها الله منذ ألف سنة في معرة النعمان واستضاء الشرق بها لا يليق بأبنائه نسيانها أو تناسيها. وفي كلمة اليوم لجبران كفاية للتذكير بواجب ادبي وطني خطير. ونود أن نرى للقول الحق تأثيراً ونسمع له صدى بتلبية الدعوة الى إقامة التمثال(★).

(★) مرآة الغرب ـ ١٨ حزيران ١٩١٤، نقلاً عن «عقيدة جبران» ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

٩ ـ أبو العلاء المعري ـ ٢

كان أعمى بين مبصرين، ومبصراً بين عميان، وقد قادته هذه الحالة الى الوحدة، فالتشويش، فالكآبة، فالشك، فالتمرد.

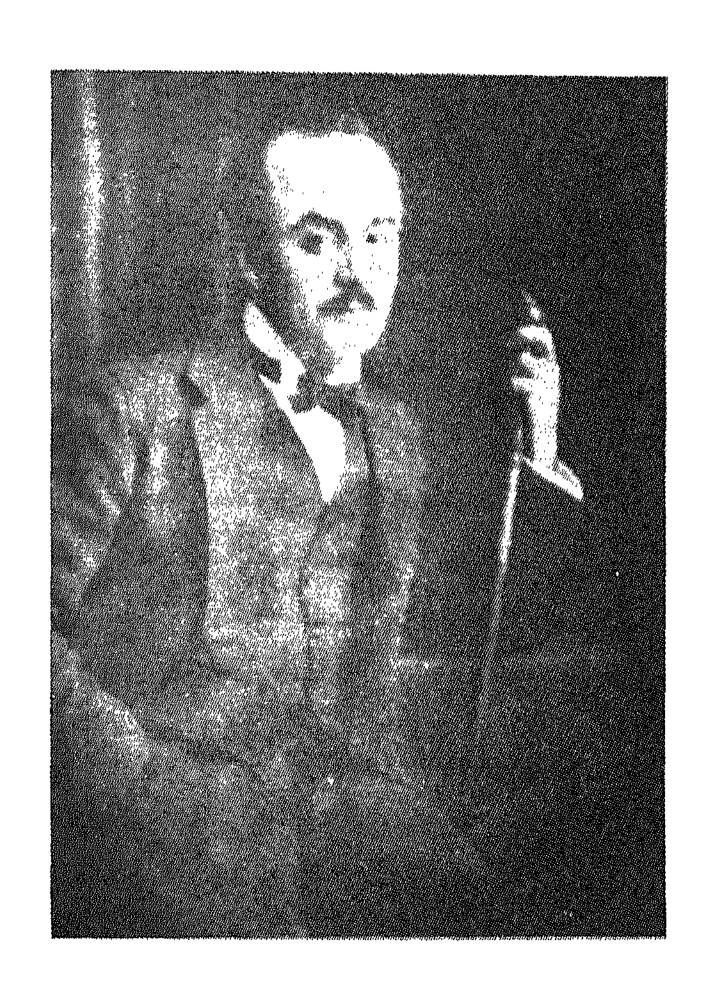
نظر إلى الحياة بعينهِ المعنوية، فرأى الخرافات فتوهمها ديناً، وأبصر الموت فظنه فناءً وحدّق إلى الفضاء فتخيّله رباً، فانتصب بين أشباح أفكاره يجدّف على اسم الحياة في جيلٍ مستسلم الى مشيئةِ الأيامِ والليالي استسلامَ العناصر غير العاقلة الى قوةِ الاستمرار.

كان شاعراً متمرداً ولم يكن فيلسوفاً، فالفيلسوف يجرد الوجود من ظواهره فيبدو له عارياً مطلقاً، أما الشاعر فيراهُ سائراً في حقلٍ من الأوزان الرنانة والمعاني المبتكرة. فالمعري لم يوجِد فلسفة مطلقة ولكنه أوجد شعراً مطلقاً.

ولكن أيٌّ بشريٌّ تمكن من إيجاد فلسفةٍ مطلقة؟

أوَليست الفلسفةُ كالأزياء تتبدّل مع العصور وتتقلبُ مع الأميال؟

إنما الحياة موكبٌ يسير أبداً الى الأمام، فالفيلسوف يستطيع أن يوقفها دقيقة بفكرةٍ مبتكرة، أو بتعليم جديد، ولكنهُ لا يقدر أن يصدّها عن متابعة



اخر رسم لجبران خليل جبران ـ صورة شمسية
عمل ج.و. هوبي نيويورك نقلاً عن مجلة السائح ممتاز ١٩٢٣.

السير إلى حيث لا ندري.

أما الشاعر فيسيرُ معها مترنماً، متشبباً راثياً، واصفاً مفاخراً، فإذا ما تنحّى عن سبيلها ضحكت منه، وإن ظلَّ متّبعاً آثارَ قدميها قادتُه إلى هيكلها الأقدس وكللته بالغار.

ولقد كللتِ الحياة أبا العلاء بأوراق الغار ولكنها لم تلتفت اليه كفيلسوف.

إن الحياة تتمرّد حتى على المتمردين(★).

(★) جبران حيّاً وميتاً ص ٧٢ - ٧٥

١٠ ـ أحبّ بلادي

أحب بلادي وللحب الف عين ترى والف اذن تعي.

أحب بلادي عليلة، وأحب ابناء بلادي مصابين، ولولا علة في جسم بلادي ومصاب في أرواح ابنائها، لما بقيت على العهد ولا صرفت الليالي بين ذكر وتشويق.

أحب بلادي مبصراً والحب ان فقد بصيرته ينقلب جهلاً، والجهل في الحب يضر المحب ويغش المحبوب.

أحب أبناء بلادي مستيقظاً واليقظة في الحب لا ترتدي الغزل ثوباً ولا تلبس المدح حلية.

أحب بلادي مفكرا والفكر في الحب لا يتوهم الهزل في قد المحبوب لينا ولا التكحيل في جفنه كحلاً.

أحب بلادي وابناء بلادي وليس في حبي ما يوحي الهيام والافتتان بل هناك قوة عذبة بسيطة لا تتغير ولا تتحول ولا تطلب شيئاً لنفسها.



زرت بالأمس منزلاً فخماً في هذه المدينة ولما دخلت القاعة الكبرى استلفتت ناظري صورة امرأة معلقة على الحائط. وقد قيل لي انها صورة ربة المنزل. فقلت في ذاتي «ما أكذب المصور الذي صنعها وما أغبى المرأة

التي ابتاعتها» قلت هذا لأن وجه ربة المنزل كان مجعداً جافاً مشوش المعاني. أما وجه الصورة فكان جميلاً ناعماً متناسق الخطوط خالياً من كل عيب. ولما سألت صاحبة الصورة عن راسمها أخذت تمدحه وتتفنن بالثناء على نبوغه.

ولما خرجت من ذلك المنزل قلت لنفسي «ما أشبه صناعة هذا المصور بحب أكثر الناس لوطنهم وأبناء وطنهم - أولئك الناس الذين لا يرسمون بلادهم الا بخطوط المجد وألوان الفضيلة ولا يذكرون أبناء بلادهم الا بالثناء والاطراء».

وقد علمت ان ذلك المصور قد حصل على عشرة آلاف ريال لقاء كذبته الفنية، فماذا يا ترى يربح أولئك «الوطنيين» الذين يكذبون على نفوسهم وعلى قومهم وعلى الله.



ان محبة الوطن عاطفة وضعية في الانسان فإذا عانقت الحكمة هذه العاطفة تنقلب فضيلة علوية ولكنها إذا خاصرت الادعاء والبهورة تتحول إلى رذيلة قبيحة تضر صاحبها وتؤذي بلاده.

إذاً فلنحب بلادنا عالمين ذلها وانكسارها.

ولنحب أبناء بلادنا مدركين خمولهم.

لنحب أمنا مريضة ولنحب بعضنا ضعفاء متفرقين.

لنحب في النور مهما أبان النور من العيوب والمساوىء. لأن من يحب في الظلمة يكون كالخلد الذي يحفر الانفاق في ليل أبدي(★).

(★) السائح، ٢٠ نيسان ١٩١٦، نقلاً عن «عقيدة جبران» ص ٢٦٠ - ٢٦١.

١١ ـ أندروماك

قال لي بالأمس بعض الأصدقاء «تعال وشاهد معنا الليلة رواية عربية يقوم بتمثيلها سرب من السيدات والأوانس المرسينيات».

قلت وما الرواية.

قالوا «رواية اندروماك لأديب اسحق».

فقلت في نفسي ما أغرب الدهر وما أعجبه فهو يجمع في آن ومكان واحد أموراً متباعدة بعضها عن بعض يظنها الكثير لا تجتمع.

ثم عاد بي التأمل إلى أندروماك ـ تلك المرأة التعسة التي لعبت دوراً محزناً في المأساة الأبدية التي مثلها اليونان في طروادة. والتي أوحت الى هوميروس أجمل الأفكار وأنبل القوافي فجعلها في ايلياذته رمزاً للأمانة والوفاء.

ثم نشرت حافظتي رواية اندروماك لراسين العظيم. وفكرت في راشال تلك المرأة الفتانة التي كانت تمثلها على مسرح الكوميدي فرانسيز أمام لامرتين وفكتور هوغو وشوبان وسان باف فتجعلهم ان ينسوا ماضيهم وحاضرهم ويسجدوا أمامها سجود الهنود أمام كالي الهائلة.

ثم فكرت في أديب اسحق ـ تلك الشعلة التي تأججت يوما وليلة ثم انطفأت قبل ان تحرق ما يحيط بها من الهشيم والجذوع اليابسة.

ثم فكرت في بلدة مرسين المستعمرة اليونانية القديمة.

ثم فكرت في المرأة السورية ـ المرأة السورية التي تولد كالأمة وتعيش كالطفل وتضمحل كالتنهدة.

فكرت في هذه الأمور كلها ـ ثم عدت فقلت في سري: ما أعجب الدهر وما أغربه فهو ذا المرأة المرسينية تمثل دور امرأة يونانية أمام جمهور من السوريين في مدينة اميركية. أما الرواية فقد ولدت في روح هوميروس فتبناها راسين ثم استهواها اديب اسحق.

ذهبت مع أصحابي وشاهدت الرواية واتبعت فصولها حتى النهاية مصغياً لكل كلمة. ناظراً لكل حركة. بل شاهدت روايتين معا واحدة على المسرح وأخرى بين جمهور الحاضرين. فالأولى مأساة معنوية ابتدأت عند الساعة التاسعة وانتهت عند نصف الليل. أما الثانية فمأساة وضعية ابتدأت الأيام بتمثيلها قبل بناء بابل ونينوى وسارت فصولها مع الحروب والفتوحات ولن تنتهي الا بنهاية الدولة العثمانية.

ولم يكن في الرواية شيء من عظمة هوميروس ومن بلاغة راسين. فإن أديب اسحق كان كاتباً سياسياً اجتماعياً ولم يكن روائياً. ومأساته هذه لا تختلف بأناشيدها واسجاعها عن جميع الروايات التمثيلية التي ظهرت في مصر وسوريا في النصف الأخير من القرن التاسع عشر عندما كان فن التمثيل محصوراً بين طلبة المدارس وبعض ذوي الأصوات الرّخيمة.

ولم يكن في مشاهد الرواية اثر لطروادة ولا صدى لليونان. فالروح الأبدية التي جسمها سافكليس ويوريبيدس واستفانو بمنظوماتهم كانت في

تلك الليلة بعيدة عن ذلك الملعب بعد روح المتنبي والمعري عن شعراء مصر المعاصرين.

اما الممثلات فقد كن مخلصات بما أردن بيانه غير ان الاخلاص شيء والفن شيء آخر.

ولكن اسمعوا يا ذوي النفوس الظمآنة:

لقد كان بين الممثلات صبية حسناء اسمها السيدة ثيودورا ديبو وهي التي مثلت دور بطلة الرواية اندروماك.

ولهذه السيدة صوت لم أسمع نظيره على مسرح عربي بل لم أسمع ما يشابهه سوى مرات قليلة في حياتي وأنا قد صرفت قسماً كبيراً من حياتي مصغياً لأصوات الممثلين وأنغام المنشدين والمنشدات!

والغريب ان السيدة ديبو ليست ممثلة ولا هي منشدة. فذلك العنصر السيال الذي تغلب على عواطفي السورية لم يكن من تلك العناصر الصناعية التي تنمو بالدرس والممارسة والتي يستخدمها ابناء الفن لإيصال ما في نفوسهم الى نفوس سامعيهم - بل كان أعمق وأغرب وأبسط من كل ذلك.

في حنجرة السيدة ثيودورا كلوم نفسية. فإذا تكلمت أو انشدت انفتحت تلك الكلوم وسال منها دم قومها ووطنها. فكأن الالهة قد جعلتها في تلك الليلة مثالاً محسوساً للأمم الشرقية التي غلبت على أمرها كطروادة وحزنت كهكيوبا وتلوعت كاندوماك.

انشدت السيدة ثيودورا ديبو ثلاثة أناشيد على مذهب الأصفهان. وهذا اللحن كالنهواند يذكّر سامعه بكل ما مضى وانقضى ويصور لعينيه رسوم القوم الذين بعدوا عن أوطانهم وأشباح المحبين الذين فقدوا أحبابهم.

وقد كانت السيدة ثيودورا في هذه المواقف الثلاثة ترفع صوتها فيصير كنواح غدير الوادي في سكنة الليل. ثم تخفضه فيصبح أنينا لطيفاً دقيقاً.

صوت تمازجه الدموع وتعانقه التنهدات وتقطعه الغصات ـ صوت والدة فقدت أطفالها فجلست وهي لا تدري انها تندب صوت سوريا في حالة البؤس والأسى، صوت جميع المغلوبين أمام وجه الشمس.

وقد سمعت هذا الصوت عندما وقفت مساء بين خرائب بعلبك. وسمعته عندما جلست قبالة اسوار أورشليم المتداعية. وسمعته في ميناء بيروت على ظهر باخرة فرنسية وقد وقف ابناء لبنان يحدقون بجبلهم ويودعونه بنظرات يغشيها الدمع، وسمعته في وحدتي وانفرادي.

وقد أخبرني الأصدقاء ان السيدة ديبو طرابلسية الأصل والمعلوم ان أقدم الأسر المسيحية في طرابلس متحدرة من أصول يونانية. فيا ترى هل يجري في عروق هذه السيدة قطرة دم لم تزل تحفظ العهد لقدماء اليونان، وفي أول فرصة سنحت لها قامت تعيد ذكرهم وتنوح على أمجادهم؟

يقول العرب «العرق دساس» والمرء ابن ما يرثه. وعندي أن أكثر ما نرثه من الخصال والأميال يختبىء في أعماق كياننا فلا ندري بوجوده حتى يأتي يوم موافق لتبيانه. أوليس للدم حافظة تطوي بتلافيفها تذكارات الأجيال الغابرة لكي تنشرها في الأجيال الآتية؟

وهل تعود السيدة الأديبة وتسمعنا ثانية أناشيد روحها. أم كانت ليلة السبت الغابر آخر عهدنا بها. هل نزل الستار للمرة الأخيرة على مواهب ثيودورا ديبو كما نزل على مواهب الكثيرات من السوريات اللواتي يأتين هذا العالم وفي نفوسهن شعلات متّقدة فيطفئنها بالاهمال ثم يرقدن مع الذيـن رقدوا غير تاركات على رمال هذه الشواطىء أثراً لخطواتهن ولا في خلايا

هذه الأودية صدى لأصواتهن؟

ان الأمم تحيا بمظاهر افرادها وقد جعل الله المظاهر الفنية من حياة الأمم بمقام الثمار من الأشجار. ولكن كيف تتحول أزهارها إلى أثمار يانعة، وتقاليدنا الاجتماعية تقتلع الأنصاب من حقولنا قبل انقضاء الربيع؟(*)

(*) مرآة الغرب - ٣١ كانون الثاني - ١٩١٦، نقلاً عن «عقيدة جبران» ص ٢٤٥ - ٢٤٧.

١٢ ـ حفَّار القبور والمبخرون

تعالوا أيها السوريون نقم لنفوسنا تمثالاً من العاج والذهب لأن أمجاد نفوسنا قد كثرت أمام وجه الشمس.

هلموا نسجد أمام أرواحنا لأن مآتي أرواحنا قد تعالت حتى بلغت عروش الآلهة.

قوموا نعظم أعمال أيدينا لأن أعمال أيدينا قد أنارت ضمير الوجود وغيرت وجه الأرض وسارت بالأمم والشعوب من الجهالة الى المعرفة ومن البؤس إلى الرخاء.

اضربوا الدفوف ايها الفتيان وانفخوا الزمور أيها الكهول ارفعوا رؤوسكم أيها الشيوخ فالزمان زمان تهليل وتسبيح والمكان مكان تبجيل وتكريم. اجتمعوا حولي يا أبناء لبنان لننشد أهازيج التغلب والانتصار لأن العلي قد سكب أنواره على شعبه الخاص.

أما أنت يا ابنة أورشليم فلتكن أغانيك كيقظة الربيع وتمايل قامتك كتموج الانصاب أمام نسيمات السحر...

أوآه ما أجل السوري وما أجمله عندما ينتصب مفاخراً بأعماله ومآتيه.

أوآه ما أرق السوري وما ألطفه عندما تعود به الذكرى الى تاريخ أجداده الفينيقيين والكلدانيين واليونان والعرب.

أوآه ما أنبل السوري وما أشرفه عندما يحسب المشتري أباه وعشتروت أمه والبعل عمه وتموز خاله.

أوآه ثم أوآه ثم أوآه.

لو كنت طويل النفس مديده لملأت العالم بألف أوآه واوآه.

ألا فاخبروني أيها الصحب ماذا فعل الشعب السوري في الألف سنة الأخيرة؟ وإياكم ذكر الأفراد القليلين الذين تركوا سوريا ونجحوا بعمل من الأعمال في أرض الغربة فأنا قد حفظت اسماءهم في قلبي ودونت أعمالهم في دفتر نفسي فلست بحاجة الى من يعيد ذكرهم على مسمعي. بل اخبروني ما فعله السوريون كشعب في الألف سنة الأخيرة؟

هل قام السوريون بحركة إجتماعية تذكر إذا ذُكرت الحركات الاجتماعية؟ هل وضعوا علما يفيدهم أو فنا ينيرهم أو صناعة تغنيهم؟

هل ثاروا مرة واحدة على حكامهم ومضطهديهم الذين كانوا وما زالوا يمتصون دماءهم ويستدرون دموعهم؟

هل ظهر بينهم رجل حديدي الارادة سامي الأميال وقادهم إلى مجد الحرّية أو إلى مجد الاستشهاد؟

هل بنى السوريون مدرسة من مالهم الخاص؟ وفي أية حالة تكون شبيبتنا اليوم لولا المعاهد التي أقامها الاميركيون والفرنسيون والروسيون والطليان والألمان؟

هل نسيتم ماء الآبار الذي كان يشربه سكان بيروت قبل أن يأتيهم الانكليز بماء الضبية؟

هل نسيتم تلك الطرق التي كانت تصل بيروت بدمشق قبل أن يضع الفرنسيون الخط الحديدي؟

هل نسيتم موانىء بلادكم منذ عشرين سنة قبل أن ينظر الافرنج اليكم كفريسة تجارية؟

هل نسيتم ان قلعة بعلبك كانت مزربا للبهائم قبل أن يأتي الألمان اليها؟

هل نسيتم ان الحائط الذي بناه رستم باشا حول غابة الأرز قد قامت بنفقاته الملكة فكتوريا؟

نعم أيها الأصحاب ـ ان غابة الأرز التي يتخذها اللبنانيون شعاراً لهم ورمزاً لخلودهم قد كانت على وشك الاضمحلال مثل سواها من الغابات في لبنان لولا انعطاف الملكة الانكليزية.

تقولون هذه أمور تافهة لا يعتد بها ـ وقد يكون الحق بجانبكم ـ إذاً فلنذكر الأمور العظيمة.

هل نسيتم سنة الستين؟ وماذا كان يحل بنا يا ترى لولا حملة الجنرال بوفور وانعطاف القسوس الاميركيين؟ وماذا كانت نتائج سنة الستين؟ ان كنتم نسيتم فاسألوا روح فؤاد باشا وروح البطريرك بولس الحائمتين فوق لبنان والاستانة.

بماذا يحق لنا ان نفتخر كجماعة ايها السوريون؟ ان عرب الجزيرة يفاخرون بكونهم قد جعلوا اليمن مقبرة لأعدائهم فبماذا أنتم تفاخرون؟

يفاخر اليونان والبلغار والسرب والألبان بكونهم ظلوا يناضلون الأتراك

ويصارعون حتى تملصوا من قيودهم فبماذا أنتم تفاخرون؟

هل تفاخرون باليقظة غير ترجمات بليدة عن كتب الافرنج وبعض دواوين من الشعر العقيم العتيق الذي لا يتعدى بمعانيه ومبانيه حدود التهنئة والمديح والرثاء؟

هل تفاخرون بوطنيتكم وكلما قلد الأتراك أحدكم وساما تحول الى تركي مغولي؟

هل تفاخرون بميلكم الى الصناعة الوطنية والنجار الدمشقي يموت جوعاً والحائك الزوقي قد ترك وطنه بينما الموسر فيكم يرتدي الملابس الفرنسية ويأكل من آنية انكليزية وينام على سرير طلياني ويجلس على مقاعد نمسوية؟

هل تفاخرون بطيب هواء لبنان وعذوبة مائه؟ ان الهواء لم يكن نفسا من انفاسكم واما الماء فلم تمزجه الآلهة بعسل ريقكم - ولو كان بإمكانكم لأفسدتم الهواء وسمّمتم الماء هل تفاخرون بآثار أجدادكم وآثار أجدادكم مغمورة بالرماد وما ظهر منها يذهب إلى متاحف أوروبا وأميركا فإذا أراد ، واحد منـا أن يتفحص معانيها ومعالمها عليه أن يزور باريز ولندن وبرلين وبتروغراد وفيانا وورومية ونيويورك.

هل تفاخرون بما قاله كبار الغربيين عنكم؟ ليت شعري أنسيتم ما كتبه رينان ودي روستثال وهنت وبيشون والدكتور جـب وغيره من أساتذة أميركا الذين عاشوا بينكم؟ أوليس استشهادكم بأقوال الغربيين فيكم أوضح دليل على اعتمادكم على الغربيين في كل الأمور وفي كل الأحوال؟

أنتم تفاخرون بنوابغ الأفراد وأنا أفاخر بهم مثلكم. ولكن ماذا فعلتم أمام هؤلاء الأفراد النوابغ؟

هل استطاع واحد منهم ان يبقى في أرض مولده بين أهله وخلانه؟

أولم يتركوا سوريا طالبين الرزق في مصر وفرنسا وانكلترا والبرازيل والولايات المتحدة؟

أولم يحمل اليأس أفضلهم على اظهار ما في روحه من الميول والأماني بلغة غير لغتهم؟

اخبروني ايها المفاخرون. هل يقدر الرجل الغني ان يعيش في سوريا والقوم لا يذكرون الموسيقى إلا إذا لعبت الخمرة في رؤوسهم ولا يدعون المنشد الا الى الأعراس ولا يذكرون النحات والرسام الا إذا ما ذكرتها صحف الافرنج؟

ألا تخجلون من ذكر النوابغ الأفراد وأعظم نبي قام بينكم مات مصلوباً وآخر شاعر ظهر فيكم قضى منفرداً. ألا تصمتون حياء اذا ذكر الجندي وحسون ومراش والحداد؟

أولم تزل حياة هؤلاء نصب عيونكم؟ فبماذا تعتذرون؟

أتعتذرون بقولكم إنما الفنون من الكماليات ونحن بحاجة الى ضروريات الحياة؟

هل المركبات التي تجر اغنياءكم والحلي والحلل الباريزية التي تزين أجساد نسائكم والرياش الافرنجية المكردسة في منازلكم من ضروريات الحياة؟

هل صار الابسنت الفرنسي انسب وانفع لمعدكم من النبيذ السبعلي والعرق الزحلي؟ هل صار البيانو ـ وقل بيننا من يحسن الضرب عليه ـ أشد تأثيراً في نفوسكم من رنة القانون الحلبي وأنة الناي الطرابلسي وطنة العود

الدمشقي؟ واي ساحر يا ترى جعل الجنبون ألذ طعماً في أفواهكم من نكهة المقانق؟

من الأمور الهينة ان يغمس الكاتب قلمه بمزيج من السمن والعسل ليكتب عن قومه وبلاده. ومن الأمور المستحبة ان يملأ المرء فيه لؤلؤا وينتصب متكلما عن فضائل شعبه ومحاسن وطنه. وانا ـ أنا الكبش الأسود ـ قد فعلت ذلك بأكثر من لغة واحدة وأمام قوم متحدرين من شعوب مختلفة.

ولكن من الأمور الصعبة ان يغمس الكاتب قلمه بدم قلبه ليكتب عن ابناء أمه.

من الأمور الصعبة أن يضع المرء عواطفه وميوله جانباً قبيل ان يتكلم عن الشعب الذي أوجد العواطف في صدره وأنبت الميول في روحه.

وبينكم أيها السوريون من يعلم أن لفظة «سوريا» وحدها كافية لابدال ابتساماتي بالدموع وتحويل أنغام مسرتي الى الشوق والحنين.

بينكم من يعلم اني أوثر الأشواك التي تنبت في سهول بلادي على الورود والزنابق التي تنمو في حدائق باريز ولندن ونيويورك. وأفضّل الكهوف في أودية لبنان على القصور القائمة على جانبي الشانزليزي والشارع الخامس. فأنا ـ أنا الكبش الأسود ـ اهتز كأوراق الخريف إذا نظرت الى الوجوه السورية الجميلة بكآبتها أو إذا سمعت الأغاني اللبنانية المفعمة بشكوى النفس وتشويقها.

بينكم من يعلم ان أعمق حاسة في كياني المعنوي تتجسم بقول القائل «بلادي محقة ومحقوقة». غير أني وجدت العواطف التي تولدها العصبية قد أعمت بصائر أدبائنا والمفكرين بيننا ووقفت حاجزاً في سبيل رقينا وتقدمنا.

وقد تكون وظيفة المبخرين أمام الجنازة الطف وأسمى من صناعة حفار القبور ولكن لا تنسوا أن من يحمل الرفش على كتفه لهو أنفع من الذي يملأ جيوبه بالبخور(*).

(*) مرآة الغرب، العدد ١٦٢ - ٢٧ آذار ١٩١٦، نقلاً عن «عقيدة جبران» ص ٢٥٢ - ٢٥٥.

١٣ ـ حفار القبور والأحياء

أنا لا أطلب من أصحابي القدماء أن يساعدوني بحفر القبور لأنني لا أريد أن أحمّل أحداً فوق طاقته.

وأنا أعلم أن نفوسهم تأبى حمل الرفش وأنوفهم الحساسة تكره الرائحة المتصاعدة من بين الأجداث.

وفوق كل ذلك ان صناعة حفر القبور ليست بالأمر الهين البسيط فقد حاول كثير من الناس اتقانها ولم يفلحوا.

أنا لا أطلب من أصحابي مساعدتي بحفر القبور ولكنني أطلب اليهم ان لا يحنطوا الأموات ويضعوهم في صحن الدار بين الراثين والمؤبنين وأصحابي القدماء يعلمون جيداً أنني لا أريد ولا أقدر ان أواري في التراب الا ما كان ميتا بالياً. أما الحي قويا كان أم ضعيفاً فأنا أسكنه روحي وأطعمه قلبي وأسقيه دمي.

ولنعد الآن إلى الموضوع.

يسأل أصحابي «هل يوجد في السوري بذرة صالحة للنمو وحرية بالاستثمار. وما هي الواسطة لانمائها؟»

وجوابي على هذا السؤال هو ـ نعم وألف نعم ونعم. ففي السوري بذرة بل بذور حية صالحة للنمو خليقة بالاستثمار.

ان البذور الحية موجودة في كل شعب من شعوب الأرض ولولا وجود تلك البذور الصالحة في الشعوب الضعيفة لكانت سنة بقاء الأنسب تحاربها بعوامل خفية حتى تنقرض وتزول.

أكبر دليل على وجود البذور الحية في كيان السوري هو بقاؤه للآن أمام وجه الشمس بعد خمسة آلاف سنة من مظالم وعبودية.

ولكن وجود بعض البذور الحية في الاهراء القديمة لا يدل على عدم وجود البذور المسوسة الكثيرة التي لا تصلح لشيء سوى الحريق.

من أجل ذلك أقول للسوري ـ وسأقول له ما بقيت فوق الأرض ـ «افتح يا أخي اهراء نفسك وانقذ البذور الجيدة القليلة من البذور المسوسة الكثيرة. وان لم تفعل ذلك في هذا الجيل تفقد البذور الجيدة في الأجيال الاتية لأن السوس الذي نخر الكثير سينخر القليل أيضاً».

أما طبيعة تلك البذور الحية فلم تظهر الى الآن الا في الافراد القليلين الذين تركوا سوريا والغصات تخنقهم. وإما في الجماعة فمظاهرها اشبه شيء بلهاث الطفل على بلور النافذة.

وأما كيفية انماء تلك البذور فمشكلة دقيقة لا يستطيع الرجل الفرد أن يحلها. لأن حلها متعلق بعزم وتشويق الجماعة التي تتخذ لها الأفراد المصلحين كعيون وآذان. ولا تتوقف على مشيئة المصلحين الأفراد الذين يتوهمون ان الجماعة وجدت لاتباعهم والعمل برأيهم.

ان المصلح المخلص لا يستطيع ان يخدم شعبه الا بإرادة شعبه كما ان الطبيب لا يقدر أن يعالج العليل الا بارادة العليل.

ولما كان لا بد من إظهار رأيي في حل هذه المشكلة فأنا أبديه بقالب حديث بسيط بين اثنين ادعو الأول « زيد » والثاني « عبيد ».

زيد ـ هل تعتقد يا عبيد افندي بوجود عناصر حية في السوريين كاملة؟

عبيد ـ نعم اعتقد بوجود عناصر حية قابلة للرقي في كيان السوريين المعنوي مع أنني للآن لم أر مظاهرها في مجموعهم بل رأيتها في افرادهم.

زيد ـ أوليس وجودها في افرادهم من الدلائل الحسنة؟

عبيد ـ نعم ولكن لا تنس ان الدلائل الحسنة التي ظهرت في الأفراد السوريين لم تنفعهم ولم تصلحهم كجماعة.

زيد ـ كيف يا ترى نستطيع ان نجلب الاصلاح للسوريين كجماعة؟

عبيد ـ في شرعي ان الوحدة السياسية تجلب الرابطة الاجتماعية والرابطة الاجتماعية هي أم كل فضيلة قومية.

زيد ـ هل يستطيع الافراد المصلحون بيننا ان يوجدوا وحدة سياسية في سوريا؟

عبيد ـ كلا. وسبب ذلك اختلاف العناصر وتباين المذاهب والمبادىء والمقاصد.

زيد ـ إذاً، أي أمر يأتي بالوحدة السياسية للسوريين؟

عبيد ـ يوجد واسطة واحدة وهي ان تحتل سوريا دولة قوية عادلة تريد الخير للبلاد والرقي لسكانها وان تبقيها تحت سيطرتها حتى يتعلم السوريون ما لا يستطيعون ادراكه بغير واسطة.

زيد ـ هل يعني هذا الكلام انك تريد أن يحل بسوريا ما حل بالقطر المصري؟

عبيد ـ نعم فمصر الآن هي في نعمة لا يعرف قيمتها سوى القليلين من المصريين ولو احتلت بريطانيا سوريا يوم احتلالها مصر لكنا اليوم في بحبوحة من العيش نحسد عليها.

عبيد ـ هل أوجدت بريطانيا في مصر كل ما يستحقه المصريون؟. ومن رأى مصر منذ ثلاثين سنة ويراها اليوم يعلم ان البلاد قد تقدمت شوطاً بعيداً في الآداب والمعارف والتجارة والزراعة. وأكبر دليل على رقيها ونجاحها مهاجرة افضل رجال سوريا ولبنان اليها.

زيد ـ حسن. ولكن الا ترى ان الاحتلال لا يجلب الحرية للسوريين تلك الحرية التي يطلبونها بكل ما في نفوسهم من الشوق والألم؟

عبيد ـ في شرعي ان الاحتلال هو الأمر الوحيد الذي يؤول الى حرية السوريين واستقلالهم.

زيد ـ وكيف ذلك؟

عبيد ـ ان السوريين بحاجة ماسة إلى معلم ماهر يدرسون عليه الفنون الدولية كالحكم النيابي والاقتصاد السياسي والتعاضد القومي والتمازج الاجتماعي. وبما أنهم قادرون على التقليد والاقتباس فلا يمر عليهم ثلاثون سنة في مدرسة دولة أوروبية الا ويخرجون منها حاملين شهادة تخولهم ان يحكموا ذواتهم بذواتهم.

زيد ـ هل تعني ان السوريين يستطيعون ان يتملصوا من الدولة التي تحتل بلادهم قائلين لها «الآن وقد تعلّمنا منك ما نريد تفضلي وأرينا عرض كتفيك»؟

عبيد ـ اعني ان سوريا إذا صرفت ثلاثين سنة في مدرسة السياسة

والادارة والاجتماع تصير جديرة بمجلس أمة مؤلف من أفضل ابنائها على اختلاف أجناسهم وأديانهم. أي انها تصبح أمة مستقلة إدارياً نظير نيوزيلندا والترنسفال وكندا. وعندي ان الافضل لسوريا ان تكون جزءاً من دولة قوية عادلة من أن تكون مملكة صغيرة ضعيفة كالجبل الأسود أو سربيا. وفوق ذلك ان مركز سوريا الجغرافي يجعلها عرضة للتغيير والانقلاب الأبدي الا إذا كانت عضوا من جسم دولة عظيمة.

زيد ـ ألا تظن ان السوريين يفقدون صبغتهم ولغتهم وعاداتهم الحسنة إذا انضموا سياسياً إلى دولة أجنبية؟

عبيد ـ بعكس ذلك. ان اللغة العربية قد تقدمت في مصر في الثلاثين سنة الأخيرة وذلك بفضل الاحتلال والمصريون لم يفقدوا من صبغتهم وعاداتهم الا التعصب المذهبي. اما في الهند فالآداب والمعارف والفنون قد نمت وارتقت جداً فظهر الأدباء والشعراء والمصورون والباحثون والمهذبون والمحسنون. اما ثروة الهند العمومية فهي الآن أوفر مما كانت عليه في أي وقت من تاريخها.

زيد ـ إذاً كل ما ترجوه الآن لسوريا هو أن تكون مستعمرة لدولة أجنبية؟

عبيد ـ لم تفهمني جيداً. أنا أطلب لسوريا معلما ماهراً يلقنها ويدربها حتى تصير أمة تتكل على ذاتها سياسياً واجتماعياً أي أنني أريد تربة جيدة لبقية البذور الصالحة الجديرة بالنمو والاستثمار.

زيد ـ لنفرض ان بريطانيا قد احتلت سوريا افلا تظن أنها تضمها الى مصر؟

عبيد ـ وما المانع في ذلك. إذا كان بإمكان دولة قوية كانكلترا ضم

سوريا والجزيرة الى مصر بقصد تأليف دولة عربية عظيمة عاصمتها دمشق أو القاهرة يكون ذلك أعظم وأفضل حدث في تاريخ الشرق الأدنى.

زيد ـ الآن وقد أظهرت لي رأيك في ما يؤول الى إنماء البذور الجيدة في طبيعة السوري فهلا أبنت لي ما تطلبه من السوري قبل وصول المعلم الأجنبي إلى بلاده؟

عبيد ـ اليك ما أطلبه من السوري... (أولاً) يجب على السوري ان يبطل الافتخار بالمجد القديم والجدود العظام والأرض المقدسة التي انبتته. (ثانياً) يجب على السوري ان يعرف جيداً ان في كيانه المعنوي من التقاليد والخرافات والعادات ما لم يعد صالحا لغير المقبرة. (ثالثاً) يجب على السوري ان يعلم جيداً ان بقية البذور الصالحة لا تنبت في تربة يفلحها المحراث التركي. (رابعاً) يجب على السوري أن يعلم جيداً ان نمو بعض تلك البذور في أرض المهجر لا يدل على خاصة شريفة فيها بل على وجود الأرض التي أنبتتها وأنمتها. (خامساً) يجب على السوري ان يعلم جيداً انه للآن لم يحصل على ما يدعوه الاجتماعيون حياة سياسية وانه لن يفوز بها الا بمعاونة دولة أوروبية.

هذا ما أطلبه وأرجوه لبلادي وأبناء بلادي. فإن كنت قد أخطأت قولوا هو الحب يعمي البصيرة وان كنت قد أصبت قولوا هو الاخلاص ابو العجائب(*).

(*) المرآة ـ العدد ١٧٩ ـ ١٥ نيسان ١٩١٦، نقلاً عن «عقيدة جبران» ص ٢٥٦ ـ ٢٥٩.

١٤ ـ أبو نواس

قال الامام الشافعي: لولا تهتك أبي نواس لأخذت عنه

هو جبار من الجبابرة المتمردين وبطل من أبطال الفكر وشجعان الحرية الذين ولدوا قبل أوانهم في وسط لم يقدرهم حق قدرهم، فاحتملوا التحامل، وجاهدوا في سبيل اطلاق شعلة الفكر من قيود الاستبداد والظلمة، وهلكوا. ولكن نتاج قرائحهم الحرة لم يهلك.

يذكر جمهور العامة أبا نواس في هذا العصر معتدين أنه الهازل الماجن الذي تروى عنه نكات مضحكة وتنسب اليه فعلات سخيفة حتى ان البعض لا يبخلون عليه بلقب «مهرج الخليفة». والحقيقة أن أبا نواس لم يكن مهرجا كما يفهمه العامة ولم تكن حياته كلها محصورة في منادمة الخلفاء بل كان شاعراً عظيماً مفكراً حراً لا يهاب ان يطلق العنان في شعره لكلمات حرة واعتقادات صائبة لم يجسر سواه قبله على النطق بها، فأتـم واجبات الشاعر الحقيقي الذي تخلده الآلهة والبشر، وكان أول من وقف في الاسلام وقفة الجبار أمام كتائب الخرافات والعوائد الواهية وما تفه من عقائد الأديان والشرائع، وطعنها طعنات اضطرب لها غلاة المتدينين والمتعصبين والمتمسكين فلم يبخلوا بأن يطلقوا على هذا الشاعر العظيم القاب «الخليع والكافر واللعين» وغيرها.

كان أبو نواس زعيماً لحركة فكرية شعرية أتت بعد ذلك الجمود الذي عقب انشغال الاسلام بالفتوحات والانشقاقات الداخلية فنتج عنه ضعف روح الشعراء المخضرمين والاسلاميين من الدور الأول. فكان دور أبي نواس دور ازدهار للشعر العربي الذي انطلق قليلاً من عقاله وللحرية الفكرية التي وضعتها العقائد الفقهية في قالب من حديد. فالتف حول أبي نواس حلقة من الشعراء الذين نسجوا على منواله واقتدوا به فدعوا «بالشعراء المولدين». وهم احدثوا في الأدب العربي طوراً جديداً خالفوا به القواعد الضاغطة المرعية والقوانين الحديدية. فكانوا أول من تملص من خناق الفاظ الجاهلية وقيود القواعد السخيفة في اللغة والأوزان المعدودة المحدودة في القريض.

امتاز أبو نواس في شعره بمحبته للحياة واندفاعه نحو كل جميل ومطرب ومنير فسبق عمر الخيام إلى مذهبه بمئات من السنين وما الخيام عند الحقيقة الا آخذاً عن أبي نواس مقلدا إياه. على ان شعر الأخير محصور في نوع واحد. وشعر أبي نواس لا يدع بابا دون أن يطرقه شأن الشعراء الكبار الذين ينزلون على الناس من علو سمائهم ما يخلقه شعورهم من حكمة ناضجة ومبدأ جليل ووصف شائق وفكاهة مطربة وعواطف رقيقة وأفكار دقيقة. ولو أن أشعار أبي نواس كلها محفوظة الى هذا العصر لرأينا فيها البدائع والغرائب من صرخات الفكر الحر المتدفق الثائر. ولكن التعصب الديني الذي قضى على مكتبة الاسكندرية بالحريق لم يسمح ان تبقى كل أقوال هذا الشاعر ولا سيما قصائده التي يظهر فيها نظراته في الدين. ولا شك ان الرواة والناسخين أعدموها عملاً بإشارة الائمة كما فعلوا بعدئذ بكتب سواه من جبابرة الفكر كالحلاج والمعري وابن رشد. فلم يبق لنا من اثار أبي نواس الا ديوان لا يضم نصف ما سال من قريحة الشاعر الوقادة،

إذا تأمله الناقد يرى بسهولة ان قصائد كثيرة من النوع المجوني منسوبة زوراً الى أبي نواس. ولا ننكر ان توسع أبي نواس في الحرية أوصله الى المجون ولكن الرواة بعده أصبحوا ينسبون اليه كل قصيدة مجونية مهما كانت درجتها في السخافة والحقارة.

مات أبو نواس قتلا بيد رهط من المتعصبين في الدين حسب رواية بعض المؤرخين. قتل لأنه جاهر بآرائه الحرة في شعره فمات شهيد الحرية. وكان من طلائع مجاهدي الفكر الذين سقطوا من العرب في معمان المعركة الكبرى التي تتأجج نارها منذ الأزل بين كتائب الظلام وفرسان النور(*).

(*) «الفنون»، ـ حزيران ١٩١٦، نقلاً عن «عقيدة جبران» ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

١٥ - ضمير الوجود

إذا حلت نكبة في قوم أبانت ما في نفوسهم من العزم والضعف والنخوة والتواني والكرم والبخل.

ولقد حلت في السوريين نكبة هائلة ليس في ماضي تاريخهم ما يماثلها شدة وقساوة وهم الآن منتصبون أمامها وعلى وجه كل فرد منهم صورة ما في ضميره من الأغراض والميول والأماني. فإن كان بيننا من لا يستطيع ان يقرأ ما كتب على تلك الوجوه. فليعلم هذا ان وراء المرئيات عينا لا يفوتها حرف ولا تهمل حرفا.

انا أؤمن بالله، والله في عقيدتي ضمير كل مطلق يحفظ ضمن كيانه العلوي زبدة ما يتصاعد اليه من مآتي الطبيعة والأمم والأفراد.

فإن كان بيننا من جعلته النكبة العظمى عظيماً فليعلم هذا ان ضمير الوجود المطلق قد وضع حول رأسه اكليلا من أوراق الغار الغير منظورة. وان كان بيننا من انسته النكبة ذاته وأبدلت أنانيته المحدودة بغيرية غير محدودة. ليعلم هذا ان ضمير الوجود قد رسم حول قلبه هالة من الشعاع الأبدي.

وإن كان بيننا من جعلته النكبة ان يعطي شيئاً مما اكتسبه بعرق الجبين

الى من تغمر عيونهم قطرات الدموع. فليعلم هذا ان ضمير الوجود قد بارك جبينا تندى بالعرق ويداً مُدت بالعطاء.

وان كان بيننا من جعلته النكبة ان يصرف أيامه ولياليه في سبيل السائرين في وادي ظل الموت. فليعلم هذا ان ضمير الوجود سيسيره أياما وليالي على السبيل المنيرة الممتدة أمام عرش الحياة.

وإن كان بيننا من جعلته النكبة ان يسكب ما في قلبه من العواطف وما في روحه من الإحساس على تلك الصدور التي داستها سنابك البؤس والشدة. فليعلم هذا ان ضمير الوجود قد نسج على صدره قميصاً من نسيمات الليل وندى الصباح.

ولكن إذا كان بيننا من لم تنبه نكبة أمته ما كان هاجعا في روحه ولم تحرك أوجاع قومه ما كان ساكتاً في قلبه. فليعلم هذا انه سيظل هاجعاً ساكتاً طول حياته. وانه وإن شعر اليوم بنوع من السلامة والطمأنينة فسيجيء يوم يندم فيه على فرصة أضاعها بين سلامة موهومة وطمأنينة سطحية.

ولقد نظرت فرأيت في كل نكبة ناموساً وضعياً يساوي القوي بالضعيف والغني بالفقير والحكيم بالغبي، وتجعلهم جميعاً ان يقفوا متهيبين أمام عرض الحياة والموت. فإذا كان بيننا من يريد ان يتنحى ليقف بعيداً عن النكبة والمنكوبين فليعلم هذا ان العدل الخفي - وهو من ضمير الوجود بمقام الكف من الزند - سيوقفه جانباً بعد أن تمر النكبة ويحل محلها انعطاف الله ورحمته فيصبح غريباً عن قومه وغريباً عن الغرباء وغريباً عن الحياة وكل ما في الحياة من الحقوق والواجبات(*).

(*) المرآة، ٥ آب ١٩١٦، نقلاً عن «عقيدة جبران» ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

١٦ - كلمة من جبران خليل جبران

اسمع يا أخي السوري. ففي قلبي كلمة أريد أن أرسلها إلى قلبك. تعال نتحدث دقيقة. وليكن حديثنا خالياً من كل كلفة - والحديث الذي يخلو من الكلفة يوجد التفاهم - والتفاهم بين الاخوان هو أسمى ما يحدث أمام وجه الشمس.

أنت تعلم مثلي أن الألوف من أهلك قد ماتوا جوعاً. وان الألوف من أهلي وأهلك يتضورون جوعاً في هذه الساعة - في هذه الساعة التي أشغلها أنا بالكلام وأنت بالاصغاء.

ولقد شاء الله فزالت الصعوبات وانفتحت أمامنا السبل وصرنا نستطيع ايصال المال والأقوات اليهم.

لقد صرنا نستطيع ايصال المال والاقوات الى قومنا ولكن ليس لدينا من المال والأقوات ما يكفي الواحد من المئة من أولئك المائتين الذين يحبون الحياة مثلما تحبها انت وأحبها أنا.

أنا أشعر يا أخي السوري - أشعر في أعماق قلبي انك تريد أن تمد يد المساعدة، ولكن لم تفعل الآن لسبب طبيعي.

أما ذلك السبب الطبيعي فهو هذا: أنت تتمنى لو كان بإمكانك ان تبعث

إلى لجنة المكنوبين بخمس مئة ريال ولكنك لا تقدر ان تبعث اليها بأكثر من خمسة ريالات لأنك رب عائلة وأشغالك لا تسمح لك بإرسال قيمة أكبر من هذه القيمة. وأنت لم تبعث بالخمسة ريالات لأنك خجول، ولأنك لا تريد أن ينشر اسمك مشفوعاً بهذه القيمة الزهيدة في عينيك ولأنك من قوم كرام يميلون إلى الاعطاء الكثير.

هذه الأسباب التي توقفك عن المساعدة وهي لا تخلو من الدلائل على شرف عنصرك وكبر مقاصدك.

ولكن اسمع يا أخي: لنفرض أنك وجدت نفسك واقفاً أمام منزل يحترق وفي المنزل عشرون شخصاً من اقربائك وأصحابك. فهل يا ترى تمتنع عن انقاذ شخص واحد من النار إذا لم يكن بإمكانك انقاذ العشرين؟

كلا. إنني أراك وقد دفعتك النخوة طارحاً بنفسك الى اللهيب مع علمك أنك لا تستطيع نصرة الجميع. أراك فاعلاً ما توحيه اليك الرجولية والحماسة. وهكذا نحن أمام نكبة بلادنا العظيمة. تلك النكبة التي يجب ان نتعاون عليها لنزيلها بما نقدر عليه لا بما نريده.

ان الواجب لا يفرض علينا أن نأتي بالمعجزات. ولكنه يدعونا الى القيام بكل ما نستطيع ان نقوم به.

الواجب لا يطلب منا أن نموت مع الذين ماتوا، حتى ولا ان نجوع مع الجائعين. ولكنه يصرخ في آذاننا قائلاً: إذا كان لديكم مئة رغيف من الخبز وأنتم لستم بجائعين، فاعطوا ولو رغيفاً واحداً لمن يموت جوعاً.

ولا تظن يا أخي أنك تستطيع ان تتملص من الواجب بقولك «انا لست رجلاً غنياً وعلى الأغنياء ان يعطوا الكثير من الأكثر الذي لديهم». ان

الواجب لا يميز بين العامل الذي يكتسب عشرة ريالات في الاسبوع والتاجر الذي يربح مئة الف ريال في السنة. بل يوقفهما أمامه قائلاً: ليغط كل واحد منكما حسب مقدرته. ففلس من الفقير يعادل الف دينار من الثري. وطالما كان العطاء بركة لمن يعطي، قلّ عطاؤه أو كثر.

والواجب لا يطلب من الفقير ان يتشبه بالمتوسط الحال ومن المتوسط الحال ان يتشبه بالغني. كما ان الحياة لا تطلب من الشحرور عزم النسر ولا من النسر تغريدة الشحرور

إذن فإني استعطفك يا أخي السوري باسم الألوف الذين ماتوا والمرارة في قلوبهم وبين شفاههم ان تبعث الى لجنة المنكوبين بما تقدر عليه لا بما تريده، وان لا تنس ان البحر مؤلف من قطرات. وان في كل قطرة كل ما في البحر من المعاني(*).

(*) السائح - ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٦، نقلاً عن «عقيدة جبران» ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

١٧ - الله في العاصفة

الشرقي يميل طبعاً الى مظاهر الحياة الناعمة فهو يكره الخشن حتى في الحقيقة ويتبرم من الصلب حتى في الحق. لذاك تراه ليّن الملامس، سهل الكلام، لدن الحديث، رخص المعاملة، مع أنك تشعر بأن وراء جميع هذه الأنقبة الحريرية خشونة في اخلاقه، وعسواً في أفكاره، وصلابة في مبادئه ومقاصده.

في كل بلد من بلاد الله تجد الناقد الاجتماعي ذا منزلة أدبية عالية. اما في الشرق فالانتقاد فن مجهول، وإذا كان هنالك بعض أفراد يميزون الخل من الخمر فهم غير معروفين، والسبب في ذلك هو ان الانتقاد أدبياً كان أم اجتماعياً لا يصدر إلا عن استقامة في الفكر، وفي الاستقامة صلابة والصلابة مكروهة عند الشرقيين ذوي الأحلام الرقيقة الناعمة، والميول الزنبقية العطرة.

السلطان في الشرق هو ظل الله على الأرض، والوالي في الشرق هو دستور الأمم، والحبر في الشرق هو الكوكب اللامع، اما ذلك الرجعي البليد الذي ينظم التهاني والمراثي الركيكة فهو الشاعر الفحل المطبوع.

وهذا لا يعني ان الشرقي لا يدرك في أعماق نفسه ان السلطان سفاح

والوالي لص، والحبر ذئب في ثوب حمل، وحامل المبخرة افاك. لا فالشرقي كالبشر كافة يشعر بما يشعرون ويعلم بما يعلمون، ولكنه لا يستطيع وهو الناعم المهذب ان يسمي الأشياء باسمائها الصحيحة لأن في ذلك ما يخدش الآذان ويدمي الافهام.

والشرقي يحمل لينه ونعومته ومباخره حيثما يذهب. ففي الولايات المتحدة لم تصدر جريدة قط إلا وهي الغراء وقد وجدت لخدمة الشعب!. ولم تمثل جمعية ما رواية إلاّ وهي أخت لروايتي «مكبث وهملت» اما الممثلون والممثلات فهم المضارعون «لبوث وارفن ووكو كلان وراشيل وروزا وسارة برناء» واما المنشدون في الحفلات وعلى المراسح فكلهم بلابل وشحارير!

وهذا أيضاً لا يعني ان الشرقيين في الولايات المتحدة لا يعرفون المليح من القبيح والسامي من التافه. كلا ـ لأن أكثر قراء الجرائد العربية يطالعون الصحف الانكليزية، وليس هناك من لا يذهب الى المراسح والملاعب الاميركية ولو مرة في الأسبوع. اما أذن الشرقي فهي بالإجمال حساسة وفيها أوتار لا ترتعش الا للأصوات الرخيصة والانغام الدقيقة، ولكن هي تلك النعومة الزنبقية تلك النعومة التي تجعلهم ان يفضلوا الكذب اللطيف على الحقيقة الجارحة، ويؤثروا الرياء المخملي على الاستقامة الصلدة والاخلاص الوعر.

ليس بين الشرقيين في الولايات المتحدة من لا يميز بين الشريف في المعاناة التجارية والمعيب منها. ولكن لو قام فرد وقال «ان بيع ماء الوجه ليس بالأمر الشريف» لو تجرأ وتلفظ بمثل هذا الكلام الأحرش الخشن يسد الشرقيون آذانهم، ثم يهمس بعضهم الى بعض: ما أغلظ هذا الرجل، وما أوحش لهجته!

إي يا أخي، لقد صنعنا الله من طينة عجنت بماء الورد، فالعظام في هياكلنا قد كونت من أنفاس الكاروبيم، والعروق في أجسامنا قد مزجت من تنهيدات الشاروبيم، أما جلودنا فقد فصلت من أوراق الياسمين، وأما أرواحنا فهي التي قال فيها الشاعر العربي:

خطرات النسيم تجرح خديه ولمس الحرير يدمي بنانه

إي والله، نحن أكثر الناس دقة ونعومة! غير أنني لا أدري كيف نستطيع ان نعبد الله وهو الذي يثير البراكين، ويتموج مع البحار، ويسير مع العاصفة، والعاصفة لا تكسر من الأغصان الا يابسها![*]

(*) السائح العدد - ٥٨١ - ١٢ آب ١٩١٨، نقلاً عن «عقيدة جبران» ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

١٨ ـ أبقوا في اميركا

ماذا تفضّل؟ ان تبقى في أميركا بلاد الاستقلال التي تدفع الأجور الحسنة وتتمتع فيها بالفرص والسعادة والأقوات والحرية، أو أن تذهب إلى بلادك، بلاد الخراب، حيث المصانع معطلة، والديون باهظة، والأجور قليلة والأقوات مفقودة والضرائب كثيرة؟ فلأجل خير الانسانية ـ ابقوا في أميركا.

قفوا ـ كل رجل او امرأة يفكر في السفر الى الوطن ـ تريثوا وافتكروا في ما أنتم فاعلون. فإن الانسانية تقضي ببقائكم حيث أنتم الآن في أميركا للقيام بالأشغال التي تقدرون عليها ولمساعدة وطنكم القديم نفسه على الحصول على الأشياء الضرورية التي لا غنى له عن أميركا فيها.

ألا تعلمون أن الأوطان تصرخ اليكم ـ أنتم ـ لمساعدتها على اشباع جوعها وستر عريها. ذلك لأن أميركا هي الوحيدة بين البلدان التي لم تنهكها الحرب والتي لها من غناها وعظمتها ما يساعدها عى مساعدة بلادكم ووقايتها من زيادة الخراب.

لذلك يكون من واجب اميركا الانساني ان تجهد نفسها لأجل مساعدة أوروبا والبلدان المنكوبة عموماً. ولما كنتم أنتم قسماً من قوة اميركا التي

تتوقف عليها حياة أوطانكم، فالواجب المقدس المفروض عليكم هو أن تبقوا في أميركا، وتساعدوها على انقاذ أوطانكم الأصلية.

وما الذي يحملكم على الذهاب إلى أرض ولادتكم التي خربتها الحرب وغشيها الجوع؟ انكم لا تقدرون على إعانة أوطانكم، أو أصدقائكم فيها. بل إنكم تزيدون في مصائبهم التي لا طاقة لهم على احتمالها حتى في هذا الوقت بترككم بلادكم عامرة، غنية، موفور فيها كل شيء وذهابكم الى بلاد خربة، فقيرة، موبوءة، لا حركة صناعية أو اشغال فيها لتضاعفوا ويلاتها.

لا تغرنكم الأقاويل عن توفر الاشغال في أوروبا، فإن العقل يرشدكم الى كون ذلك مستحيلاً ما لم تمر عدة سنين على أوروبا. وأنتم قد تركتم بلادكم بسبب انكم في «أوقات السلم» لم تلاقوا فيها الحالة الحسنة التي تودونها. فكيف يمكنكم ان تلاقوا ذلك فيها الآن بعد كل ما انتابها من الخراب.

فسواء عن محبتكم لمصلحتكم الخاصة، أو عن محبتكم للمصلحة العامة، يجب ان تبقوا في أميركا وتستثمروا فيها أموالكم وتبنوا لنفوسكم مساكن ثابتة، وتنشئوا أولادكم على مبادىء الوطنية الاميركية. وتصنعوا هنا الأشياء التي يمكنكم ارسالها إلى أوطانكم لمحو الشقاء المستحوذ عليها، ولمساعدتها على تجديد عمرانها(★).

(★) «السائح» - العدد ٦٣٧، ٢٧ آذار، ١٩١٩، نقلاً عن «عقيدة جبران» ص ٣٠٧.

١٩ ـ يا أخي السوري

يا أخي السوري

أنت أخي لأنك سوري والبلاد التي لفظتك كلمة في مسامع الأبدية قد همستني كلمة أخرى.

أنت أخي لأن البلاد التي حبلت بك ولدتني والفضاء الذي حمل أول صرخة خرجت من أعماقك يحمل أول صرخة تمخضت بها احشائي. أنت اخي لانك مرآتي فكلما نظرت الى وجهك رأيت ذاتي بكل ما في ذاتي من العزم والضعف ومن الائتلاف والتشويش، ومن الهجوع واليقظة.

أنت أخي لأني ما فكرت بأمر الا ورأيت عناصره تتموج في فكرتك وما سعيت الى امر الا ورأيتك سائراً اليه وما تقاعدت عن أمر لأنك منصرف عنه.

أنت أخي بيسوع وموسى ومحمد.

أنت أخي بكوارث خمسين قرناً.

أنت أخي بالقيود التي جرها آباؤنا وأجدادنا.

أنت أخي بالنير الثقيل الذي أثقل عاتقنا.

أنت أخي بالألم والدموع ومن تجمعهم نكبات الدهور وأوجاعها لن تفرقهم أمجاد الدهور وأفراحها.

أنت أخي أمام قبور ماضينا وأمام مذبح مستقبلنا.

★ ★ ★

يا أخي السوري

بالأمس وقد كان الضباب يغمر وجداني كنت الومك وأعنّفك.

واليوم وقد بددت الريح ذاك الضباب علمت أنني لم ألم سوى ذاتي ولم أعنف غير نفسي. فما استهجنته بالأمس بك أراه اليوم بي. وما كرهته في اخلاقك قد الفته معانقاً اخلاقي. وما حاولت اقتلاعه من روحك وجدت عرقه متمسكة بروحي.

نحن متساويان في كل ما جلبته الحياة الى ماضينا وكل ما ستجلبه الى حاضرنا.

نحن متساويان في كل ما آل الى شقائنا وما يؤول الى سعادتنا.

نحن متساويان وما الفرق بيننا سوى انك كنت هادئاً ساكناً متجلداً أمام مصابك بينما أنا كنت أصرخ متسرعاً وأصيح قانطاً في مصابي.

والآن وقد عرفتك وعرفت ذاتي، صرت إن رأيت عيبا فيك انظر الى نفسي فأرى ذلك العيب فيها.

يا أخي السوري

انت مصلوب ولكن على صدري والمسامير التي تثقب كفيك وقدميك تخترق حجاب قلبي.

وغداً إذا ما مر عابر طريق بهذه الجلجلة لا يميز بين قطرات دمك وقطرات دمي بل يسير في طريقه قائلاً: ههنا صلب رجل واحد(*).

(*) السائح - ٢٥ تشرين الأول ١٩٢٠، نقلاً عن «عقيدة جبران» ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

٢٠ ـ أحب من الناس المتطرفين

لا نعرف كاتباً تشف كتابته عن منازع روحه كجبران خليل جبران مليك الشعر المنثور في هذا العصر. وقد بين في هذا المقال الجميل ما يريده بالتطرف والمتطرفين ولا ريب ان كل نفس حرة تشاركه في حبه للفئة التي عناها بوصفه هذا.

المحرر

أحب من الناس المتطرفين

أحب القادرين على الهبوط الى لجج الحياة والصعود الى أعاليها

أحب الذين يميلون بكليتهم الى وحدانية الأمور فلا يقفون مترددين بين نقيضين

أحب النفوس الطافحة بمرام قوي ثابت وأهوى الأرواح البسيطة التي لا تقبل طبيعتها التركيب ولا يدخل على جوهرها الانقسام

أحب المتطرفين المتحمسين الملتهبين بشعلة نزعتهم، المضطربين بوجدان قلوبهم، المستسلمين الى عواطفهم، المنصرفين عن معترك المبادىء الى مبدأ خاص، المتحولين عن اختلاط الأفكار إلى فكرة أولية مجردة ترتفع بهم إلـى

ما وراء الغيوم وتنحدر بهم الى أعماق البحار.

قد خبرت المعتدلين، ووزنت مقاصدهم بالموازين وقست مآتيهم بالمقاييس، فوجدتهم جبناء يخافون الحق ملكاً والباطل شيطاناً :فيحتمون بأواسط العقائد والقواعد التي لا تنفع ولا تضر، ويتبعون السبل الهينة التي تقودهم الى صحراء مقفرة خالية من الرشاد والضلال، بعيدة عن السعادة والشقاء.

إنما الحياة صيف يترنم بحرّ أشواقه، وشتاء يتباهى بعزم عواصفه، فمن يعتدل بتكييف حياته وتبويبها ليجعلها في مأمن من نشوة الصيف وهول الشتاء كانت أيامه بلا عز ولا جمال، ولياليه بلا سحر ولا أحلام، وكان هو نفسه أقرب من الأموات إلى الاحياء، بل كان من المحتضرين الذين لا يقضون ليرتاحوا في احشاء الأرض ولا يعيشون ليسيروا في نور الشمس.

ان من يعتدل في دينه يقف حائراً بين خوفه من العقاب ورغبته في الثواب، فإذا ما مشى في موكب المؤمنين توكأ على عكازه، وإذا ما ركع مصلياً انتصبت فكرته ضاحكة منه.

ومن يعتدل في دنياه يبق حيث ولدته أمه، فلا يتراجع الى الوراء ليعلم الناس أمثولة بتقهقره، ولا يخطو الى الأمام ليرشدهم الى محجة أو مأثرة، بل يظل جامداً حائراً محدقاً في ظله مصغياً لطرقات قلبه قابضاً على أنفاسه.

ومن يعتدل في حبه لا يشرب من كاسات الحب حلواً مبرداً ولا مراً حامياً بل يبلل شفتيه بعصير مذق فاتر تستقطره البلاهة من مستنقعات الضعف والارتياع

ومن يعتدل في مناصبة الشر ومناصرة الخير لا يصرع شراً ولا ينجد

خيراً، يكتفي بأن يصون ما سال من عواطفه بما جمد منها، فيصرف عمره على شواطىء الأميال وهو كالمحار حجري الظاهر مخاطي الطوية لا يدري أي متى ينتهي مدّ الحياة أو متى يبتدىء جزرها.

ومن يعتدل في طلب المعالي لن يبلغها، بل يغمس قشرتها بطلاء لماع لا يجف حتى تمحوه نسمة من الريح أو موجة من النور.

ومن يعتدل في السعي وراء الحرية لا ولن يرى سوى آثار قدميها بين التلول والمنحدرات فالحركة كالحياة لا تبطىء ليلحق بها العرج والمقعدون.

ومن يعتدل في رغائبه يريد حياة إما طويلة رفيعة. أو قصيرة ثخينة. فتأتي رغم إرادته اما طويلة ناشفة أو قصيرة فظة. ولو كان من المتطرفين لجعلها مديدة بما يلازمها من الأعمال والمآتي. ضليعة بما يعانقها من الحق والحب والحرية.



قد سمعت المعتدلين العاجزين يقولون «القناعة كنز لا يفنى» فمقتتهم روحي وانصرفت عنهم قائلة «كيف يتحول القرود الى بشر والأقزام الى جبابرة وهم قانعون بضعفهم وتفاهتهم؟» وسمعت القرود والأقـزام يقـولـون «رأس الفضائل الاعتدال» ففرقت منهم روحي وحولت وجهها عنهم قائلة «هل يستطيع هؤلاء المخاليق ادراك حقيقة الأمور وهم محدقون بأواسطها، أفليس للأمور رؤوس وأذناب؟»

وسمعت ذوي العقول المفلوجة يقولون «عصفور بيدك خير من عشرة على الغصن» فتضجّرت منهم روحي وقالـت مغضبـة: «إنّ هـؤلاء البلـداء لا يستحقون الحصول على نصف عصفور حتى يبروا اقدامهم راكضين خلف

عشرة عصافير، افليس السعي وراء الأسراب الطائرة هو الجد في سبيل الحياة، بل القصد من الحياة، بل الحياة نفسها؟» أحب من الناس المتطرفين.

أحب ذاك الذي صلبه المعتدلون ولما لوى عنقه وأغمض عينيه قال بعضهم لبعض «لقد تخلصنا من المتطرف المقلق» ولم يدروا ان روحه كانت في تلك الساعة تسير متغلبة على الأمم وعلى الأجيال.

أحب ذاك الذي ترك سلطان ابيه وصولته، واستبدل الحرير بالاطمار، والرفعة بالذلة، وسار منفرداً الى غاية الوحي والتشويق، وبينا المعتدلون يسخرون به ويستغربونه كانت أصابعه الدقيقة تجمع بين ما ظهر من الوجود وما خفي منه.

أحب الشهداء المشغوفين المستميتين المسترخصين كل شيء الا الغاية القصوى، المستصغرين كل أمر الا الغرض الأسمى.

أحب الذين احرقوا ورجموا وشنقوا وقضوا بحد السيف من أجل فكرة امتلكت عقولهم أو عاطفة اشعلت قلوبهم.

أحب من الناس المتطرفين، فما رفعت كأسي الى شفتي الا لأذوق طعم دمائهم ودموعهم، وما نظرت من نافذتي الى الفضاء الا لأرى وجوههم، وما أصغيت للعاصفة الا لأسمع بأهازيجهم وتهاليلهم(*).

(*) «الهلال» - ١ تشرين الأول ١٩٢٥. نقلاً عن عقيدة جبران ص٣٢١ - ٣٢٣.

٢١ - إلى الشباب الاميركي المتحدر من أصل سوري

أنا أؤمن بكم وأؤمن في مصيركم.

أؤمن بأنكم مساهمون بهذه الحضارة الجديدة.

أؤمن بأنكم ورثتم عن آبائكم حلما قديما وأغنية ونبوءة تستطيعون وصفها بفخر كهدية عرفان بالجميل في حضن أميركا.

أؤمن بأنكم تستطيعون القول لمؤسسي هذه الأمة العظيمة: «ها أنذا، شاب، شجرة فتية قلعت جذورها من تلال لبنان، ولكني عميقة الجذور هنا وسأكون مثمرة».

أؤمن بأنكم تستطيعون القول لابراهام لينكولن المبارك «ان يسوع الناصري لمس شفاهك عندما تكلمت وأخذ بيدك عندما كتبت، وسأدعـمّ كل ما قلته وكل ما كتبت.»

أؤمن بأنكم تستطيعون القول لإيمـرسون وويتمان وجايمس: «ان في عروقي تجري دماء الشعراء والرجال الحكماء وأرغب بأن آتي اليكم وآخذ منكم، ولكني لن آتي فارغ اليدين».

أؤمن بأنه في الوقت الذي أتى آباؤكم الى هذه الأرض لتحصيل الثراء

فقد ولدتم هنا لتحصيل الغنى بالذكاء والعمل.

أؤمن بأن باستطاعتكم أن تكونوا مواطنين صالحين.

وكيف يكون المواطن الصالح؟

بأن تعترفوا بحقوق الآخرين قبل فرض حقوقكم ولكن ان تعوا دائماً حقوقكم.

بأن تكونوا أحرار التفكير والعمل وتعرفوا بأن حريتكم محكومة بحقوق الآخرين.

بأن تخلقوا الجميل والمفيد بأيديكم وتقدروا ما أبدعه الآخرون بحب وإيمان.

بأن تحصّلوا الغنى بالعمل، والعمل وحده، وتنفقوا اقل مما تحصلوا كي لا يعمد اطفالكم على مساعدة الدولة حين تموتون..

بأن تقفوا أمام أبراج نيويورك وواشنطن وشيكاغو وسان فرانسيسكو وتقولوا في قلوبكم: «نحن من سلالة الشعب الذي بنى دمشق وجبيل وصور وصيدا وانطاكية ونحن هنا الآن كي نبني معكم وبإرادة».

بأن تكونوا فخورين بكونكم اميركيين ولكن بأن تفتخروا أيضاً بأن آباءكم وامهاتكم أتوا من أرض وضع الله يده الرحيمة عليها ورفع فيها رسله.

يا أيها الشباب الأميركي ذوو الأصل السوري، انا أؤمن بكم[*].

(*) العالم السوري، العدد الأوّل، حزيران ١٩٢٦، نقلاً عن «عقيدة جبران» ص ٣٧٣.

٢٢ ـ لكم فكرتكم ولي فكرتي

كلنا فقير ولا غنيّ سوى الحياة. وكلنا مُستعطٍ ولا واهب الا الحياة

لكم فكرتكم ولي فكرتي

لكم فكرتكم شجرةٌ صلبة تتمسك عروقها بتربة التقاليد وتنمو فروعها بقوة الاستمرار ولي فكرتي سحابةٌ تتهادى في الفضاء ثم تهبط قطراً ثم تسيل جدولاً الى البحر ثم تتصاعد ضباباً نحو الأعالي.

لكم فكرتكم برجاً متيناً راسخاً لا تهزّه الأنواء ولا تحرّكه العواصف، ولي فكرتي أعشاباً ليّنة تميل إلى كل ناحية وتجد بميلها بهجةً وسروراً.

لكم فكرتكم مذهباً قديماً لا يغير ولا يتغير، ولي فكرتي بدعة جديدة أغربلها وتغربلني كل صباح وكل مساء.

★ ★ ★

لكم فكرتكم ولي فكرتي

لكم من فكرتكم أن يصرع قويكم ضعيفكم، ويحتال داهيكم على ساذجكم، ولي من فكرتي ان أحرث الأرض بمعولي واستثمرها بمنجلي، وان ابني بيتاً من الحجارة والطين، وان أحوك ثوباً من الصوف أو الكتان.

لكم من فكرتكم مصاهرة الجاه والثروة، ولي من فكرتي الاتكال على النفس.

لكم من فكرتكم الجدّ وراء السمعة، والركض خلف الشهرة، ولي من فكرتي ان أطرح السمعة والشهرة حبتين من الرمل على شاطىء الأبدية.

لكم من فكرتكم ان تحلموا بصروحٍ أثاثها من الصندل المرصَّع ورياشها من الحرير المفتول، ولي من فكرتي ان أكون نظيف الروح والجسم حتى ولو كنت بدون مكان اسند اليه رأسي.

لكم من فكرتكم أن تكونوا موظفين ملقبين، ولي من فكرتي ان أكون خادماً نافعاً.

★ ★ ★

لكم فكرتكم ولي فكرتي

لكم من فكرتكم قواميسها الاجتماعية والدينية ومطالبها الفنية والسياسية، ولي من فكرتي أوليات قليلة بسيطة.

تقول فكرتكم: «امرأة حسناء قبيحة، فاضلة عاهرة، حاذقة بليدة»، أما فكرتي فتقول: «كل امرأة والدة كل رجل، كلُّ امرأة اختٌ كل رجل، كل امرأة ابنة كل رجل».

وتقول فكرتكم: «لصّ، مجرم، قاتل، خبيث، عقوق». أما فكرتي فتقول: «إنما اللص صنيعة المحتكر، والمجرم خليقة الظالم، والقاتل حليف القتيل، والخبيث ثمرة العربيد، والعقوق نتيجة الصارم».

وتقول فكرتكم: «شرائع، محاكم، قضاة، عقوبات». إذا كان ثمَّ من شريعة وضعية فكلنا يخالفها أو كلنا يخضع لها. وان كان من ناموس

أساسي فكلنا واحد أمام ذلك الناموس، فمن يتأفف من الساقطين كان منهم، ومن يلمُّ أذيـالـه كيلا تلامس المنطـرحيـن علـى الأوحـال كـان مغمـوراً بالأوحال. أما الذي يفاخر بترفعه عن العثور والزلل فإنما يفاخر بترفع الانسانية جمعاء، والذي يتبجح بعصمته إنما يتبجح بعصمة الحياة نفسها».

وتقول فكرتكـم: «المـاهـر، المتفنـن، الأستـاذ، النـابغـة، العبقـري، الفيلسوف، الامام» اما فكرتي فتقول: «الودود، المحب، الحليف، الصادق، المستقيم، المضحي، المستشهد».

وتقول فكرتكم: «الموسوية، البرهمية، البوذية، المسيحية، الاسلام». أما فكرتي فتقول: «ليس هناك سوى دين واحد مجرّد مطلق تعدَّدت مظاهره وظل مجرّداً، وتشعَّبت سبله ولكن مثلما تتفرّع الأصابع من الكف الواحدة».

وتقول فكرتكم: «الكافر، المشرك، الدهري، الخارجي، الزنديق» أما فكرتي فتقول: «الحائر، التائه، الضعيف، الضرير، اليتيم بعقله وروحه».

وتقول فكرتكم: «الغني، الفقير، الواهـب، المستعطـي». امـا فكـرتـي فتقول: «كلنا فقيرٌ ولا غنيٌ سوى الحياة، كلنا مستعطٍ ولا واهبٌ الا الحياة».



لكم فكرتكم ولي فكرتي

تدّعي فكرتكم ان الأمم بالسياسـة والأحـزاب والمـؤتمرات والتقـاريـر والمعاهدات. أما فكرتي فتحتم ان الأمم بالعمل، العمل في الحقل وفي الكرم، العمل أمام النول وفي المصبغة، العمل في المقلع وفي الغاب، العمل في المكتب وفي المطبعة.

وتحسب فكرتكم ان أمجاد الشعوب بأبطالها الفاتحين فتترنّم بذكر نمرود ونبوخذ نصر ورعمسيس والاسكندر وقيصر وهنيبال ونابليون. أما فكرتي فتقرر أن الأبطال هم كنفوشيوس وليوتسي وافلاطون وعلي بن أبي طالب والغزاليّ وجلال الدين الرومي وكوبرنيكوس وباستور.

وترى فكرتكم القوة الغالبة بالفيالق والمدافع والمدرعات والغوّاصات والطيارات والغازات السامة. أما فكرتي فتجزم ان لا قوة الا بالحق ولا عزم الا للحقيقة ومهما طال عهد المنتصرين بالقوة العضلية والآلية فهم المغلوبون في النهاية.

وتفصل فكرتكم بين العملي والخيالي وبين الصوفي والماديّ. أما فكرتي فتعلم أن للحياة وحدانيّة ذات أوزان وقياسات وجداول لا تنطبق على أوزانكم وقياساتكم وجداولكم. فربَّ من تعدونه خيالياً كان من العمليين وربّ من تحسبونه مادياً كان من الواهمين الموهمين.



لكم فكرتكم ولي فكرتي

لكم فكرتكم فاتبعوها متنقلة بين الخرائب ومتاحف المحنطات والمحجرات، ولي فكرتي وأنا أرقبها مرفرفةً بين الضباب والسديم.

لكم فكرتكم فمجّدوها جالسة على عرش من الجماجم، ولي فكرتي وأنا أتأملها هائمة في الأودية البعيدة المجهولة.

لكم فكرتكم فاثنوا عليها مزمّرة وافرحوا بنفوسكم راقصين، ولي فكرتي وفكرتي تؤثر حشرجة النزع على تزميركم والسجون على مراقصكم.

لكم فكرتكم وهي فكرة جميع المستأنسين المتآلفين المرتاحين، ولي

فكرتي وهي فكرة كل ضائع في مسقط رأسه وكل غريب في أمته، وكل مستوحش بين أهله وخلاّنه.

لكم فكرتكم ولي فكرتي(*).

(*) الهلال، ١٩٢٤ - ١٩٢٥ (مجلد ٣٣). نشرها حبيب مسعود في كتابه «جبران حيّاً وميتاً» (٩٥ - ٩٨)، وجان دايه في «عقيدة جبران» (٣١٨ - ٣٢٠).

٢٣ - لكم لغتكم ولي لغتي

لكم لغتكم ولي لغتي

لكم من اللغة العربية ما شئتم، ولي منها ما يوافق أفكاري وعواطفي.

لكم منها الألفاظ وترتيبها، ولي منها ما تومىء اليه الألفاظ ولا تلمسه، ويصبو اليه الترتيب ولا يبلغه.

لكم منها جثث محنَّطة باردة جامدة، تحسبونها الكل بالكل، ولي منها أجساد لا قيمة لها بذاتها، بل كل قيمتها بالروح التي تحلُّ فيها.

لكم منها محجّة مقرَّرة مقصودة، ولي منها واسطة متقلبة لا استكفي بها إلا إذا أوصلت ما يختبىء في قلبي الى القلوب وما يجول في ضميري الى الضمائر.

لكم منها قواعدها الحاتمة، وقوانينها اليابسة المحدودة ولي منها نغمة أحوّل رناتها ونبراتها وقراراتها الى ما تثبته رنَّةٌ في الفكر، ونبرةٌ في الميل، وقرارٌ في الحاسة.

لكم منها القواميس والمعجمات والمطولات، ولي ما غربلته الأذن وحفظته الذاكرة من كلام مألوف مأنوس تتداوله ألسنة الناس في أفراحهم وأحزانهم.

لكم لغتكم ولي لغتي.

لكم منها العروض والتفاعيل والقوافي، وما يحشر فيها من جائز وغير جائز، ولي منها جدول يتسارع مترنماً نحو الشاطىء فلا يدري ما إذا كان الوزن في الصخور التي تقف في سبيله، أم القافية في أوراق الخريف التي تسير معه.

لكم منها الشعراء الفحول الفطاحل الخناذيذ، ومن صدَّرهم وشطرهم وخمسهم وذيّلهم وشرحهم، ولي منها ما يتمشى متهيباً خجلاً في قلوب الشعراء الذين لم ينظموا بيتاً ولم ينثروا سطراً.

لكم منها الرثاء والمديح والفخر والتهنئة، ولي منها ما يتكبر عن رثاء من مات وهو في الرحم، ويأبى مديح مَن يستوجب الاستهزاء، ويأنفُ من تهنئة من يستدعي الشفقة، ويترفع عن هجو من يستطيع الأعراض عنه، ويستنكف من الفخر إذ ليس في الانسان ما يفاخر به سوى الاقرار بضعفه وجهله.



لكم لغتكم ولي لغتي.

لكم من لغتكم «البديع» و«البيان» و«المنطق»، ولي من لغتي نظرة في عين المغلوب، ودمعة في جفن المشتاق، وابتسامة على ثغر المؤمن، واشارة في يد السموح الحكيم.

لكم منها ما قاله سيبويه والأسود وابن عقيل ومن جاء قبلهم وبعدهم من المضجرين المملين، ولي منها ما تقوله الأُم لطفلها، والمحبُّ لرفيقته، والمتعبد لسكينة ليله.

لكم منها «الفصيح» دون «الركيك» و«البليغ» دون «المبتذل»، ولي

منها ما يتمتمه المستوحش وكله فصيح، وما يغص به المتوجع وكله بليغ، وما يلثغ به المأخوذ وكله فصيح وبليغ.

لكم منها «البنيان المرصوص» ولي منها أسراب من الشحارير والبلابل تتطاير وتنتقل مرفرفة بين حقول الخيال ورياضه.

لكم منها «القلائد الفضية» ولي منها قطر الندى، ورجع الصدى، وتلاعب النسيم بأوراق الحور والصفصاف.

لكم منها «الترصيع» و«التنزيل» و«التنميق» وكل ما وراء هذه البهلوانيات من التلفيق، ولي منها كلام إذا قيل رفع السامع إلى ما وراء الكلام، وإذا كتب بسط أمام القارىء فُسحاً في الأثير لا يحدها البيان.

لكم منها ماضيها وما كان في ماضيها من الأمجاد والمفاخر، ولي منها حاضرها ومستقبلها بما في حاضرها من التأهب وما سيكون في مستقبلها من الحرية والاستقلال.

لكم لغتكم ولي لغتي.

لكم لغتكم عازفاً يتناولكم عوداً فيضرب عليكم أنغاماً تختارها أصابعه المتظلفة، ولي من لغتي قيثارة أتناولها فأستخرج منها أغنية تحلم بها روحي وتذيعها أصابعي.

ولكم أن تسكبوا لغتكم بعضكم في مسامع بعض ليسرّ ويعجب بعضكم ببعض، ولي أن أستودع لغتي عصفات الريح وأمواج البحر، فللريح آذان أشدّ غيرة على لغتي من آذانكم وللبحر قلب أربأ بها من قلوبكم.

ولكم ان تلتقطوا ما يتناثر خرقاً من أثواب لغتكم، ولي أن أمزق بيدي

كل عتيق بالٍ، وأطرح على جانب الطريق كل ما يعيق مسيري نحو قمة الجبل.

ولكم أن تحنطوا ما يبتر من أعضائها المعتلة، وان تحتفظوا به في متاحف عقولكم، ولي أن أحرق بالنار كل مفصل مشلول.

★ ★ ★

لكم لغتكم ولي لغتي.

لكم لغتكم عجوزاً مقعدة، ولي لغتي غارقة في بحر من أحلام شبابها.

وما عسى أن تصير اليه لغتكم وما أودعتموه لغتكم عندما يرفع الستار عن عجوزكم وصبيتي؟

أقول ان لغتكم ستصير الى اللاشيء.

أقول ان السراج الذي جفّ زيته لن يضيء طويلاً.

أقول ان الحياة لا تتراجع الى الوراء.

أقول ان أخشاب النعش لا تزهر ولا تثمر.

أقول لكم ان ما تحسبونه بياناً ليس بأكثر من عقم مزركش وسخافة مكلسة.

أقول ان القيظ في نفوسكم يسيّركم مرغمين الى مستنقعات الكلم.

أقول إنّ الصلابة في قلوبكم تخضعكم إلى الرخاوة في ألسنتكم، والصغارة في خيالكم تبيعكم عبيداً من الثرثرة.

أقول لكم انه لا ينتهي هذا الجيل الاّ يقوم لكم من ابنائكم واحفادكم قضاة وجلاّدون.

أقول لكم إنما الشاعر رسول يبلغ الروح الفرد ما أوحاه اليه الروح العام، فإن لم يكن هناك رسالة فليس هناك من شاعر.

وأقول إنما الكاتب محدّث صادق، فإن لم يكن هناك من حديث صحيح مقرون ثابت فليس هناك من كاتب.

أقول لكم ان النظم والنثر عاطفة وفكر وما زاد على ذلك فخيوط واهية واسلاك متقطعة.

والآن وقد طلع الفجر، أتحسبون انني أشكو لغتكم لأبرّر لغتي؟ لا والذي جعلني ناراً ودخاناً بين عيونكم وأنوفكم.

ان الحياة لا ولن تحاول تبرئة نفسها أمام الموت، والحقيقة لا ولن تشرح ذاتها لدى البُطل، والقوة لا ولن تقف أمام الضعف. لكم لغتكم ولي لغتي(*).

(*) جبران حياً وميتاً ص ١٣٢ - ١٣٦.

٢٤ ـ أيها الشاب السوري

هل سألتك ذاتك أيها الشاب السوري ما إذا كنت من أبناء الأمس أو من ابناء الغد ؟

هل خلوت بنفسك متفحصاً أعماقها مستجوباً خفاياها لتعلم ما إذا كانت سائرة كأسير يجر قيوده في موكب الماضي أو ماشية كالحر بقدم ثابتة ورأس مرفوع في موكب المستقبل.

هل أنت ساكن في المنزل المعنوي الذي بناه آباؤك وجدودك أم أنت مجد في بناء منزل لابنائك وأحفادك ؟

هل أنت ممن يعيشون في عالم التذكار أو ممن يحيون في عالم المقاصد ؟

هل يسير بك خيالك الى البلدة التي ولدت فيها فترى نفسك مع صبيان يلعبون في الساحات فتتأوه قائلاً في ذاتك (ما أحلى تلك الأيام التي لا ولن تعود) أم يقودك خيالك الى سوريا الجديدة فترى ذاتك رجلا بين الرجال يخدمون أمتهم بقوى عقولهم أو بنبالة أرواحهم أو بعزم سواعدهم ؟

هل أنت ممن يقرأون أخبار المتقدمين ـ وأكثرها تلفيق في تلفيق

فتتوهم بأنهم كانوا حاصلين على جميع الكمالات البشرية وان بذهابهم ذهب الفضل والسؤدد والشرف وعلو الهمة ؟.

أو أنت ممن أنار الله بصائرهم فعلمت ان مآتي الماضي لم تكن سوى درجات تعلو الواحدة الأخرى تصعد عليها الى حيث الرقي الحقيقي والمعرفة الصحيحة ؟

قل لي أيها الشاب السوري، قل لي بما تفتكر وبما تحلم في خلواتك ؟ هل تندب الماضي أو تتشوق الى المستقبل ؟

هل تنتقل على غير معرفة منك بين قبور الذين طوتهم الأرض أم تسبح مرفوعاً على أسراب النفوس التي لم تولد بعد ؟

هل تحسب ذاتك نهاية لأمر كان أم بداية لأمر سيكون ؟

ومن هم يا ترى أبطال أحلامك وعرائس أمانيك ؟

هل سألت نفسك في تلك الساعة التي تمر بين النعاس والنوم ادعى رجال التاريخ الى اعجابك وأقربهم الى محبتك واحترامك ؟

لقد جاء في الأمثال (قل لي من تعاشر أقل لك من أنت)

أما أنا فأزيد على ذلك (قل لي من هم أبطال احلامك من رجال التاريخ أقل لك من أنت).

إذا كنت معجباً بنابليون فأنت من ابناء الأمس فنابليون هو مجموعة غريبة لم تأتلف في شخص آخر من قبله أو بعده، لم يفعل شيئاً عظيماً للغد وموقعة واترلو كانت كفنا ولحدا لجميع منازعه وأغراضه. وذلك السلطان العظيم الذي صرف عشرين سنة في رفعه على رابية من الجماجم قد هبط الى الحضيض واضمحل في يوم واحد !

وإذا كنت معجباً بواشنطون فأنت من ابناء الغد ومع ان واشنطون لم يكن داهية عسكرية ولا نابغة فكرية كنابليون، قد وضع الأساس لأعظم وأنبل بناء اجتماعي امام وجه الشمس.

أخبرني ايها الشاب السوري عن رأيك في بلادك؟

ان كنت من الذين لا يذكرون وطنهم الا ويتغنون بمجد الأمم التي فتحت سوريا وحكمتها فأنت إذاً كهف يرجع صدى الأغاني العتيقة ولست بصوت حي يتصاعد نحو الأثير ويتموج مع الهواء. وان كنت من الذين يتبصرون المستقبل من خلال غيوم الحاضر فيرون سوريا بلاداً عامرة والسوريين أمة حرة حية نشيطة تسير مستقلة وحدها ولا تستند على عكاز إذا أنت من أبناء الغد الذين سيساعدون سوريا على تحقيق آمالها وأمانيها.

أخبرني ايها الشاب السوري. أخبرني عن عقيدتك الدينية. هل أنت ممن يخلطون بين الاختبار الروحي والوهم فيبتعدون عن الأول بابتعادهم عن الثاني وينكرون الحق بكرههم ما التصق به من الخرافات. إذا فأنت من أبناء الماضي الطرشان الذين لا يميّزون بين نقيق الضفادع وترنيمة الشحرور.

وإن كنت من أولئك الذين حبتهم الحياة فأرتهم بأن التقاليد والأساطير من مفرزات الأرض وهي زائلة وان الدين من أثمار التشويق النفسي وهو خالد. إذا فأنت من أبناء المستقبل الذين يسيرون نحو محجة الحق على سبل الفضل والفضيلة.

اخبرني أيها الشاب السوري. أخبرني ما رأيك في العلم وآله؟ إذا كنت من الذين يصفّون الألفاظ الرنانة بعضها ازاء بعض وينصبون فوق المنابر ليحشوا آذان الناس بنتف من المدارك السطحية المقتبسة بين جدران المدارس. إذا فأنت من أطفال الماضي الذين لا يدركون الفقاقيع اللماعة

التي تقوم هنيهة على وجه الماء ثم تنطفىء والكواكب التي تسير ابدا بهدوء وجلال في القبة الزرقاء. وان كنت من أولئك الذين يدركون بالفطرة ان العلم هو بالأخلاق، وفي الأخلاق، ومن الأخلاق، إذاً فأنت من أبناء الغد الذين لا تستوي لديهم الأنوار والظلمات.

الا فاخبرني أيها الشاب السوري. أخبرني هل أنت من أبناء الأمس لنندبك ميتا أم أنت من أبناء الغد، لنحييك أخاً حيا(*).

(*) مجلة «الشمس» ١٩٢٧، نقلاً عن «عقيدة جبران» ص ٣٢٤ - ٣٢٥.

٢٧ ـ أُحبُّ من الناس العامِل

أحبُّ من الناس العامل.

أحبُّ الذي يشتغل بفكره فيبتدع من الترب ومن سديم خياله صوراً حية جميلة جديدة نافعة.

أحبُّ ذاك الذي يجد في حديقةٍ ورثها عن أبيه شجرة تفاح واحدة فيغرس الى جانبها شجرة ثانية. وذاك الذي يشتري كرمة تثمر قنطاراً من العنب فيعطف عليها ويذللها لتعطي قنطارين[1].

أحبّ الرجل الذي يتناول الأخشاب الجافة المهملة فيصنع منها مهداً للأطفال أو قيثارةً حبلى بالأنغام. وأحب الرجل الذي يقيم من الصخور التماثيل والمنازل والهياكل.

أحبُّ من الناس العامل.

أحبُّ ذاك الذي يحوّل الطين الى آنية للخمر أو للزيت أو للعطر. وأحب الذي يحوك من القطن قميصاً ومن الصوف جبةّ ومن الحرير برفيرا.

أحب الحدّاد الذي ما أنزل مطرقته على سندانه إلا أنزل معها قطرة من دمه.

(١) في الدرر المختارة ص ١٤ «ويدلّل أديمها ليعطي قنطارين».

واحب الخياط الذي يخيط الاثواب باسلاك مشتبكة بأسلاك من نور عينيه. وأحب النجار الذي لا يدق مسماراً إلا دفن معه شيئاً من عزيمته.

أحب جميع هؤلاء. أحب أصابعهم المغموسة بعناصر الأرض. أحب وجوههم بما عليها من سيماء الصبر والتجلد. أحب حياتهم المشعشعة بجواهر الاجتهاد.

وفي قلبي حبّ للراعي الذي يقود قطيعه كل صباح الى المروج الخضراء ويورده المناهل الصافية ويناجيه بشبّابته النهار بطوله وعندما يأتي المساء يعود به الى الحظيرة حيث الراحة والطمأنينة.

أحب من الناس العامل، لأنه يحدو أيامنا وليالينا وأحبه لأنه يطعمنا ويحرم نفسه. أحبه لأنه يغزل ويحوك لنلبس الأثواب الجديدة بينا زوجته وأولاده في ملابسهم القديمة. أحبه لأنه يبني المنازل العالية ويسكن الأكواخ الحقيرة. أحب ابتسامته الحلوة، وأحب نظرة الاستقلال والحرية في عينيه.

أحب العامل لأنه لدعته يحسب نفسه خادماً وهو هو السيد السيد. وأحبه لأنه لحشمته يظن نفسه فرعاً وهو هو الأصلُ. وأحبه لأنه خَجِلٌ فإذا أعطيته أجرته شكرك قبل أن تشكره، وإذا مدحته على عمله رأيت الدموع في عينيه.

أحب من الناس العامل. أحِب هذا الذي يحني ظهره لتستقيم ظهورنا ويلوي عنقه لترتفع وجوهنا نحو الأعالي. أحب من الناس العامل.

وماذا عساني أقول في من يكره العمل لخمول في جسده وروحه؟ وفي مَن يأبى العمل لأنه بغنى عن الربح. وفي من يحتقر العمل متوهماً أنه أشرف من أن يلوّث يديه بمفروزات التراب.

ماذا عساني أقول في الذين يجلسون الى مائدة الوجود ولا يضعون عليها رغيفاً من خبز جهادهم أو كأساً من ذوب اجتهادهم.؟

ماذا أقول في الذين يحصدون من حيث لا يزرعون.

لا أستطيع أن أقول في هؤلاء أكثر أو أقلّ مما أقوله في النبات والحشرات الطفيلية التي تستمد حياتها من عصيرة النبت العامل ودماء الحيوان الساعي لا. لا أستطيع ان أقول في هؤلاء أكثر أو أقل مما أقوله في لصّ يسرق حلى العروس ليلة عرسها (*).

(*) جبران حيّاً وميتاً ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦. والدرر المختارة ص ١٤ ـ ١٧.

٢٦ - كلنا يصلي

كلنا يصلي، ولكن بعضنا يصلي بقصد ومعرفة، وبعضنا يصلي بدون قصد وبدون معرفة، فالقلب البشري يخفق صامتاً أمام اللانهاية القدسية ويخفق أمامها منشداً، فالسواقي تسير نحو الشاطىء ضيقا كان الوادي أو منفرجاً، وتبلغ السواقي البحر مبرقا كان الفضاء بغيوم الشتاء أو مثقلاً بعطور الربيع.

الصلاة في ملتي كل رغبة في البقاء، وكل شوق الى الحياة، وكل عزم محدود ينزع الى عزم غير محدود، فما أول صرخة تخرج من صدر الطفل سوى صلاة الغيبوبة في مسمع اليقظة، وما خجل الصبية ليلة عرسها سوى صلاة يرفعها الأمل المستوحد نحو ذلك الكيان العلوي المزدوج الذي ندعوه الأمومة، وما آخر تنهدة تتصاعد من قلب المحتضر سوى صلاة المعلوم المقرر نحو هيكل المجهول الخفي.

والصلاة في عقيدتي امل عذب في حشاشة المزارع الذي يودع الأرض بذوره قائلاً في سره: «بسم الله والاتكال على الله».

والصلاة واجب لذيذ في عاقلة الراعي الذي يقود قطيعه إلى المروج الخضراء، وهي عمل مستطاب في روح الحائك الذي يجلس الى نوله متمثلاً

قماشة رداء لصبية جميلة، أو غلافاً لعجوز تتقي به البرد والزمهرير.

والصلاة بشرعي في أن يقف المرء متهيباً أمام الفجر، مبهوتاً عند الظهيرة، مسحوراً لدى الشفق، فإذا ما انتصف الليل هبت مكامنه وراحت تحمل تباشير السكوت والسلام الى ما في خفايا الليل من سلام وسكوت.

الأزهار تصلي قبل ان ينبهها الربيع من رقادها. والأشجار تصلي والخريف ينثر أوراقها الصفراء على أديم الأرض... وتصلي الأشجار بلهفة عندما يحاول الشتاء تكفين منازعها بثلوجه.

الطير يصلي قبل التغريد وبعده، والحيوان يصلي ساعيا الى القوت ويصلي ملتجئاً الى المغاور...

الجبال تصلي واشعة الغروب تودعها، والأودية تصلي وضباب المساء يغمرها.

الصحراء تصلي وفي صلاتها غابات خضراء وينابيع متفجرة، والعقبات تصلي ومعنى صلاتها سهول وخمائل، والكواكب تصلي قبل ان يبينها الظلام وبعد ان يخفيها النور، والهاوية تصلي ومفاد صلاتها جنة ونعيم.

وليست الصلاة وظيفة من وظائف المتمذهبين، وليست بتلك الآيات القديمة المرتبة التي يستظهرها الناس ويكررونها متوهمين انهم يحصلون بواسطتها على عطف الله وبركاته، بل هي حالة باطنية روحية في الانسان، بل حالة وضعية خفية في الطبيعة نفسها، فما ندعوه قصدا ومحجة في البشرية، او نحوا وغرضاً في الطبيعة، او قدراً محتوماً في الحياة، ليس بأكثر من صلاة عامة شاملة عميقة علوية كائنة في الذرات كيانها في الشموس، ملازمة للهيولى ملازمتها للعقل العام.

ولا تبدأ الصلاة بما تبثه الشفاه، ولا تنتهي بما تتغنى به الحناجر، فلقد كانت الصلاة وهي باقية في كل عاطفة من عواطفنا الأولية في كل ساعة من ساعات ايامنا ولياليتا.

كلنا يصلي، وكل ما في الأرض يصلي، لأن كل ما في الأرض من الله ولله.

والله يصلي علي ذاته، ويسلم كيانه على كيانه(*).

(*) الأنوار، الاثنين ٤ تشرين الثاني ١٩٨٥، ص ٧. و«جبران حياً وميتاً» ص ٢١٦ - ٢١٧. والدرر المختارة ص ٤٨ - ٥١.

٢٧ - الشاعر الأعمى

الا أن النور قد أعماني.

هي الشمس التي جادت عليكم بنهاركم قد أغدقت علي ليلي الدامس. وانه لأعمق من الحلم.

وها أنا، بالرغم من ذلك، أجوب الآفاق بينما أنتم مقيمون حيث ولدتكم الحياة حتى يأتي الموت ليمنحكم ولادة أخرى.

وها أنا أتلمس الطريق بعكازي وقيثارتي بينما أنتم جلوس تتلهون بسبحاتكم.

وها أنا أمعن في السير متقدماً في الظلمة بينما أنتم تخشون النور.

واني لأغني.

ولست لأضل الطريق ولو غاب نور الشمس فالله يرى طريقنا وأنا لفي حرز حريز.

ولئن عثرت رجلي فإن غنائي مجنح يحلق فوق الرياح.

★ ★ ★

لقد عميت من التفرس في العمق وفي العلاء. ولعمري من ذا الذي لا يضحي ناظريه لقاء منظر العمق والعلاء؟ من ذا الذي لا يطفىء شمعتين مرتعشتين ليرى لمحة من الفجر؟

أنتم تقولون - «وارحمتاه له! انه لا يقدر أن يرى الكواكب ولا الأقحوان في المروج».

أما أنا فأقول - «وارحمتاه لهم! انهم لا يستطيعون ان يطولوا النجوم ولا ان يسمعوا الأقحوان. وارحمتاه! فليس لهم آذان ضمن آذانهم. وليس لهم شفاه على أطراف البنان»(*).

(*) الأنوار، الاثنين ٤ تشرين الثاني ١٩٨٥، ص ٧.

٢٨ - عبدالله البستاني

التأبين الذي وضعه جبران لحفلة تكريم فقيد اللغة

المرء بما يعطيه لقومه من فكرته أو عزيمته - وللعطاء موازين يقيمها المعطى اليهم في أكثر الأحايين - وللعطاء مقاييس يحددها الوسط وروحية الجماعة اما للأخذ والاحتفاظ أو بعكس ذلك فقد يظهر في أمة رجل موهوب فيعرض على قومه ما في نفسه فيعرضون عنه ولا يأخذون منه - فتظل مواهبه في ذمة الدهر حتى تتيح لها الأيام من يفهم معناها ويقدر قدرها ولكن بعد أن تطوي الأرض ذلك الموهوب الواهب وتغمر صوته سكينة الأبدية. تلك هي مأساة قديمة - وسوف تبقى مستتبة على مسرح الدهر حيث تعانق غفلات الانسانية يقظاتها ويلازم الكثيف في طينتها جوار الجلي الشفاف في روحها.

وجاء زمن فبدت في الشرق طلائع نهضة علمية - أو ما يشابهها فظهر الأساتذة والمعلمون - فتناولوا من القديم الفنون الكلامية وغربلوها بقدر استطاعتهم وأخذوا عن بعضهم البعض بقدر ما في أفرادهم من الحماسة - ثم راحوا يلقنون الناشئة ويلقمون جوعها بما في ايديهم من خبز المعرفة ويروون عطشها بما في جرارهم من ماء الحياة - وكان عبدالله البستاني أحد هؤلاء الأساتذة الكبار المتفوقين الذين كرسوا حياتهم للتعليم والتثقيف بكل ما في حياتهم من الجد والاخلاص - وكان - رحمه الله - رغم رجوعه

بالفكرة والتذكار الى جاهلية العرب أو خشونة البادية لين العريكة ـ لطيف المحضر ـ عذب الحديث ـ واني أتمثله خجولاً لا مستحييا مما أوتيه من غزارة الحافظة وكامل المقدرة على امتلاك أزمة تلك اللغة المستعصية.

وكان عبدالله البستاني كاتبا ولكن ليس بالرسائل التي نمقها وكان شاعراً ولكن ليس بالقصائد التي نظمها ـ فالشاعرية في هذا الرجل الممتاز لم تظهر في ما أودعه الحبر والورق ـ فإذا ما قال بعضهم انه لم يكن كاتباً أو شاعراً بالمعنى الذي نفهمه من الصفتين فهم الصادقون على قدر ما يحيط به صدقهم من مد الزمن وجزره ـ وما يكتنف حاضرهم من تطورات المباني الأدبية وأساليبها ومنازعها. غير أنه كان أنفع وأعم وأسخى يدا وأبسط روحا من الشعراء والكاتبين ـ فلقد تناول تلامذته ـ وهم لا يعدون الآن لكثرتهم ـ وأيقظ في أرواحهم الشاعرية والشهوة الى البيان وكأنه قد اتخذ من فطرتهم وتشوفهم بحرا مديد الرنّة جميل القافية ـ فنظم أعظم قصيدة عربية حية عالمية دهرية فجاء في كل بيت فيها شاعراً أو كاتباً أو صحافياً أو منقباً بحاثة. وفي عقيدتي أن من محاسن هذه القصيدة «البشرية» تلك الأبيات التي أتت بصورة معارضة ـ أعني أولئك الذين تمردوا على القديم في البيان وساروا على سبل غير مطروقة.

إذا مدحنا عبدالله البستاني على ما وضعه من الكتب كان مدحنا جافاً محدوداً ـ بل كان شكلا من الجحود ـ فعظمة البستاني الحقيقية قد ظهرت وما برحت ظاهرة في الكهول والفتيان الذين تتلمذوا عليه وأخذوا عنه.

لقد ألقى هذا الرجل نقابا من سحره على نفسية ناشئة بعد ناشئة اثناء خمسين سنة وفي هذا ميزته وفي هذا فخره ولقد حقق عبدالله البستاني حاجة كل من اتصل به ـ بل فعل أكثر من ذلك لأنه استفز وجرأ نفوس من لم يتصلوا به ـ ولم يلامس وجوههم نسيج سحره فقاموا معارضين

طريقته وكل من يتبعها ـ فكان في ذلك حياة جديدة للآداب العربية ـ وفي هذا دليل على عزم في ذاتيته.

سوف ينسى الغد أكثر الذين ساعدوا أو تساعدوا على إيجاد النهضة العربية الحديثة ـ ولكن الغد سيحتفظ باسم المعلم الكريم الشيخ عبدالله البستاني معطوفاً بالاحترام مشفوعاً بالشكر وعرفان الجميل(*).

(*) السائح ١٧ نيسان ١٩٣٠، نقلاً عن «عقيدة جبران» ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

الباب الثاني

تمثيليّات



جبران وهو يرسم في دارته الفنيةَ عن السائح ممتاز ١٩٢٥

١ - الرجل غير المنظور

أشخاص الرواية:

الأحدب	رئيس الوزراء
مباركة	كاتمة أسراره
بولس	كاتم أسرار آخر
حاجب	
وفد من الفلاحين	
الأمير يوسف خلدون	يمثل الرأسماليين
راهبة ورفيقتها	
الرجل غير المنظور	

المكان:

مملكة وراء الأفق

الزمان:

ما وراء الغيوم

المشهد :

غرفة في جناح الوزارة من القصر. في صدرها منضدة كبيرة وراءها الباب الكبير وإلى يمينها باب وإلى شمالها باب آخر. أمّا أواني الغرفة فكلّها فخمة ملوكية.

وكان الوقت المساء.

يرتفع الستار ومباركة - كاتمة الأسرار - جالسة إلى المنضدة تنتظر مجيء رئيس الوزراء وفي يدها قلم وأمامها كتلة من الأوراق.

بولس جالس إلى المنضدة في الوجهة الثانية.

حارسان واقفان كلّ إلى مصراع من الباب الكبير.

يدخل رئيس الوزراء من الباب الأيمن: هو رجل محدودب أشبه بالرئبال منه بانسان. مشوّه السحنة. أمّا أطرافه فقدمان يجرهما جرّاً ويدان كأنهما غصنان كسرا فذبلا.

يتقدّم الحاجبان ويرفعانه إلى الكرسي أمام المنضدة. فيضع يديه الجافّتين أمامه فترتجفان كقضبان جافة أمام الريح ولولا رنّة في صوته تخالها آتية من صدر جبّار لظننت أنّه مخلوق ليس ببشري ولا بقرد قد حنّطوه لغاية ووضعوا في داخله آلة تحرك أعصابه المتكمشة غير أن في عينيه نوراً غريباً، نوراً ليس من أنوار هذا العالم.

مباركة وبولس يقفان عند دخوله.

مباركة - امرأة هيفاء في الثلاثين من عمرها ذات بشرة عاجية وشعر كستنائي وفي عينيها شعاع من الرؤيا وكل ما في وجهها يدلّ على شخصية بارزة وكلّ ما في شخصها ينمّ عن الترتيب أمّا ملابسها فبيضاء.

بولس ـ رجل في الأربعين تدلّ ملابسه على الظروف والرغبة في الاجتماعات.

بعد أن يرفع الحارسان رئيس الوزارة إلى كرسيّه يتراجعان ويقفان كلّ إلى جانب الباب الأكبر.

رئيس الوزراء ـ مخاطباً مباركة «اجلسي يا ابنتي اجلسي» ثم يحوّل وجهه نحو بولس ـ (تفضّل واجلس) بعد سكوت (هوذا نحن ثانية أمام العمل. وليس للعمل من نهاية. لا، ليس للعمل من نهاية حتى في المنام. من لا يدري قد يكون لنا عمل بعد الموت) يسكت هنيهة ـ (ولكن قولي لي يا مباركة ماذا لدينا اليوم من العمل؟ أذكر أنّ هنالك ثلاثة أو أربعة مشاكل علينا الاهتمام بها قبل نهاية النهار) ـ مخاطباً بولس «أرجوك أن تدوّن بالمختزل كلّ ما أُمليه أو أكثره فقد تعود إليه في الغد». ـ يعود فيلتفت إلى مباركة فيقول ـ «أين نبتدىء يا ابنتي! يا صديقتي الصغيرة؟»

مباركة ـ وهي تنظر إلى بعض الأوراق أمامها «هذه رسالة يا سيّدي من وزير الفنون الجميلة»

رئيس الوزراء ـ «أجل. أجل. ناوليني إياها».

مباركة تناوله الرسالة فينظر إليها ملياً ثم يقول:

«ما أجملها رسالة! في روح هذا الوزير شيء كثير من الإلفة تلك الإلفة الكائنة بين النواميس المعلومة والنواميس المجهولة في عقيدتي أنّني قد فعلت حسناً عندما أسندت إليه منصبه هذا ـ ينظر إلى الرسالة ثانية ويزيد ـ بماذا أُجيب يا ترى بماذا أجيب؟ ينظر لمباركة ـ «دوّني هذا الجواب».

سيدي العزيز :

أشكر لك رسالتك المشبعة والمهيجة معاً. كلّ ما تفضّلت وقلته عن الفن بصورة عمومية وعن الجمال بصورة خصوصية قد أثر إلى حدّ ليس وراءه حدّ ولكن هلاّ سمحت لي أن أقول، وأنا لست من الشعراء أو الفنيين، إنّ الجمال يهجع بهدوء في باطن كلّ المخلوقات بل في صدر الحياة نفسها. أنا وأنت لا نستطيع أن نرى ما وراء نقاب الحياة ولكن لو تمكنّا من النظر لما رأينا وراء هذا النقاب سوى الجمال وعلينا أن لا ننسى يا صديقي، أنّ الجمال في الشخصيّات المنوّرة. في الصور التي رسمتها يد المبدع الأكبر... ورقة ذهّبها الخريف وقد سقطت في يدك من شجرة. صخرة قائمة بينك وبين الشفق. طفل يلعب ويرقص بوحدته. شيخ في مساء نهاره ينظر إلى نار الموقد وفي عينيه نظرة لم تتناولها عيناه من هذه الأيام وهذه الليالي.

لا أشك قطّ أنّك تدرك معنى قولي إنّ الجمال يهجع بهدوء وطمأنينة في أعماق أرواحنا حتى توقظه محبتنا ولي رغبة أنْ أقول لك أكثر من هذا على أنّني أخاف إذا ما تماديت أن أتحوّل إلى شاعر حال كوني خادم جلالة الملك وهذا ما لا أريد أن أفعله. وهلاّ بلّغت تحيتي إلى زوجتك الكريمة واعتذرت عنّي أمامها للآن لم أزُر حديقتها وهلاّ قلت لها إنّ الروح في رغبة أمّا الجسد فلا يستطيع.

هذا وتفضّل، يا سيّدي بقبول احترام المخلص.

يتنهّـد رئيس الوزراء إذ ذاك ثم يلتفت إلى مباركة قائلاً :

«لي ثقة بهذا الرجل. إنّ معارفه الفنيّة غير مقيّدة بسلاسل الماضي. ما أصعب عليّ أن أكتب إلى رجل مثل هذا بدون أن أشعر بنفحة من

نفحات الشباب ترتعش في صدري. ما أصعب أن أتكلم عن الفن والجمال بدون أن أتحول إلى شبه شاعر. ـ بعد سكينة ـ «ناولني الرسالة الأخرى».

مباركة تناوله الرسالة فيأخذها وينظر فيها طويلاً:

«نعم نعم. هذه من صديقنا السياسي وهو رجل فاضل غير أنّه لا يدري ماذا يفعل بفضيلته. ما أشبهه بمضيف موسر ينتظر الضيوف ولكنّهم يتخلّفون. لنجبه على رسالته» ـ يملي عليها: سيدي العزيز:

لقد فكرت كثيراً بما تنطوي عليه رسالتك ولقد أبانت لي في نفسي ما لم أكن أترقّبه وأسمح لي أن أقول هذا ـ إنّ عزم الدولة يتعالى ولكن على أسّ واحد وهو منزلة أحقر رجل في الدولة إن الحكومات لا ولن تستطيع أن تعلو فوق المحكومين أمّا الشرع الذي ترغب في تنفيذه فهو ليس بشرع قط بل ميل إلى المنع والتحريم وإذا ما حاولت تنفيذ شرعك هذا أرغمت الناس على الاعتصاب فالثورة لقد كان قلبي وسيبقى مع أولئك الذين يخالفون الشرائع وفي قلوبهم الطهر الأبيض ـ لمباركة ـ لا تنسي يا مباركة أن تكتبي «الطهر الأبيض» يعود فيملي ـ تلك الشرائع التي يسنّها قوم لا يعرفون الطهر.

(تفضّل وقدّم تحيتي إلى والدتك اللطيفة فقد تعطّفت وبعثت إليّ منذ يومين بصندوق من الحلوى وما أنفس تلك الحلوى ذلك لأنّها صنعت بيديها كما قالت لي برسالتها الجميلة. سوف أكتب إليها قبل نهاية هذا النهار. وتفضّل، يا سيدي، بقبول احترام الداعي المخلص).

يحني رأسه إلى صدره ويقول ـ (قد تعبت قليلاً قد مللت يا ابنتي ولكن أمامنا هذه الأوراق وعلينا أن نشتغل).

مباركة ـ بصوت كلّه حنوّ ورأفة ـ (هذا كتاب من المطران يا سيّدي أتريد أن أتلوه عليك؟)

يتناول الرسالة وينظر فيها.

(في هذه الدقيقة يظهر في الباب الأيمن رجل جبّار مهيب جميل الطلعة منوّر الوجه كأنّه ليس من الناس بل من سكان عالم أرقى وأسمى من هذا العالم يمشي برأس مرفوع نحو العلاء وخطوات متوازنة نحو الباب الأيسر. لا يراه من بين من كانوا في الغرفة سوى مباركة فتقف متهيّبة وتصرخ صراخاً عميقاً عالياً فتتساقط الأقلام والأوراق إلى قدميها ثم تمدّ ذراعيها نحو الجبّار وتنظر إليه بعينين ملؤها الغرابة والاستفسار ثم تصرخ ثانية كمن أبصر رؤيا. يختفي الجبار في الباب الأيسر فتهبط مباركة إلى مقعدها ولكن نظرة الحب، نظرة الإيمان والعبادة لم تزل في عينيها).

رئيس الوزراء ـ يلقي الرسالة التي بين يديه ويقول لمباركة:
(ماذا حلّ بك يا ابنتي. ماذا جرى لك؟)

مباركة ـ (لا شيء. لا شيء يا سيّدي) ـ تغمض عينيها ثم تضع يديها على وجهها كأنها تريد أن تسترجع الرؤيا وبعد هنيهة تتناول القلم والورقة وتقول لرئيس الوزراء: (هذه الرسالة يا سيدي بماذا تريد أن تجيب عليها؟).

رئيس الوزراء ـ ينظر إليها مستقصياً (هل تعبت من العمل؟ لقد كان نهارنا طويلاً. ولكن عمّا قريب سيأتي المساء. عمّا قريب سنرتاح في هدوء الليل) ـ (بصوت يمازجه الصبر والتجلّد يعيد سؤاله) (هل أنت تعبة يا ابنتي).

مباركة ـ (لا. لا لم أتعب قطّ ولن أتعب ما دمت عاملة في ظلالك).

رئيس الوزراء ـ (أشكرك... أشكرك... والآن لننظر في رسالة المطران) يملي عليها:

يا صاحب السيادة:

بكلّ أسف أقول إنّني لا أستطيع المجيء إليك وإلى أبرشيتك يوم الأربعاء في السبة الحزينة وفي ملّتي أنّك بالحقيقة لا تريد أن تضع هذا العبء على أكتاف رعيتك. هذا العبء الذي أدعوه أنا. أنت وهم تتوهموني رجلاً خادماً للدولة وبالواقع أنا لست بأكثر من مركبة بدون جياد... أشعر يا سيّدي أنّك لم تكتب إليّ بل إلى رجل آخر. إلى رجل يزورني بين فترة وأخرى. إلى رجل لست أنا بكلّيتي أكثر من يد له. وكان يجب أن أقول يد مشلولة. على أنّني أثق بأنّك كتبت اليّ. اغفر لي تخلّفي عن الحضور واسمح لي أن أجيء إليك بالرّوح يوم الأربعاء الآتية لأعيّد وأصلّي معك ومع رعيتك أجمعين. وليبقك الله، سيّدي، للمخلص.

يتطلّع بمباركة ويقول ـ [قد تعبت. قد مللت يا صديقتي. ولست الآن بسوى وتر محلول في قيثارة قديمة ولكن عندما ينتهي هذا النهار سأنام قليلاً وبعد ذلك سيطلع صباح يوم آخر وتلك القيثارة سيدوزنها الموقّع الأعظم فتخرج منها أنغام أبقى من هذه الأنغام

ـ [بعد دقيقة سكوت] ـ أشعر الساعة أنّ قلبي مثل بحيرة هادئة وليس هنالك من نسيم ليكتب على وجهها ما يرغب النسيم في كتابته على وجه البحيرات أو في أعماقها.

مباركة ـ [ألا تريد أن تستريح يا سيّدي مبقياً إلى الغد ما بقي من الرسائل؟]

رئيس الوزراء ـ (الغد. الغد ترى هل غدنا بأكثر من يومنا هذا ويومنا هذا يحاول الهرب من الألم والأمل).

في هذه الدقيقة يدخل الحاجب وينحني أمام رئيس الوزراء قائلاً:

«في الباب وفد من الشمال يترقبون السماح بالدخول على سيّدي».

رئيس الوزراء ـ أجل. أجل هؤلاء هم الفلاّحون الصلاّح. قل لهم ان يدخلوا».

يدخل ثلاثة رجال يتقدّمهم رجل مهيب. ثم يقفون أمام رئيس الوزراء وينحنون.

بولس يتناول دفتراً ليدوّن ما يقال أمّا مباركة فتظلّ هادئة ناظرة باهتمام وتشوّق.

رئيس الوزراء ـ «ماذا أستطيع أن أفعل لكم يا أصدقائي؟»

المتقدّم في الوفد ـ (نحن نمثّل يا صاحب السعادة المزارعين في الشمال)

رئيس الوزراء ـ أجل أنا أعرف ذلك ما هي شكواكم؟

المتقدّم في الوفد ـ سيّدي، حتى العام الغابر كانت الضريبة على حقولنا عادلة ومقبولة أمّا في هذا العام فقد رفعوا الضريبة على أرزاقنا إلى حدّ لا يحتمل. رفعوا الضريبة على الأراضي المحروثة والمثمرة مثلما رفعوها على تلك التي لا تفلح ولا تثمر. إنّ شعبنا لشعب فقير وهو اليوم يشعر بثقل هذه الضريبة وانّها غير عادلة وقد وضعوا بين شفاهنا هذه

الكلمات لنطرحها في حضرتك».

رئيس الوزراء - «لا» - ليس ذلك بعدل. على الحكومة أن لا تستقضي أكثر منكم ممّا ترزقون «يفرك جبهته بيده ويفكّر دقيقة ثم يزيد - لقد بدت لي فكرة فاصغوا إليّ. اذهبوا إلى قومكم وقولوا لهم: إنّ الحكومة تقهرنا على تأدية المكوس على كلّ قدم مربعة من الأرض نملكها. علينا أن نستثمر كلّ قدم نملكها فلا نحرم الحكومة ولا نحرم نفوسنا. قولوا لقومكم هذا، نحن والحكومة في سباق. للحكومة السلطة ولنا العزم فتعالوا نسرع نحو المحجّة لنرى ما هو السابق تعالوا نركض بما فينا من الرغبة في العمل ولتركض الحكومة إلى جانبنا بما في الحكومة من المنازع والرغائب. نحن نلاقي الصباح عاملين والحكومة تحكم. نحن لا نرتاح إلاّ بعد أن نسكب عرق جباهنا في الحقول والحكومة أبداً مرتاحة في القصور. «يرفع يده الذابلة نحو العلاء ويزيد» - في قصور مثل هذا القصر. والآن عودوا إلى قومكم وقولوا لهم أن يتهيأوا للسباق... إذا بقيت هنا إلى الغد سأضع بيدي إكليل الغار على رأس السابق... السابق السابق الذي لا يترك فتراً من الأرض إلاّ ويفلحه ويسقيه بعرق جبينه ويستثمره. أودّعكم يا أصحابي».

يخرج الوفد

بعد سكينة يدخل الجبّار من الباب الأيسر ويسير بمجد وجلال ويجتاز الغرفة بخطوات هادئة ناظراً إلى مكان بعيد وراء الجدران.

مباركة للمرة الثانية تقف متهيّجة وتمدّ زنديها نحوه وتصرخ قائلة:

«أيّها الرجل السائر فوق رؤوس الرجال. أيّها الرجل المنوّر قف هنيهة وانظرإليّ. قف هنيهة لأرى وجهك»

يختفي الجبار وراء مصراعي الباب الأيمن أمّا مباركة فترتمي إلى مقعدها وتقول هامسة:

« لقد اختفى. لقد اختفى ثانية. لقد راح؟ »

رئيس الوزراء وبولس ينظران إلى مباركة باهتمام ووجل.

رئيس الوزراء - « قولي لي الآن ماذا جرى لك؟ أيّ سرّ يتمشى في صدرك؟ ماذا رأيت؟ ولمَ تصرخين هذا الصراخ؟

مباركة - رافعة يمينها على عينيها - « لم يحدث شيء يا سيّدي اغفر لي لم يحدث شيء البتة ».

في هذه الدقيقة يدخل الحاجب بعد أن ينحني أمام رئيس الوزراء يقول:

« الأمير يوسف خلدون يرغب في المثول أمام سيّدي »

« رئيس الوزراء - « ليدخل علينا الأمير » - وكأنه يقول في نفسه - الآن علينا أن نجتمع بالتراب المفضّض ونحدّث الشرف الموروث. ما أكثر شفقتي على هؤلاء الشرفاء هؤلاء المشرفون على الغرق. المتعلّقون بما فيهم من العزم بقطع من الأخشاب العائمة ولكنهم سيغرقون إلى الأعماق - سوف يغرقون ولن ترتفع رؤوسهم فوق زبد البحر ».

يدخل الحاجب ثانية وبصوت عالٍ يقول:

« الأمير يوسف خلدون »

يدخل الأمير

رئيس الوزراء - « مشيراً إلى كرسي بجانب المنضدة فيجلس الأمير »

ـ (جئت يا سيّدي لتخبرني عن الخلاف الكائن بينك وبين الفلاّحين)

الأمير ـ نعم وعندي الشيء الكثير في هذا الصدد ».

رئيس الوزراء ـ أطلب إليك أن لا تقول شيئاً بل أن تصغي لما أنا سأقوله لك. هذا إذا رأيت من الأصالة أن تصغي إليّ. وإلاّ فتفضّل واذهب إلى الحقل واسمع طنين النحل بينا النحل يحمل عسالة الأزهار لملكة القفير ».

الأمير ـ « أنا مصغٍ إليك يا سيدي ».

رئيس الوزراء ـ بتروٍّ وإمعان ـ (على الأمراء والرأسماليين أن يتخذوا العمال شركاء لهم فلا يمرّ ردح من الزمن حتى يصبح كلّ عامل شريكاً في ذلك العمل بقدر ما تستثمره يداه فلا يخسر الأمراء والرأسماليون شيئاً ممّا في هذه الأرض من زيت وملح أمّا العامل فيقنع ويسرّ لعمله بأنّه مشارك في كلّ ما يصنعه.. يا سموّ الأمير ليس لديّ أكثر من هذا أقوله لك الآن أرجو أن تعي بعد ذهابك كلماتي وتفعل بموجبها.. أسعد الله مساء الأمير)

يقف الأمير وينحني ثم ينصرف

رئيس الوزراء لمباركة ـ « أنا تعب يا صغيرتي لم تزل قوسي في يميني ولكن لم يبق في جعبتي.. غير سهم واحد.. لقد كاد النهار ينتهي.. ولكن قولي لي ماذا يا ترى باق أن نفعله ؟ »

مباركة ـ « أذكر يا سيدي أنّك وعدت الراهبات بمقابلتك وهنّ الساعة يترقبن خارجاً ولكن إذا شئت أن ترتاح فالراهبات يأتين لمقابلتك غداً أو بعد غد ».

رئيس الوزراء ـ « الراهبة حنة رئيسة الدير ... لتدخل علينا ».

الحاجب يدخل قائلاً ـ « راهبتان من دير المخلّص في الردهة تنتظران أمرك »

رئيس الوزراء ـ « قل لهما إنّي بانتظارهما »

يخرج الحاجب وبعد دقيقة تدخل وراءه راهبة ورفيقتها.

رئيس الوزراء ـ بصوت ملؤه العطف ـ [تفضّلا واجلسا واغفرا لي لأنّ هذا الجسد لا يستطيع الوقوف أمامكما أمّا الروح فتقف بتهيّب أمام خادمات الانسانية].

الراهبتان تجلسان.

الراهبة ـ (ما أنبل سيّدي وما أعذبه ملتفظاً بهذه الكلمات).

رئيس الوزراء ـ (قولي لي يا أختي ماذا ترغبين؟ أرجو أن أكون قادراً على تلبية حاجتك)

الراهبة ـ إلى جانب ديرنا أرض نحن بحاجة إليها للميتم لأولئك الأطفال الذين بدون أب معروف أو أم معروفة. لأطفال الصدف ولأطفال الليالي، ولكن لأسفنا أنّ الأمير يوسف خلدون قد وضع يده على تلك الأرض واحتلّها بدون حجّة ولا برهان. نحن نرغب في تلك الأرض للحاجة أمّا الأمير فيرغب فيها للزيادة على الأراضي الواسعة التي يملكها، من أجل ذلك جئنا إليك يا سيدي.

رئيس الوزراء ـ سانداً رأسه بيده ـ (أيتها الأمهات اللواتي لم يلدن، ولكنهن يعطفن على أولاد الأمهات المحجوبات وراء ستائر الأيام، لكنّ الحقّ وكلّ الحق بامتلاك فسحة واسعة لوضع سرير لقيط، لقد كان قلبي

ولم يزل مع النساء اللواتي يبحثن عن الرؤوس الصغيرة المهملة ليهرقن عليها صافي قلوبهن من المحبة وأنا أهنئك يا أختي لأنّك ورفيقاتك قد وجدت موضوعاً للمحبّة والحنان، (يسكت مفكّراً ثم يعوُد فيقول) - دعيني أفكر، دعيني أفكر هنيهة... هنالك شريعة في دولتنا وهذا مفادها: إذا مرّ خمس عشرة سنة على حقل أو كرم أو بستان بدون فلاحة أو زرع أو استعمار ذلك الحق أو ذلك الكرم أو ذلك البستان يخسره صاحبه ويعود إلى الملك. سوف أطلب من الملك أن يهبكن الأرض التي ترغبن فيها تقديراً لخدماتكن الانسانية» - ملتفتاً نحو بولس - (اذهب إلى المكتبة وابحث في كتاب عنوانه التملّك والحجج وأظن أنّك ستجد في الفصل السابع كيف يتصرّف الملك في الأرض المهملة وبعد ذلك اكتب الحجة وابعث بها إلى سيّدي الملك ليضع طابعه عليها)

يخرج بولس من القاعة.

رئيس الوزراء - (كوني براحة بال يا أختي. كوني براحة بال يا أم الأطفال الذين بدون أمّهات. لقد أسعدتني بأنّك قد سمحت لي بالقيام بهذه الخدمة)

الراهبة ورفيقتها تقفان.

الراهبة - (أشكرك يا سيّدي. أشكرك من أعماق روحي).

رئيس الوزراء - (عليّ أنا أنا أن أشكرك أو لم تسمحي لي أن أكون والداً لحظة واحدة).

الراهبتان ترسمان إشارة الصليب على وجهيهما.

الراهبة - (لتباركك ولتحرسك أمّنا مريم. مريم العذراء. مريم أمّ

الجميع وليباركك يسوع ربّنا. يسوع راعينا. يسوع الذي يقود قطيعه إلى المراعي الخضراء

تخرج الراهبتان ورئيس الوزراء يحني رأسه وبعد دقيقة يقول:

(ما أحسنهن نسوة! يستعطين الخبز لسدّ جوع الجائعات المجهولات ولكن كلّنا يقف متسوّلاً في باب الهيكل وكلّنا يتسوّل لسدّ جوع آخر) ـ بعد سكوت طويل يومىء بيده إلى الحاجبين لينصرفا ثم يلتفت نحو مباركة قائلاً: ـ (قد تعبت يا ابنتي. قد مللت يا صديقتي الحلوة. ها قد جاء الظلام ليغمرنا بوشاحه).

تقف مباركة وتضيء بعض الشموع في القاعة ثم تعود وتقف إلى جانب مقعدها.

رئيس الوزراّ ـ (انتهى عمل هذا النهار وسوف ترتاحين من منازعي حتى الفجر وبعد ذلك سيكون يوم آخر.... يا مباركة، يا صديقتي أنا تعبان وقد وضع الملل يده الثقيلة على قلبي ولكن هنالك أشياء كثيرة عليّ القيام بها. هنالك جسر يجب بناؤه. وهنالك صرح عليّ أن أقيمه، وهنالك في أعماق الليالي صوت عليَّ أن أبلغه للهاجعين، ولكن أنا تعبان... أنا تعبان الآن... مساء الخير يا مباركة يا صغيرتي الحلوة).

يمدّ إذ ذاك يديه على المنضدة ويحني رأسه ثم يتنهّد طويلاً. ثم ينظر إلى وجه مباركة. ثم يهبط فتسكن كلّ حركة في جسده.

في تلك اللحظة يظهر الجبّار البهيّ من الباب الأيمن ويسير هذه المرّة إلى صدر الغرفة ويقف منتصباً كعمود من النور إلى جانب جثّة الوزير الهادئة واضعاً يده فوقها محدّقاً إلى الأبدية.

مباركة ـ «تنظر إلى الجبّار وتمدّ ذراعيها نحوه وبوجه جلّلته أشعة

سحرية وبصوت تهتزّ له زوايا القصر تقول: - «عرفت منذ البدء أنّك جميل وجليل. عرفت منذ البدء أنّك أنت أنت مثلما تظهر لـي الآن. يا صديقي. يا صديقي الحبيب. حبّذا لو رآك العالم أجمع كما أراك أنا الآن. حبّذا لو عرف الناس كلّهم ما عرفته وأعرفه الساعة»

ينزل الستار (*).

(*) الدرر المختارة، مجموعة مقالات شائقة أدبية أخلاقية انتقادية روائية بقلم جبران خليل جبران، المطبعة الرشيدية كفرشيما، من ص ٥٨ - ٨٠.

٢ ـ بين الليل والصباح

المكان ـ سجن ضيق مظلم في سرايا بيروت الكائنة في ساحة البرج.
الزمان ـ بين منتصف الليل، ٩ تشرين الأول.

الأشخاص ـ يوسف كرامة «شاعر»، سليم بلان «وجيه مسيحي»، علي رحمن «وجيه مسلم»، شرف الدين الحوراني «وجيه درزي»، موسى حاييم «تاجر يهودي».



موسى حاييم وشرف الدين الحوراني نائمان كل منهما بقرنة من السجن. سليم بلان متوسد على ساعده. علي رحمن جالس على مقعد خشبي. يوسف كرامة يسير بخطوات مشوشة في الغرفة ذهابا وايابا ويقف بين الآونة والأخرى وينظر محدقاً بالكوة الصغيرة التي يدخل منها نور النجوم.

موسى حاييم (يتكلم في نومه): مئتان ومئتان أربع مئة. أربع مئة وثلاث مئة سبع مئة. سبع مئة ومئتان تسع مئة. تسع مئة وخمس مئة ألف وأربع مئة من الذهب. أخذوها! أخذوها مني! أخذوها آه آه!!

يوسف كرامة: حبذا لو استطعت الرقاد نظيره. حبذا لو كان بإمكاني ان

أغمض عيني ولو دقيقة واحدة عن هذا الجحيم لأفتحهما في عالم بعيد عن هذا العالم!

علي رحمن: قد لحظت يا أخي إنك لم تنم منذ أسبوع كامل، ولا أدري كيف تحيا بدون نوم (بلهجة ملوءها الانعطاف) اضطجع يا أخي. اضطجع على هذه الألواح الخشبية ونـم ولو ساعة. فلا تعلم ان بسهرك المستمر تقترب من جريمة الانتحار البطيء؟

يوسف كرامة: لا لا أطلب الانتحار في هذا الوكر القذر. يكفيني ذل حياتي، ولو كانت عزيزة لما أبقوها لي. لو كانت حياتي ذات قيمة لعلقوها بحبلة مثلما فعلوا بحياة رفاقي واخواني.... لا، لم استحق شرف الموت مع الذين ماتوا. لم أكن خليقاً بنبالة المشنقة!

علي رحمن: هون عليك ولا تفكر بالأمس، فعلينا ان نتجلد حتى الغد، فالغد في يد الله. والله كريم ورحيم.

يوسف كرامة: كيف استطيع إيقاف فكرتي عن مسيرها؟ كيف أستطيع أن أنسى الأمس؟ ان يد الأمس قابضة على ضمير اليوم. الأمس موكب أخيلة رمادية تطوف في فضاء هذا السجن. موكب اشباح تسيل حول رأسي هامسة في أذني اسماء رفاقي. اسماء إخواني الشهداء. أسماء أولئك الذين علقوا بين الأرض والسماء.

علي رحمن (ينتصب متجهما): والذي روحي بيده سيأتي يوم يقـوم فيـه ابناؤنا ليأخذوا بثأرنا. سيقوم في الناشئة الجديدة من يطالب بدمنا. فيظهر في الجزيرة العربية جبار نشوان بعزمه فيسير ساحقاً بقدميه الطغاة والظالمين.

شرف الدين الحوراني (يستيقظ فاركا عينيه بأصابعه ـ يخاطب علي رحمن قائلا): أنت تحلم في اليقظة حلماً فارغاً. فالعرب يا سيدي قوم

ضائعون بين رمال الجزيرة وجبالها. ومن الجهالة ان نترقب شيئاً عظيماً منهم. ان مستقبل سوريا موقوف على الدولة البريطانية القوية العادلة. فإن لم تحتل انكلترا سوريا إذن فقل على سوريا السلام.

سليم بلان: أتريد ان تحتل انكلترا المتكبرة المتغطرسة بلاداً يعبد سكانها فرنسا؟ وهل يا ترى نرضى بغير فرنسا لتحمينا وتحكمنا؟ أقول لكم ان فرنسا هي مهد الحرية وأم المدنية. وان لم يخفق العـلم المثلث الألوان فوق سهول سوريا وجبالها فلا مستقبل لسوريا ولا أمل بها.

موسى حاييم (يتكلم في نومه) مئتان ومئتان اربع مئة أربع مئة وثلاث مئـة سبع مئة. أخذوها! أخذوها ويلاه! ويلاه قد أخذوها!

يوسف كرامة (يقف في وسط الغرفة رافعاً ذراعيه): أوه ما أعظم بليتك يا سوريا! ان أرواح ابنائك لا تدب في جسدك الضعيف المهزول بل في أجساد الأمم الأخرى. لقد سلتك قلوبهم وبعدت عنك أفكارهم، يا سوريا، يا سوريا يا أرملة الأجيال وثكلى الدهور، يا سوريا يا بلاد النكبات، ان أجسام ابنائك لم تزل بين ذراعيك، أما نفوسهم فقد بعدت عنك. فنفس تسير في جزيرة العرب، ونفس تمشي في شوارع لوندرة، ونفس تسبح مرفرفة فوق قصور باريس، ونفس تعد الدراهم وهي نائمة. يا سوريا، يا أماً لا أبناء لها! (مخاطباً رفاقه) اسمعوا أيها المسجونون في سجن ضمن سجن ضمن سجن. ليست سوريا للعرب، ولا للانكليز، ولا للفرنسويين، ولا لليهود. سوريا لكم ولي. ان أجسامكم التي جُبلت من تربة سوريا هي لسوريا. وأرواحكم التي تجوهرت تحت سماء سوريا هي لسوريا. وليست لبلاد أخرى تحت الشمس. يعلم الله اني أحب العرب، وأشوق الى رجوع مجد العرب. ولكنني سوري، وأطلب مجداً سورياً لسوريا. يعلم الله اني احترم عدالة انكلترا وأعجب بعزمها. ولكني سوري، وأريد عدلاً وعزماً

سوريا لسوريا. يعلم الله وأنتم تعلمون أن شعوري بمعرفة الجميل نحو فرنسا قد بلغ بي الى هذا السجن. ولكن قهراً عن محبتي لتلك الأمة النبيلة التي تسير أمام أمم الأرض نحو الحق المجرد والحرية المطلقة فأنا سوري وأريد حقاً سورياً، وحرية سورية لسوريا.

علي رحمن: أنت يا أخي شاعر تنظم خيالك بألفاظ جميلة، غير أن الشعر شيء آخر.

شرف الدين: قد أحسنت يا علي أفندي بقولك انه شاعر. أحمد الله فالشعراء لا يسوسون الدولة البريطانية.

سليم بلان: ومن قال لك ان الخياليين يسوسون فرنسا؟

موسى حاييم (في نومه): مائتان ومائتان اربعمئة. اربع مئة وثلاثمئة سبعمئة. أخذوها ذهبا وفضة.

يوسف كرامة: نعم الشاعر، ليس بسياسي. ولا أريد أن أكون سياسياً. أحب بلادي وابناء بلادي. وهذا كل ما أريد أن أعرفه عن السياسة. أحب أمتي لأنها ضعيفة مظلومة مضطهدة. ولو كانت بلادي عظيمة قوية لانصرفت عن حبها الى أشباح نفسي وأحلامها. أحب ابناء بلادي لأنهم ضائعون متشوشون يخافون المستقبل بكرههم الماضي ويخشون الأيام حتى ولو ابتسمت لهم. ولو كان أبناء بلادي أشداء متحدين متفقين لنسيتهم وتحولت عن منازعهم ومراميهم إلى استفسار أسرار الحياة ومخبآتها. أحب بلادي وأبناء بلادي وللمحبة بصيرة ترى ما لا تراه السياسة، وإذن تسمع ما لا تعيه الفلسفة.

شرف الدين: أحب سوريا أيضاً. وليس بين الناس من يشك بذلك.

ولكن هي محبتي لسوريا التي تجعلني ان أشوق الى ذلك اليوم الذي تصبح فيه سوريا عضواً حياً من جسم الامبراطورية البريطانية العظمى.

سليم بلان: من يحب سوريا حقيقة فليحب محبيها. فهل من أمة تغار على سوريا كالأمة الفرنسية؟ منذ عهد الصليبيين وفرنسا ترعى بلادنا بعين ساهرة. وعندي ان من لا يحب فرنسا بحبه لسوريا يكون ناكراً الجميل.

علي رحمن: لا أنكر على أحد احترامه انكلترا. ولا أحول أحداً عن حبه لفرنسا. ولكن أي رابطة يا ترى تجمع الشرقيين بالغربيين غير المطامع الاستعمارية؟ إنما الشرق والغرب عالمان منفصلان لن تجمعهما جامعة ولن تقربهما سياسة أو فلسفة. لذلك أقول انه يجب على السوريين ان يكونوا والعرب مملكة واحدة وشعبا واحداً. فتاريخنا تاريخهم ولغتنا لغتهم وبلادنا قسم من بلادهم.

موسى حاييم (في نومه) مائتان ومائتان اربعمئة..... اربعمئة وثلاثمئة ـ سبعمئة... أخذوها... أخذوها ذهباً وفضة...!

يوسف كرامة (يستر وجهه بيديه دقيقة ثم يرفع رأسه ويصرخ قائلاً): يا بابل: يا بابل! يا مدينة التفريق! هل تحوّل ظل الله عنكِ فأصبحت كالخرائب القائمة في الصحراء؟ يا بابل يا بابل، يا وطن الخلافات والضغائن! هل بنيت في أحلامك برجاً رأسه بالسماء فغضب الرب وبلبل السنتك وبدد أبناءك على وجه الأرض؟ يا بابل، يا بابل، يا مدينة لا سكان لها! هل ترى يعود أبناؤك اليك فيبنون أسوارك وهياكلك! هل يمر الله بك ثانية فيرفع الذل عنك؟ يا بابل، يا بابل، يا مدينة بيوتها الأوجاع وشوارعها الكلوم وأنهارها الدموع! يا بابل يا بابل، يا مدينة قلبي!

(يقف يوسف عن الكلام كأن الغصات قد خنقته ثم ينطرح على الألواح

الخشبية منهوك القوى فيحدث سكوت عميق أشبه بسكينة المقابر المخيفة وبعد نصف ساعة يسمع من وراء حجب السكون أصوات ضئيلة آتية من ساحة البر ج خارج حائط السجن).

* * *

صوت طفل: جوعان يا أماه، جوعان. اعطني لقمة خبز. اعطني لقمة صغيرة. جوعان. جوعان.

صوت امرأة: ارقد يا ولدي. ارقد حتى الصباح. عندما يأتي الفجر يبعث الله الخبز فنأكل جميعاً.

صوت رجل: لقد ناديت الله حتى بح صوتي. قد مات الله. قد مات الله جوعاً. لو كان الله حياً لما مات عبيده موت الكلاب في الأزقة.

صوت الامرأة: اغفر له يا رب فهو لا يدري ماذا يقول.

صوت الطفل (مبتهجاً): انظري يـا أماه! انظري تلك السفرة. السفرة الكبيرة. سفرة عليها الخبز واللحم والطيور والسمك. انظري صحون العسل والجبن واللبن. انظري السفرة يا أمي. مدي يدك واعطني. اعطني اعطني آخ. آخ!

صوت الامرأة: (بعد دقيقة سكوت تنوح متوجعة) مات! مات ولدي. مات آخر أولادي. انظر اليَّ يا رب.

صوت الرجل: مات ولدك وأنت تنادين الله. قلت لك ان الله قد مات جوعاً.

صوت الامرأة: (بتجلد مهيب) حي هو الله! اشكرك يا رب لأنك

أخذت ولدي الى حيث لا جوع ولا عطش. ارحم في هذه الليلة يا رب جميع الأمهات.

يوسف كرامة: (ينتصب متهيجاً ثم يقرع الحائط بيديه) يا بلادي. يا بلاد الأوجاع. قلت انك ارث لابنائك. فهل يا ترى يبقى من يرثك أمام وجه الشمس أرضاً خاوية خالية إلا من جثث الأموات...؟ اني أسمع خشات أقدام الموت في شوارع المدينة النائمة. وأراه يحصد بمنجله أرواح ابناء أمي وأبي. يا سوريا، يا ملتقى سبل الفاتحين، هل أعيش لأرى فاتحاً جديداً؟ ليأت الفاتح ان كانت جيوب عساكره مملوءة بالخبز. ليأت الفاتح لعله يبقي لي أخاً احتمي به وأختاً أسمع صوتها..... أواه ما أعظم انانيتي. اني اطلب أن أبقى حياً لأرى وجه أخ وأخت، ولكن لو كانت حياتي ذات قيمة لما أبقوها لي. لو كانت حياتي عزيزة لعلقوها بحبل بين أولئك الذين رُفعوا وسيماء الغلبة على وجوههم. (ينظر حواليه فيرى ان رفاقه قد ناموا جميعهم فيكبل زنده على صدره ويسير ذهاباً واياباً في الغرفة المظلمة).

عند الصباح

(يوسف كرامة لم يزل يسير بخطوات مشوشة في صحن السجن. اما رفاقه فما برحوا نائمين «يسمع فجأة لغط خارج السجن يعقبه طلقات نارية ثم صياح من كل جهة. ولا تمر بضع دقائق حتى يرتعش الفضاء بالتهاليل والأهازيج)

يوسف كرامة: (صارخاً بأعلى صوته) هبوا ألا هبوا أيها النائمون، قوموا واسمعوا، قوموا فالثعبان قد حوّل ظله عن هذه المدينة!

(يهب السجناء متسائلين، صارخين، باكين، ضاحكين، كأن الجنون مس عقولهم).

(أصوات من الخارج): جنود الحلفاء ملأت المدينة. جيش انكلترا. مدرعات فرنسا. هو ذا عساكر الهند. الطليان والفرنسيون. الحمدلله.

الشكر لله. قد بلغنا الخلاص!

(لا تمر دقيقة الا ويفتح باب السجن فيملأ النور تلك الغرفة المظلمة العطنة، فيخرج موسى حاييم صارخاً والفرح يكاد يقتله، ثم يتبعه شرف الدين الحوراني وسليم بلان وعلي رحمن. ويظل يوسف منتصباً في وسط الغرفة محدقاً بشعاع الشمس الداخل من باب السجن. يمشي بخطوات بطيئة الى الباب قائلاً في ذاته): ليكن يا رب خروجي من هذا السجن الى الحرية الحقيقية. لا تفتح يا رب جناحي لأطير فوق بستان يترصد فيه الصيادون. انك لم تشأ ان تجعل حياتي ضحية على مذبح الحق والحرية، فاجعلها ان شئت بخوراً(*).

(*) السائح، ١٦ كانون الثاني ١٩١٩، نقلاً عن «عقيدة جبران» ص ٢٩٣ ـ ٢٩٧.

٣ - الوجوه الملونة

المكان ـ منزل يوسف أفندي الجمال احد كبار التجار السوريين في نيويورك. الزمان ـ إحدى ليالي الشتاء الباردة.

الأشخاص ـ يوسف أفندي الجمال

زوجته السيدة مريم

فريد أفندي غنطوس ـ صحافي

الدكتور سليمان بيطار

انيس افندي فرحات ـ تاجر وأديب معاً

الآنسة وردة العازار

حنه البشواتي ـ خادمة ـ وشخص آخر

يرفع الستار عن غرفة كبيرة دافئة ذات رياش ثمينة غير أنها مشوشة الألوان والأزياء تدل على ثروة رب المنزل وبالوقت نفسه على قلة ذوق ربته.

الضيوف جالسون براحة وطمأنينة يتحدثون عن الحرب ومآتيها ومن بين أصواتهم تتصاعد بين الآونة والأخرى خرخرة نرجيلة الخوري نعمة الله باخوس.

يقرع الجرس وبعد هنيهة تدخل الآنسة وردة العازار وبيدها جريدة انكليزية

الآنسة وردة: اسعد الله مساءكم!

الجميع « ينهضون » أسعد الله مساءك ـ ليلة سعيدة.

★ ★ ★

السيدة مريم الجمال: أهلاً وسهلاً.

بعد أن تسلم الآنسة وردة على كل شخص من الحاضرين بمفرده تجلس في صدر الغرفة ثم تقول مخاطبة الجميع: هل قرأتم ما جاء في جريدة الصن في هذا المساء؟

يوسف الجمال: ما الخبر؟ هل جاء فيها شيء عن الحرب؟

الآنسة وردة: لا لا. ليس من شيء جديد عن الحرب ولكن اسمعوا هذا الخبر (تفتح الجريدة وبصوت هادىء وبلهجة تدل على أنها متضلعة بلغة البلاد تقرأ ما ترجمته): السيدة جان هملتون قد أقامت حفلة إكراماً لسليم المرجاني السوري فدعت اليها أشهر الأدباء الاميركيين وأهم المشتغلين بالفنون الجميلة وفي نهاية الحفلة وقف المستر مرجاني والقى خطبة نفيسة تكلم فيها عن الفنون الشرقية وعن الأميال والأماني والمبادىء التي تتلاعب الآن ببلاده سوريا. ثم تلا قصيدة من نظمه في الانكليزية تدل بمعانيها وتراكيبها على مقدرة عظيمة وخيال بعيد فأعجب الحاضرون كل العجب.

أما خطاب المستر مرجاني وقصيدته فسوف ننشرهما في عدد الأحد من هذه الجريدة لأننا نحن أيضاً من المعجبين بهذا النابغة الشرقي الخ.. الخ..»

دكتور بيطار (متثائباً): لا أرى في هذا الخبر شيئاً من الأهمية! انا

أعرف سليم المرجاني معرفة تامة وهو شاب أديب وما تنشره الجرائد الانكليزية عنه لا يختلف عما تكتبه في أمور كثيرة. ان الجرائد الاميركية يا حضرة الآنسة تكذب كثيراً وهي من هذا القبيل أحط من الجرائد السورية.

انيس فرحات: هذه هي الحقيقة بعينها. الا تذكرون ان الجرائد الاميركية قد قالت عن فتح الله شمعون انه من الأمراء وانه سيقترن بإحدى المثريات الاميركيات؟ كلنا يعلم من هو فتح الله شمعون أمّا تلك المثرية الاميركية فهي امرأة في الخامسة والأربعين وأبوها مزارع في إحدى الولايات الغربية.

أنيس فرحات: اعرفه جيداً. أعرفه جيداً. فقد اجتمعت به وحادثته مرات عديدة لا بل قد صدف اجتماعنا في نزل ومطاعم عديده وهو شاب فهيم لكنه ذو أحلام فارغة وهو يتوهم انه يستطيع ان يجاري الفريقين في فنونهم وآدابهم.

الخوري نعمة الله باخوس: ليس لي معرفة شخصية بسليم المرجاني ولا أريد ان أعرفه ولكنني سمعت عنه الشيء الكثير وقرأت له بعض المقالات التي تدل على كونه واحداً من أولئك الكفار الملحدين الذين يظنون انهم يفعلون امراً عظيماً عندما يرمون الكنيسة وابناءها بأوحال جهلهم وجحودهم. فهل بينكم من يظن ان شابا لبنانياً ذا أخلاق ومبادىء كهذه ينجح بعمل من الأعمال في هذه البلاد العظيمة؟

يوسف الجمال: أصبت يا حضرة الأب فسليم المرجاني واحد من أولئك الشبان المغرورين بنفوسهم الذين يظنون انهم سيغيرون وجه الأرض. (يبتسم ابتسامة صفراوية) ألا تذكرون حكاية النملة والجندب عندما جاءها هذا في

أيام الشتاء وطلب اليها ان تعطيه شيئاً من القوت؟ قالت النملة للجندب: ماذا كنت تعمل في أيام الحصاد؟ فأجابها: كنت أغني القصائد.

(الجميع يضحكون ما عدا الآنسة وردة العازار).

الدكتور سليمان بيطار: ما أكثر المجانين بين السوريين وما أكثر الذين ينصرفون إلى ما لا ينفعهم ولا ينفع سواهم. والأنكى من كل ذلك هو أنه كلما ظهر بيننا مجنون من هذا النوع تقوم له جرائدنا وتقعد. أما الجرائد الاميركية فمعروف حالها فهي صفراء ولها ميل خصوصي لاستعظام الأمور التافهة. قد قرأت مرة في إحدى جرائدنا العربية كلاما عن هذا المرجاني جعلني أقطع اشتراكي فيها فهي لم تكتف بأنها دعته أديباً وكاتباً متفنناً بل زادت في الطين بلة بقولها هو النابغة السوري. (تظهر على وجه الدكتور دلائل الغضب فيرفع صوته عن ذي قبل ويزيد قائلاً) ان المديح الذي يبلغ هذا الحد لهو نوع من الذم. إذا قلنا عن سليم المرجاني انه نابغة فماذا يا ترى نترك من النعوت للشيخ ابراهيم اليازجي وللمعلم عبدالله البستاني وللمرحوم سعيد الشرتوني؟ كلا. فأنا لا أتطوح ولا أبالغ بل أعطي لكل انسان حقه ولو كنت مثل صاحب الجريدة الفلانية ومحرر الجريدة الفلانية وحالهما معروف بين السوريين كانت جريدتي ذات مشتركين يعدون بالألوف. الشرف ايها الأصحاب لا يشرى ولا يباع وأنا أفضل ان أترك الصحافة وشأنها من أن أتزلف لهذا وذاك. أما الجرائد الاميركية فهي كالمومسات الواقفات على ملتقى السبل.... وماذا يا ترى فعل هذا المرجاني لندعوه بالنابغة؟

يوسف الجمال: إذا كان المرجاني نابغة فماذا يكون السمعاني والمطران الزغبي والخوري الانطلياسي؟ قد اجتمعت بهذا المرجاني من زمن غير بعيد

وألقيت عليه بعض سؤالات، في التاريخ فوجدته لا يعرف شيئاً ثم سألته عن مدخول كتابه الأخير فتمتم بعض ألفاظ لم أذكرها ومن كان هذا حاله فهل ندعوه نابغة؟ آه يا الله ما أكثر النوابغ بين السوريين!

أنيس فرحات: والمدهش المنكي الذي تشمئز له نفسي ان صاحبنا المرجاني يتوهم انه إذا طال شعره وحمل عصاه وارتدى الملابس الغريبة الشكل يحصل على اعتبار القوم وثقتهم كما يفعل أدباء الغربيين وعلماؤهم.

السيدة مريم الجمال: (مخاطبة الخوري نعمة الله باخوس): لقد انطفأت الجمرة يا حضرة المحترم فاسمح لي أن أغير لك النرجيلة.

الخوري نعمة الله باخوس: لا لا يا حضرة السيدة فقد أكثرت التدخين... ومع ذلك فمثلما تأمرين.

السيدة مريم (تدعو الخادمة بصوت جهوري) يا حنة. عبئي نفساً لابينا واحضري لنا القهوة.

(تدخل الخادمة حنة الى الغرفة وهي امرأة في الخمسين من عمرها ذات ملامح متسعة وهيبة وقورة وفي عينيها نظرات تتكلم بالصمت عن كآبة في النفس احدثتها الغربة. وبعد أن تنظر الى وجوه الحاضرين تحمل نرجيلة الخوري نعمة الله وتخرج من القاعة).

الآنسة وردة (تلتفت نحو مريم الجمال قائلة): من هي هذه الخادمة؟ فأنا لم أرَها قبلاً.

السيدة مريم الجمال: هي امرأة فقيرة ادخلناها في خدمتنا منذ يومين فهي كما رأيتها مسنة ولا تحسن الخدمة ولكن من أجل الصدقة.

الآنسة وردة عازار: اني رأيت في وجهها المتجعّد شيئاً حرك عواطفي

وجعل تذكاراتي تحوم دقيقة فوق روابي لبنان وأوديته. ومن يدري فقد يكون لهذه الامرأة المسكينة حديث ذو شجون. (يعود الحاضرون الى حديثهم الماضي).

الدكتور سليمان البيطار: ان الطاسة ضائعة بين السوريين وليس فيهم من يميز الذهب من الرماد فكل من تخرّج من مدرسة طبية يدعونه طبيباً وكل من نظم قصيدة يدعونه شاعراً ولولا هذه العيبة السوداء لما كان بيننا من يقول ان سليم المرجاني نابغة بل لما كان بيننا من يذكر اسمه. الطاسة ضائعة وأكثرنا عميان فكيف نجدها؟

الآنسة وردة: (تضع يديها على وجهها وتتنهد تنهدة عميقة ثم تنظر الى الحاضرين وقد ارتعشت شفتاها قليلاً كأن في نفسها امراً تريد أن تتكلم عنه ولكنها تمنع ذاتها عن الكلام خوفاً من التطرف).

الصحافي فريد غنطوس (يخاطب الآنسة وردة): لماذا أنت صامتة يا حضرة الآنسة. قد قرأت علينا خبراً ثم سكت ولم تبدي رأيك في سليم المرجاني.

الآنسة وردة: لم أبد رأيي لأني أرى الصمت أفضل من الكلام.

أنيس فرحات: لا بد من أن يكون لك رأي في المرجاني وأدل شيء على ذلك تلاوتك مقالة جريدة الصن بلهجة الفرح والاعجاب.

الخوري نعمة الله باخوس: نعم أبدي رأيك يا حضرة الآنسة.

الآنسة وردة (تعود فتضع كفيها فوق عينيها ثم تحدق بهم بعينين كبيرتين وبصوت يدل على الانفعال تقول): لي رأي أيها السادة بل لي آراء كثيرة في سليم المرجاني وفي كل فتى يماثله. لي رأي بل آراء في جميع

الفتيان الذين يخرجون من حضن أمهم سوريا ويذهبون الى مصر وفرنسا وانكلترا والبرازيل والولايات المتحدة ويبنون لأنفهسم ولوطنهم هياكل من الأمجاد الأدبية والفنية. لي آراء كثيرة ولكن هل لآرائي مجال في هذا المسرح؟ ماذا أقول عن سليم المرجاني واشباهه وأنتم قد وفيتموهم حقهم من المديح والاطراء؟ جريدة الصن تقول ان السيدة هملتون قد أقامت حفلة لسليم المرجاني. والسيـدة هملتـون كمـا تعلمـون اميـركيـة ولا يجمعهـا بالمرجاني سوى رابطة الآداب والغيرة على الآداب والأدباء؛ وقد استغربتم هذا الخبر لأن المرجاني سوري مثلكم وفي عروقه تسيل الدماء التي تتمشى في عروقكم. لماذا يا ترى يكرم الاميركيون أديباً شرقياً هل لسواد عينيه أم لطول شعره أم لنغمة غريبة في لهجته. هل يكرمونه لأنه ولد بين أودية لبنان الجرداء أم يكرمونه لأنه من نسل أنبياء سوريا القدماء أم يكرمونه لأنه يمثل الدولة العثمانية المجيدة. لا فالأميركيون لا يهتمون لهذه الأمور ولكنهم ذوو بصيرة تنتقي من الغرباء من كان ذا نفس منيرة أو عمل نبيل وتضعهم فوق مذبح التكريم والتشجيع. ان الاميركيين امة حية وهم يعلمون ان الأمم بنوابغها وهم لا يفرقون بين نابغة يجيئهم من باريس ونابغة يأتيهم من قلب افريقيا بل يعطون كل ممتاز حقه وهذا ما لا تستطيعون انتم فعله. قرأت عليكم الخبر في جريدة الصن فاصفرت وجوهكم وتبلبلت السنتكم كأنني جئتكم بخبر مفرح عن ألدّ أعدائكم. ولو كان بيننا أميركي يفهم لغتنا لظن ان سليم المرجاني قد خنق والدة كل منكم بأصابعه قبيل ان يقوده نبوغه ليلة أمس إلى حفلة السيدة هملتون. ان حضرة الدكتور بيطار قد نعت الجريدة الاميركية بالصفراء لأنها أعجبت بابن وطنه وأنيس أفندي فرحات قد قال انه يعرف سليم المرجاني وبما ان حضرته يعرف سليم المرجاني معرفة تامة يحقق انه لا يستطيع ان يجاري الغربيين في فنونهم.

وآدابهم. وحضرة الخوري المحترم قال انه لا يرجى من المرجاني امر عظيم لأنه رمى الكنيسة وابناءها بأوحال جهله وجحوده. ويوسف أفندي الجمال يحسب المرجاني كالجندب ولكنه لم يقل لنا من هو النملة. هذا ما قلتموه يا أسيادي في فتى يجعله نبوغه حلقة ذهبية تصل الأمة السورية الخاملة الذكر بالأمم الغربية الراقية. هذا ما تقولونه عن رجل يجعل علية القوم في هذه البلاد يشعرون بوجودنا بين ظهرانيهم. هذا ما تقولونه عن شعلة متقدة أوقدها الله في سوريا ثم حملتها التقادير الى بلاد الغربة. هذا ما تقولونه فماذا يا ترى أقول؟ هل أقول لكم ان الحسد صفة وضيعة من صفات السوريين؟ وهل أقول لكم ان العاطفة القومية قد ماتت في أرواح السوريين؟ هل أقول لكم ان الجماعة لا تدري معنى الفرد إذا كان الفرد سوريا؟ هل أقول لكم ان من الواجب عليكم وعلى جميع السوريين ان نكرم المرجاني وغيره من الموهوبين بيننا مثلما يكرم الغربيون الموهوبين بينهم؟ هل أقول لكم ان الميول السورية متجهة بإجمال نحو المقاصد المادية حتى لم يبق في كيانهم ميل لأمر كائن فوق المادة؟ هل أقول لكم ان الحكم التركي قد أمات في قلوبكم العواطف النبيلة؟ لا. فأنا احترمكم كأفراد وبالوقت نفسه احترم ذاتي فلا أقول لكم شيئاً من هذا. غير أنني ارجو ان تستيقظ في نفوس ابنائكم أو نفوس أحفادكم تلك العناصر التي كانت سبباً ليقظة الأمم الغربية. تلك اليقظة المعنوية التي جعلت حياتهم كعرس مستتب على مرسح الوجود بينما نحن الشرقيين في جنازة مغمورة بالدموع والتنهّد. أنا امرأة وصوت المرأة غير مسموع بين الشرقيين ولو كان مسموعاً لأفهمتكم الليلة أموراً أنتم بحاجة الى فهمها وفوق كل ذلك انا امرأة غير متزوجة ومن تقاليدكم القديمة أن تبقى الصبية غير المتزوجة صامتة صمت القبور جامدة جمود الصخور.

(عندئذ تلوي الآنسة وردة عنقها وتتنهد تنهدة الثكلى فينظر اليها الحاضرون مستغربين ثم يقهقه بعضهم ضاحكاً).

الدكتور بيطار: يظهر لي يا حضرة الآنسة ان هناك أموراً تجعلك ذات اهتمام عظيم بسليم المرجاني.

انيس فرحات (يغمز الدكتور بيطار بطرف عينه ثم يقول): من المنتظر ان تكون الآنسة وردة من المهتمات بالأدباء...

الخوري نعمة الله: قهراً عن الانتقاد الجارح الذي وجهته الآنسة نحونا فأنا احترمها إكراماً لأبيها وعمها.

الآنسة وردة: أشكرك يا حضرة الأب وأرجو أن يجعلك المستقبل تحترمني إكراماً لنفسي. أنا لا أعرف سليم المرجاني وليس لي ميل إلى معرفته شخصياً فأنا قد قرأت كتاباته وهذا يكفي ولنفرض انني مهتمة به شخصياً فهل يكون اهتمامي داعياً لما قلتموه عنه في هذه الليلة؟ أوليس هناك قوة تجعل السوريين يفصلون بين العموميات والشخصيات؟ ان البصير يحب نور النهار مع أنه يعلم أن الشمس لم تخلق له وحده. ان البصير يحب نور الشمس والأعمى يستدفىء بحرارتها ولكن ماذا يا ترى يفعل الأعمى الساكن في القطب الشمالي؟...

فريد غنطوس: يا الله ما هذا الكلام... عميان وفي القطب الشمالي؟

الدكتور بيطار: والمسبب كل ذلك فتى مجدوب ذو أحلام فارغة.

أنيس فرحات: قد غمزتنا حضرة الآنسة بالإهانة لأننا لم نشاركها بتكريم مدع مجهول!

(في تلك الدقيقة يقرع الجرس فتحدث سكينة وقتية فيذهب يوسف

الجمال ويفتح الباب قائلاً باللغة الانكليزية): من تريد وماذا تريد؟

(فيجيب الشاب الواقف في الباب باللغة العربية): أرجوك ان لا تؤاخذني يا سيدي فقد جئت أبحث عن امرأة قدمت حديثاً من الوطن. وقيل لي إنها دخلت في خدمتكم!

يوسف الجمال: ومن هذه الامرأة؟

الشاب: اسمها يا سيدي حنة البشواتي وهي من شمال لبنان!

يوسف الجمال: قد دخلت في خدمتنا منذ يومين امرأة تدعى أم نوفل.

الشاب: هذه هي يا سيدي هذه هي. فهلا عملت معي معروفاً وقلت لها ان سليم المرجاني يريد أن يقابلها؟

(لا يلفظ الشاب اسمه الا وتتغير وجوه الحاضرين وتلمع عيونهم كأن أحد النيازك قد هبط في وسط تلك الغرفة).

يوسف الجمال: (ببشاشة) تفضل تفضل يا مرجاني افندي.

أنيس فرحات (يترك مقعده ويسير نحو الباب قائلاً): مرحباً سليم. ما أتى بك الى بروكلن؟

(يدخل سليم المرجاني القاعة وقد خلع قبعته عن رأسه وينحني مسلّماً على الحاضرين فيقفون جميعهم وسيماء وجوههم تتكلم بالصمت عن شياطين وأبالسة تتراكض في قلوبهم. أما الآنسة وردة فقد تهلل وجهها وشعرت بدنو حادث لم يكن في الحسبان فشخصت الى وجه المرجاني هنيهة ثم التفتت ناظرة نحو كل واحد من الحاضرين).

يوسف الجمال: اسمح لي يا سليم أفندي ان أعرّفك على حضرة الاب الخوري نعمة الله باخوس.

الخوري نعمة الله: لنا الشرف. لنا الشرف.

يوسف الجمال: وحضرته الدكتور سليمان أفندي البيطار. وحضرته فريد افندي غنطوس وحضرته أنيس فرحات. واسمح لي يا أفندي أن أعرّفك على زوجتي مدام جمال.

الجميع (بأصوات مختلفة): لنا الشرف. لنا الشرف.

(تبقى الآنسة وردة واقفة وسليم المرجاني ينظر اليها ثم يقول): لم أتشرف بمعرفة حضرة الآنسة؟

السيدة مريم الجمال: العفو العفو يا حضرة الأفندي أتسمح لي أن أعرّفك بالآنسة وردة العازار وهي إحدى اديباتنا الذكيات المعروفات.

(ينحني سليم المرجاني أمام الآنسة وردة ويقول): لي الشرف بمعرفتك.

الآنسة وردة ـ وأنا لي الحظ والشرف بمعرفتك يا مرجاني افندي خصوصاً في هذه الليلة.

(يجلس الجميع وبعد سلام وكلام لا معنى له يقول سليم المرجاني لرب لبيت): منذ الساعة السادسة وأنا أبحث عن حنة البشواتي وبعد اللتيا والتي هداني أحد السوريين الى منزلكم. لدي رسالة وتحويل بقيمة مالية من البرازيل وكلاهما باسمها فتفضل يا جمال أفندي وادعها لاقابلها.

مريم الجمال (تصرخ بصوت عالٍ) يا أم نوفل يا أم نوفل. تعالي الى هنا قليلاً.

(تدخل حنة البشواتي القاعة فينتصب سليم المرجاني وعندما تقع عيناها عليه تصرخ من أعماق قلبها قائلة): يا حبيب قلبي يا سليم. (ثم تترقرق الدموع في مآقيها وتزيد قائلة): قد كبر قلبي. ولكن ما بصدق أنو هادا

أنت سالت عنك عند وصولي فقالوا لي أنك موجود في مدينة بوسطن آه آه ما أحلى النظر الى وجهك نسيتني غربتي وحرقة قلبي.

(تقول هذا وتتقدم اليه فتعانقه وتقبله. ثم يجلسان).

سليم المرجاني - معي يا أم نوفل رسالة وتحويل من البرازيل باسمك (ينتشل إذ ذاك غلافاً كبيراً من جيبته ويضعه في يد حنة البشواتي فتفضه وبعد أن تقرأ الرسالة وتنظر التحويل وتغمر وجهها بيديها وتنتحب. فيقترب سليم المرجاني منها ويضع يده على كتفها بلطف وانعطاف ثم يقول): كلنا تغربنا يا أم نوفل والغربة تحزن القلب ولكنها لا تكسره بل تنميه. سوف يجمعنا الله في الوطن فنعيش مثلما كنا عائشين.

حنة البشواتي: آه آه على الأيام الماضية كيف كانت أيامنا وكيف صارت اليوم ومين كان بيصدق أن زوجة خليل البشواتي بتصير خادمة في أرض الغربة؟

سليم المرجاني: كلنا خدام يا أم نوفل. كلنا خدام. والذي لا يخدم لا يستاهل نور النهار ولا راحة الليل.

(تزيد حنة البشواتي في البكاء حتى لم يعد بإمكانها الكلام فتقف السيدة مريم الجمال وتقودها خارجاً وبعد دقيقة تعود الى القاعة).

سليم المرجاني - هذه امرأة كانت في بحبوحة من العيش وذات منزلة محترمة في بلدتي ولها على أهلي فضل لا أنساه حبذا لو كان بإمكاني ان أخدمها بأمر من الأمور.

أنيس فرحات (ومراده تغيير الحديث) كيف حالك يا سليم أفندي لم أرك منذ شهر أو أكثر وقد سألت عنك مرات عديدة فقيل لي إنك غارق بين الاميركيين.

الدكتور سليمان بيطار ـ قد قرأنا عنك الليلة مقالاً في جريدة الصن ويسرنا يا مرجاني افندي ان نسمع عن ادبائنا كلاماً حسناً.

الخوري نعمة الله ـ ان غيرة الاميركيين على الأدباء مشهورة خصوصاً إذا كان الأديب مثل مرجاني أفندي.

فريد أفندي طنوس: قد قرأت لك يا مرجاني افندي مقالة نفيسة في إحدى المجلات المصرية ولا تسل عن إعجابي بها وقد كان في قصدي نقلها إلى جريدتي لولا أملي بالحصول على مقالة جديدة من قلمك السيال.

يوسف الجمال ـ ما الذ الصدفة التي قادتك الينا في هذه الليلة يا سليم أفندي والشكر راجع الى أم نوفل.

السيدة مريم الجمال ـ نرجو ان تشرفنا ثانية والأفضل ان تتناول معنا العشاء في الأسبوع القادم.

سليم المرجاني ـ أشكرك يا سيدتي لكرم أخلاقك. مرَّ زمن مديد وأنا بعيد عن ابناء وطني بداعي الشغل ولكنني كلما رأيت سوريا يهفو اليه قلبي فتتراكض نحوه نفسي ولي الأمل ان أراكم جميعاً عما قريب.

(يقول هذا ويقف للانصراف فيمنعه رب المنزل قائلاً): القهوة على النار ولم تزل السهرة في أولها».

سليم المرجاني (يعود فيجلس قائلاً): لا أخالفك يا سيدي فمنذ أسابيع عديدة لم أشرب فنجاناً من القهوة السورية.

انيس فرحات: مرجاني افندي مولع بالقهوة وهو يتناولها ليلاً ونهاراً.

الدكتور بيطار: القهوة تنبه القريحة ولكن قريحة مرجاني افندي لا تحتاج إلى المنبّهات.

السيدة مريم الجمال (تصرخ بصوت عال): هاتي فنجان قهوة يا أم نوفل.

(صوت أم نوفل من المطبخ): نعم يا ست مريم.

الخوري نعمة الله (مخاطباً وردة العازار): لماذا أنت ساكتة يا حضرة الآنسة؟

الآنسة وردة: ليس لدي شيء أقوله في حضرتكم يا محترم فانتم المتكلمون وعلى من كان مثلي أن يصغي ولو قاد الحظ مرجاني افندي الى هذا المنزل في بدء السهرة لما تنفست بكلمة ولا تنس يا محترم انه من الأمور غير اللائقة بين السوريين ان تتكلم المرأة غير المتزوجة في حضرة الرجال... ولكن يسرني ان أراكم جميعاً فرحين بلقاء مرجاني افندي وقد قال هملت قبل ان يموت: وما بقي فسكوت.

الدكتور بيطار: خلصينا يا حضرة الآنسة من المعميات.

الآنسة ـ اواه يا امهرنا في تخصيص وقت للمعميات ووقت لغير المعميات وقد كان بودي أن أقول الآن شيئاً عن المعميات ولكنني أريد أن يشرب مرجاني افندي فنجان القهوة بلذة وهل تذكرون قول الشاعر:

قالت الضفدع قولاً   فسّرته الحكماء

في فمي ماء وهل ينـ   ـطق من في فيه ماء

سليم المرجاني: الظاهر اني دخلت عليكم وأنتم في حديث خصوصي فقطعتكم عنه.

يوسف الجمال: لا لا يا سيدي كنا في حديث عمومي.

الخوري نعمة الله ـ ان ليالي الشتاء طويلة ونحن نصرفها بالأحاديث المتنوعة لأجل التسلية.

سليم المرجاني: الظاهر ان حديثكم كان لذيذاً للغاية وقد اشتممت مما قالته حضرة الآنسة عن هملت والضفدع وما ساجده من اللذة في فنجان القهوة ما يحقق لي أن الحديث ليس لانسان غريب مثلي.

(تدخل حنة حاملة على صينية فنجان قهوة فيتناوله المرجاني وحنة تنظر اليه بانعطاف وتشويق).

(يناول يوسف الجمال سيكارة الى المرجاني فيشعلها هذا ويأخذ بتدخينها بعد كل مصة من القهوة. وبعد أن ينتهي ينتصب هاماً بالذهاب فيقف الجميع احتراماً وبعد ان يهز يد كل واحد منهم ويودع أم نوفل ويعدها بأن يجتمع بها عما قريب يخرج من القاعة شاكراً رب المنزل وربته).

(يظل الجماعة ساكتين حتى تتشرب سكينة الليل وقع اقدام سليم المرجاني ثم ينظرون وجوه بعضهم بعضاً صامتين كأن روحا غير منظورة ذات أياد عديدة قابضة على أعناقهم ما عدا الآنسة وردة العازار لأنها بقيت تبتسم ابتسامة ذات الف معنى. وبعد هذه السكينة الشبيهة بعويل الهاوية وحشرجة المنازعين تنتصب وردة العازار وتسير نحو الباب قائلة): لا شك في أنكم تصرفون ما بقي من السهرة صامتين متأسفين نادمين. نعم أيها السادة. ان الصمت أحرى بكم الآن من الكلام. ولكن إذا كان لا بد من الحديث فليكن كلامكم عن الأمور التي تتناول حرية الفكر والاخلاص. ان الساعة الأخيرة هي من أجمل وأنبل وأعمق ساعات حياتي لأنها رسمت أمام عيني صورة السوريين كجماعة وأبانت لي الأسباب التي جعلت السوريين يجرون قيودهم من بابل الى ممفيس الى بغداد الى الاستانة. ان الساعة

الأخيرة قد أظهرت لي مقدرة السوري على الابتداع والاختلاق وبالوقت نفسه على مهارته في صنع المساخر ذات الملامح المختلفة. نعم يا سادتي. كلنا ذوو وجوه عديدة. ففي الساعة الزرقاء نلبس الوجوه الزرقاء. وفي الساعة الصفراء نلبس الوجوه الصفراء. وفي الساعة الحمراء نلبس الوجوه الحمراء. الى آخر ما هنالك من الألوان. اسعد الله مساءكم يا أسيادي.

(تخرج الآنسة وردة العازار غالقة الباب وراءها بشدة وعزم كمن يخرج متملصا من الجحيم).

(اما الجماعة فيظلون صامتين محدقين بسقف الغرفة كأنهم يرون شبح شيطان مخيف حاملاً بيده دفتراً وفي الدفتر قد سطر على ما قالوه عن سليم المرجاني قبيل أن يجيء به الليل الى وسطهم)(*).

(*) السائح، ٢٠ نيسان ١٩١٦، نقلاً عن «عقيدة جبران» ص ٢٦٢ - ٢٧١.

٤ ـ بدء الثورة

المكان: قهوة في البحر في بيروت

الزمان: يوم ممطر من شهر شباط سنة ١٩١٤

الأشخاص: أحمد بك ـ مسلم

فريد أفندي ـ مسيحي

يرفع الستار عن فريد افندي المسيحي وأحمد بك المسلم وهما جالسان الى مائدة عليها بعض الأطعمة والأشربة.

فريد أفندي: ما أذكى هؤلاء الأتراك وما أدق معرفتهم بالفطنة السورية والأخلاق العربية فهم يعرفون في أي موضع من الجسم السوري توجد العلة فيهرقون عليها أعاصير احتيالهم وينثرون فوقها مساحيق ثعلبتهم.

أحمد بك: بحقك لا تدع التركي ذكيا بل قل هو السوري فتى ضائع أعمى يسير في ظلمة حالكة فإذا ما بدا له عن بعد ضوء مسرجة توهمه شمساً أو قمراً. لا ليس التركي بذكي ولكن هي حماقة السوري العربي التي تظهر كل حماقة سواها بمظهر المعرفة والذكاء.

فريد أفندي: اسمع يا صديقي. منذ عامين وزبدة الفكرة السورية تعلو فوق نار من التحمس، وتتمدد منبسطة على طبق من الحرية والاصلاح

والمبادىء السامية التي أوجدت جان جاك روسو وفولتير وبتريك هنري وغاريبالدي وغيرهم من الذين رفعوا للحرية انصاباً في صدور الغربيين. واليوم قد مد التركي ذراعه الطويلة وسكب فوق زبدة الفكرة السورية مزيجاً من ذلك المخدر السحري الذي كونته أدمغة ساسة العثمانيين منذ استهلال القرن التاسع عشر. ذلك المخدر الذي يبدو تارة بصورة الدبس وطوراً بهيأة القطران. واليوم إذا حاول أمهر الكيماويين استخراج تلك الزبدة السورية من بين الدبس والقطران التركيين لما استطاع الى ذلك سبيلا.

أحمد بك: يذكرني كلامك هذا بمقالة قرأتها لجبران خليل جبران في المخدرات والمباضع ولا أخالك سوى مبالغ مثل ذلك الكاتب الذي يرى الحالة الشرقية من وراء غيمة سوداء.

فريد أفندي: نعم أنا أرى رأي ذلك الكاتب السوري وقد كان زمن كنت فيه أظنه من المبالغين الذين لا يرون لليل الشرقي صباحاً ولا لشتاء سورية ربيعا اما الآن فقد صرت استصوبه وأتشبه به.

أحمد بك: لا تبالغ. بل دعنا ننظر الى الحالة الحاضرة نظرة الطبيب الى العليل أنت تنسب الذكاء الى التركي والحمرنة للسوري. أما أنا فأنسب البغلنة الى كلا العنصرين.

فريد أفندي: ماذا تعني بذلك؟

أحمد بك: أنا مسلم وشرقي باسلامي وقد عشت زمنا في أوروبا عرفت فيه عظمة الاسلام ومركز الاسلام من المدنية الحاضرة. ولما عدت الى بلادي وجدتني غريباً في وطني متشرداً بين أهلي وخلاني غير أني لم أتعام عن مجد الاسلام وأنا بين العميان من المسلمين. ولست بقانط من مستقبل الشرق وأنا بين المقعدين من الشرقيين. فالشرق حقيقة هائلة والاسلام حقيقة

عظيمة. أما البغلنة فهي في محاولة التركي لجم القوى العربية. وما القوى العربية من الاسلام الا بمنزلة القلب من الجسد. والبغلنة في اقتناع العربي المائت جوعا بمضغه من أذناب الفجل، بينما خبز الحياة يملأ السهول والأودية. ان استئثار التركي بالحكم يقرب التركي من الملاشاة والعدم. كما ان اقتناع السوري الوجيه المدعو مصلحا بوظيفة في مجلس الأعيان يدنيه على غير معرفة منه الى عشرين قدما مربعا من اسطبل الحمير الذي بناه ساسة العثمانيين لكل من يرفع رأسه الى الفضاء ويترك رجله غارقة في الماء. هذه هي فلسفة البغلنة.

فريد أفندي: والله لقد أعجبتني يا أحمد بك فانت متضلع بطبائع الدواب!

أحمد بك: نعم فهؤلاء قوم لا يمتازون عن الجمال والحمير والبغال. وعندما أفكر بذلك النسر الذي مد جناحيه في الماضي من البلاد الاندلسية الى قلب الصين، وأراه اليوم مكبلا بقيود طرقتها ايدي حمقاء العرب والاتراك، تضطرب نفسي في داخلي وتتهيج دقائق دماغي وأود لو بعث خالد بن الوليد من قبره ليحطم تلك القيود المتشبثة برجلي انبل نسر أوجده التاريخ.. المتشبثة برجلي الاسلام الذي أقام العلم واقعده، الذي أوجد مجد دمشق وبغداد والبصرة والقاهرة وغرناطة، الذي صيّر ابن العاص قائداً وأنبت ابن خلدون فيلسوفاً وأظهر المتنبي شاعراً.

فريد أفندي: أنا أقتنع بكل ما قلته يا أحمد بك. فالاسلام حقيقة هائلة. على الاسلام أن يبقى مجرداً عن الزوائد التي تسلب ما فيه من العزم والحياة.

أحمد بك: ان طبيعة الاسلام لا تقبل الزوايد. فالاسلام حقيقة مجردة

مطلقة. فإذا كان المسلمون يتعاملون وينصرفون عنه الى الزوايد فلا يكون ذلك ناتجاً عن أمراض معنوية في الاسلام (كما يتوهم بعض الغربيين) بل في المسلمين. ولا يسهو عن بالك ان الاسلام ليس بدين فقط كما يظن مستشرقو الانكليز بل هو دين وشريعة مدنية تضم تحت جناحيها الهائلين جميع حاجات الانسان في كل عصر. فالمسلم الحقيقي مع كونه متبعا لعاطفة روحية هو أيضاً فرد من مجموع مدني وحضارة فخمة.

فريد أفندي: أحسنت يا بك. والمسيحي يعزو كل ما عزوته للاسلام للمسيحية. فهو يعتبرها كدين روحي ويحسبها اساسا للمدنية الأوربية والاميركية.

أحمد بك: لكل امرىء تمام الحرية ان يفتكر ويقول ما يريده غير اني وجدت الحقيقة تدعم قول واحد وتتبرأ من قول الآخر.

فريد أفندي: ماذا تعني؟ هل تظن ان الحقيقة تتبرأ من أوروبي يقول ان المسيحية قد أوجدت المدنية الحاضرة؟

أحمد بك (يظل صامتا دقيقة ثم يقول مترددا): هل تظن ان الحقيقة تدعم قوما يجاهرون بتعليم في كنائسهم، وفي الوقت نفسه يضادون ذلك التعليم على خط مستقيم في معاهدهم السياسية، وفي وزاراتهم الحربية، بل وفي كل مكان ينبت فيه عملا مذكورا للافرنج؟ أنا أحترم المسيحية كدين. ولكنني لا أستطيع أن أوفق بين المسيحية وأعمال المسيحيين. وهذا هو الفرق بين المسيحية والاسلام. لأن الاسلام يعلم ويعمل بموجب تعاليمه. اما المسيحية فلا تفعل ذلك. المسيحي يحب اعداءه في الكنيسة. وعندما يخرج منها يفكر بالسبل الفعالة التي تفني اعداءه. المسيحي يمجد الفقر والمسكنة والوداعة عندما يكون جالساً أمام انجيله. ولكنه لا يضع

ذلك الكتاب جانباً حتى ينتصب مفاخراً بغناه مكابراً بجبرؤوته متشامخاً بغطرسته. المسيحي يلوي عنقه ويمد ذراعيه ويقول بصوت يضارع تنهدة العذراء (من ضربك على خدك الأيمن فحول له الايسر) ثم لا يلبث ان ينتفض كالأسد الجائع قائلاً: في كل ميناء من موانىء بلادي مدرعات مصفحة تحمل مدافع مزندة تحصد الأرواح حصدا. فمن يتجاسر ويلمس بالإهانة أطراف أثوابي يموت موتا مرا. المسيحي يقول منغما: لنكن مثل زنابق الحقل التي لا تغزل ولا تحيك ولكنها تعيش أمام وجه الشمس بمجد لم يره سليمان. ومع ذلك نرى المسيحي مفكرا بأدق الحيل التي تنقل الفضة والذهب من جيب قريبه الى جيبه. المسيحي يقول الدنيا لا شيء الآخرة كل شيء ولكنه يعيش للدنيا ولا يذكر الآخرة. نعم والله أنا أحترم المسيحية ولكنني أقول مع نيتشه: وجد مسيحي واحد وقد مات مصلوبا. وأقول مع جبران خليل جبران: لو عاد يسوع الناصري الى هذا العالم لمات جائعا منفردا غريبا. هذه هي المسيحية التي أعتبرها وهؤلاء هم المسيحيون الذين لا أستطيع أن أوفق بين تعاليمهم وأعمالهم(*).

(*) نشرها جان دايه في كتابه «عقيدة جبران» ص ٢٤٩ - ٢٥١، نقلاً عن وثائق جبران في مكتبة نورث كارولينا في الولايات المتحدة الأميركية.

٥ - ملك البلاد وراعي الغنم

الرواية التالية هي آخر ما كتبه جبران بالعربية. وقد أعدها «للسائح الممتاز» الذي كان سيظهر في أوائل سنة ١٩٣١. غير أن «السائح» سبق جبران ببضعة شهور الى «الدار الثانية». وعدده الممتاز لم يظهر. والرواية لم تنشر حتى الآن:

المكان - مرعى أخضر بين الهضاب في ظلال الأسد الصخري في شمالي لبنان.

الزمان - عصرية يوم من أواخر أيام الصيف.

الأشخاص - راعي الأغنام. الملك. ثم وزير الملك.

الراعي جالس في ظل الأسد الصخري ينظر بارتياح الى أغنامه وفي يده ناي ينفخ به بين الآونة والأخرى.

يأتي إذ ذاك الملك على صهوة جواده وينظر الى الراعي.



الملك: أراك مرتاحاً في ظلال هذه الصخرة، فما أشدّ سلاحك!

الراعي: ما أكثر فرحك في صهوة فرسك! على أنّني أراك متعوباً!

الملك: (ينظر حوله) - أتعلم مَن أنا؟

الراعي: لا، وهل تعلم أنت مَن أنا؟

الملك: (ضاحكاً) ـ لو عرفت من أنا لأغمي عليك وجلاً.

الراعي: (قابضاً على حفنة من تراب) ـ لو عرفت مَن أنا لمتّ فرحاً.

الملك: ما أكثر وقاحتك!

الراعي: ما أبلدك وأغلظك!

الملك: عليك أن تعلم مَن أنا لتعتبر.

الراعي: وعليك أن تعلم مَن أنا لترتعش خوفاً.

الملك: لو شئتُ الساعة لقتلتك بحدّ سيفي.

الراعي: ولو شئتُ أنا لقتلتُ سبعة رجال مثلك بعصاي.

الملك: (متردّداً) ـ أنا؟ أنا هو الملك.

الراعي: وأنا. أنا راعي هذا القطيع.

الملك: أمجنون أنت؟

الراعي: لم أقُل إنّني ملك هذه الأرض فكيف تدعوني مجنوناً؟

الملك: ألا تعلم أن الموت والحياة بين شفتيَّ؟

الراعي: إذاً أنت الذي قتلتَ جدّتي وأنت الذي أنعمت بمولود على جارة لي قبل أن تبلغ الخامسة عشرة من عمرها.

الملك: لا، لم أقتل جدّتك ولم أبعث بمولود إلى جارتك.

الراعي: إذاً لمَ تدّعي الملك؟ ولِمَ تقول لي إن الموت والحياة بين شفتيك؟

الملك: ماذا يا ترى تفعل لو رأيتني محاطاً بجندي؟

الراعي: أنت تراني الآن محاطاً بنعاجي ولا أراك تفعل أمراً معقولاً.

الملك: وماذا تقول لو رأيتني جالساً على عرشي؟

الراعي: هأنذا أسند ظهري الى هذه الصخرة وللآن لم أسمع كلمة حسنة منك!

الملك: (متضجراً) - إنّا لله وإنّا إليه راجعون. أتعلم يا رجل معنى كلمة ملك؟

الراعي: نحن الله! ونحن المعاد والمرجع! أتعلم يا رجل معنى كلمة راعٍ وغنم؟

الملك: أتعلم معنى قولنا: قائد. زعيم. عميد. سلطان؟

الراعي: (متمثلاً التضجر) - أتعلم معنى قولنا: قائد أغنام. زعيم فحول. رئيس حملان - عميد القطيع؟

الملك: أتعلم معنى قولنا: بلاد. مملكة. حكومة. شرائع. جرائم. عقوبات؟

الراعي: أتعلم معنى قولنا: مراعي. أودية. سهول. موارد. حظائر؟

الملك: يبدو لي أنّك لست من البشر.

الراعي: لا، لست من البشر إذا كنت أنت منهم. (في هذه الدقيقة يترجل الملك ويقترب من الراعي وفي حركاته شيء من التهديد)

الملك: أنا هو الملك. وكلّ ملك والد لكلّ فرد من رعيته، وكوالد عليّ أن أهذّبك وأنير ظلمتك وسأهذّبك الآن بالقوّة.

الراعي: ما أحمقك يا رجل! وما أكثر دعواك! لو كان بإمكانك تهذيبي وإنارة ظلمتي لما فعلت. الا رُحْ في سبيلك يا هـذا رحْ وابحث عمّن يهذّبك ويُنير ظلمتك، ثمّ عد إليّ فإن وجدتك كفؤاً لتكون أحد رعاياي سيّرتك الى المراعي الخصبة والى المناهل العذبة.

الملك: (متجلّداً) ـ اعلم أن الأرض متجزّئة الى ممالك ولكلّ مملكة دستور.

الراعي: (يقاطعه) ـ نعم، والممالك والدساتير متدليات من الدماغ. ودماغكم ضعيف وهو مقسوم الى طائفات متبوعة وتابعة تسوس بالدعوى وتساس بالهوان.

الملك: اعلم أن الناس هم حاكمون ومحكومون، فالمتبـوع يسوس والتابع يؤدي الجزية.

الراعي: يا الله! ترى بين الناس من يدفع ضريبة ليسمع السخافة تتكلّم ويرى الشناعة تتبرّج وتترقص؟

الملك: إن الناس يدفعون الثمن للعقول الراجحة التي تدير شؤونهم وتهديهم إلى السبيل القويم.

الراعي: إذاً أنت مديون لي بنصف ما في الأرض، لأنّني رغم غباوتك وتضجري منك فقد هديتك السبيل القويم.

الملك: واعلم أن لكلّ مملكة شرائع بعضها منزل والبعض اتفق عليه أمراء الشعب وشيوخه، فمن يقف عليها يصان ومن لا يتبعها يعاقب ويهان.

الراعي: يلوح لي أن شرائعكم المنزلة وغير المنزلة ثرثرة ألغتها الملائكة ولكنّكم للآن لا تعرفون. ولو عرف الناس لشنقوك أو سجنوك حتى الحشرجة.

الملك: واعلم يا ولدي الجاهل أن الفيلسوف وراعي الغنم سيّان أمام تلك الشرائع.

الراعي: واعلم يا جدّي المحنط أن الملك والخنفساء سيّان أمام وجه الشمس.

الملك: (متجلّداً) - واعلم أن لكلّ مملكة جنوداً وقوّاداً يغزون ويهاجمون أعداء المملكة الأخرى عند الحاجة ويدافعون عندما تهاجمهم جنود المملكة المجاورة.

الراعي: (يضحك حتى يستلقي على ظهره) - عندما تغزو جنود سيدي الملك وأعوان سيّدي المملكة المجاورة بحق أو بغير حق أنا أعلم الناس بماذا يفعل سيّدي الملك وأعوان سيّدي الملك وأين يكون مركزهم من الجيش.

الملك: أقول لك إن حدّ السيف نصيب الأعداء.

الراعي: نعم، سيف الأكثرية الجاهلة على عنق الفرد الأوحد. يا لها من جبانة! ألم أقل مرّة إن الأكثرية والجبانة توأمان؟ ألم أقل ذلك مرّة؟

الملك: (غاضباً) - الأكثرية الجاهلة! الفرد الأوحد! ماذا تقول يا رجل؟ إن ما تقوله سوف يقودك الى مكان يوعز إليك بألفاظ غير هذه الألفاظ وسوف تندم، سوف تندم وسوف تبكي بكاء مرّاً.

الراعي: (ضاحكاً) - نعم سوف أندم على هذيانك. وسوف أبكي ولكن على بلادتك. سوف أندم وسوف أبكي لأن ملك هذه البلاد هو جرذون أعرج.

(في هذه اللحظة يمتشق الملك سيفه أمّا الراعي فيظلّ جالساً ولكنّه يتمسّك بعصاه ويقول ضاحكاً).

الراعي: أضرب يا بليد! لا ولن أضرب أوّلاً، ومن يقاتلني ليس بأحسن من جرذون متوّج.

الملك: (يقف) ـ أنت نكتة جديدة وقد تلهينا بلقياك. يجب أن نذهب.

الراعي: أنت مهزأة عتيقة ـ غير أنّنا لم نسرّ بمرآك. اذهب ولا ترجع.

الملك: (مبتسماً) ـ قل لي ماذا تفعل ههنا سوى رعاية هذه الأغنام

الراعي: أرى أنّك ترغب في الحديث؟ أنا لا أفعل شيئاً سوى أنّي أجلس في الشمس، على أنّني بين الآونة والأخرى أنظر الى قطيعي، ولكن لا أكتمك يا بليدي أن كلّ نعجة من هذا القطيع ترفع رأسها من وقت لآخر لترى ما إذا كنت أنا ههنا أم لا. هذا كلّ ما أفعله في هذا المكان. ولكن قل لي إذا كنت من القائلين الشجعان ماذا أنت من الفاعلين؟

الملك: ألم أقل لك إنّني ملك هذه الأرض؟

الراعي: ليس فيك من الملوكيّة أكثر من هذه الصخرة الغريبة الشكل لقد تفرّستك فلم أجد فيك سوى البلادة المتحدّرة من البلادة ـ (مشيراً الى القطيع) ـ أترى ذلك الكبش ـ الكبش ذا القرنين الكبيرين؟ أقول لك إنّه ليس من كباشي الحسنة ولكن له عادة غريبة وهي أنّه يهزّ رأسه كلّ صباح مطوحاً نحو الفضاء. لذلك فهو لا يسير إلاّ وسارت الأغنام والكباش معاً وراءه. في قطيعي فحول أكبر منه جثّة ذوو قرون أضخم وأفخم ولكنّهم لا يقودون القطيع لشرف في طبيعتهم ولإعراض عن شرف القيادة وقد يحسبون القيادة شكلاً من الصغارة.

الملك: لا يشبّه الملك بالكبش سوى الجاهل الأحمق الذي لا يعرف ما

يقول ويقول ما لا يعرف، ويجب علينا أن نغفر للجاهل الأحمق لأنّه لا يدري ما يقول، والأقوال والأعمال بالنيّات، وأنت لا تعرف كيف تخاطب الأمراء والسلاطين، وعلى الملك والأمراء أن يتفهّموا ذلك ويكونوا صابرين.

الراعي: أقول لك يا ولدي الصغير إنّني عندما شبّهتك بالكبش ظننتني مطرياً مادحاً إيّاك أكثر ممّا تستحقّ، ولكن ما العمل وأنت من أولئك الذين لا يميّزون بين الإطراء والهجاء!

الملك: (ناظراً الى الراعي نظرة طويلة جدية) ـ لست بالأبله أيّها الرجل. لا لست بالأبله كما ظننت. أنت تمتهننا بمعرفة ولكن لن أُدنّس يدي بدمك. يجب أن تُقتل ولكن بسيف رجل من طبقتك.

الراعي: (يضحك ضحكاً عالياً) ـ بيد رجل من طبقتي؟ بيد رجل من طبقتي؟ ألا تعلم يا بليد أنّك لو بحثت في كلّ قرنة من مملكتك المسروقة المزيفة لما وجدت رجلاً من طبقتي؟ قلت مملكتك المسروقة المزيّفة فهل فهمتني؟

الملك: (يكفهر وجهه وتظهر على ملامحه أمارات الخوف ثمّ يمثل دور الغضب ثمّ يستلّ سيفه ويصرخ قائلاً) ـ قم ودافع عن نفسك فإنّي قاتلك لا محالة.

الراعي: (يتناول عصاه بدون أن يتزحزح من مكانه ويقول) ـ عصاي بسيفك يا شجاع.

الملك: (يضرب الراعي بسيفه والراعي لا يزال جالساً) ـ خذها أيّها الحقير الملعون.

الراعي: (يلاقي السيف بعصاه ولكن بحركة كأنّها سحريّة يقذف بها السيف من يد الملك ثمّ يقول) - اذهب والتقط سيفك وعد الى عصاي مرّة ثانية.

الملك: (يذهب ويلتقط السيف ويمشي نحو الراعي ببطء) - ألم تقل إنّي سرقت مملكتي؟ ألم تقل هذا؟ (يضرب ثانية فيلاقي الراعي ضربته بنكتة من عصاه كأنّه قطة فارسيّة تلاعب فأراً) لماذا لا تقف أيّها الشيطان؟ أنت بدون شك من الأبالسة. لماذا لا تقف؟

الراعي: قاتلني وأنا جالس يا صغيري اللطيف قبل أن تناضلني واقفاً. أليس في جلوسي الكفاية؟

الملك: (يضرب ثالثة والراعي بعصاه سيف الملك الى مسافة بعيدة).

الراعي: اذهب والتقط حديدك يا صاحب الجلالة.

الملك: (يلتقط السيف ويعود على مهل مع شيء من الخوف كأنّه يرى في الراعي ساحراً ثمّ يقول) - سوف أقتلك جنّياً كنت أم بشراً.

الراعي: (يضحك) - أنت لا تستطيع أن تقتل ذبابة. أنت المنتشل من جيوب الغد وأنت المنتصب واقفاً وأنا الجالس قاعداً تأتيني بسيف وأنا أقابلك بعصا. تعالَ واضرب يا أشجع الشجعان.

(بينما الملك يحاول أن يضرب والراعي ينظر اليه ضاحكاً يسمع صوت «يا هو!.. يا هو!.. يا هو!..» فيقف الملك مصغياً)

الراعي: هنالك رجل يناديك باسمك. أشكر الله أن اسمي ليس «يا هو!.. يا هو!...»

الملك: (مجاوباً) - يا هو!.. يا هو!..

الراعي: ألا اسمعوا الملوك والعبيد ينادون بعضهم بعضاً باسم واحد وبذات النغمة السقيمة القديمة.

(يُسمع وقع خطوات. الملك يعيد سيفه الى غلافه ويقف إلى جانب فرسه ممثلاً الطمأنينة لأن جلالته لا يرغب في أن يظهر مبارزاً إلاّ الملوكَ. في هذه الدقيقة يجيء الوزير مدججاً بكلّ أشكال وآلات الصيد ويقف هنيهة مبغوتاً ثمّ يحدّق الى وجه الراعي وعندما يتبيّنه جليّاً يخضع له على ركبتيه قائلاً):

«يا أميري. يا أميري. أنت لم تزل حيّاً؟»

الراعي: (ينظر الى الوزير مبتسماً) ـ هو ذا صديقي القديم الذي كان يلعب لي دور الحصان المطهم في دار جدّي. فيركبني ظهره فيقفز ويمرح ويتبختر ويصهل ويصيح. انظروه الآن حاملاً سلاح ملك البلاد. لماذا لا، كلّنا يترقّى ويتطوّر، ذلك إذا كان يفكر بذلك. ولكن أشكّ في ارتقاء هذا الرجل الذي يدعو نفسه ملكاً.

الوزير: (للراعي) ـ يا مولاي، إنّها لأكبر فرصة أن أراك ثانية.

الراعي: لا تتلفّظ بهذه الكلمات بصوت عالٍ فقد يسمعك جلالة الملك.

الملك: (للوزير) ـ من هو هذا الرجل الوقح الذي تخضع أمامه وتنحني لديه وتسلم عليه بالإمارة؟ من هو يا ترى هذا الصعلوك المتجبّر؟

الوزير: هو سيّدي ضاهر السعدي واحد من الثلاثة الأمراء السعديّين وهم ما بقي من أوراق ذلك الغصن من تلك الشجرة القديمة. واسمع يا مليكي. تأمّله الآن يرعى قطيعاً من الغنم وأخوه في وادي العاصي يحرث الأرض وأخوه الثالث قد بنى معملاً للأنوال في سفح هذا الجبل ليحوك القطن والكتّان.

الراعي: (هازاً رأسه) ـ إذاً نحن لم نزل الملوك. اتركوني وشأني وسامحوني(★).

(★) جبران خليل جبران، ميخائيل نعيمة، مؤسسة نوفل، بيروت، ط۸، ۱۹۷۸، ص ۳۰۵ ـ ۳۱٤.

٦ - الأعمى

الشخصيات:

داود رجبي: موسيقي أعمى (عمره في حدود الثلاثين).

هيلانة: زوجة داود (عمرها ينوف على الأربعين).

آنا: ابنة هيلانة (من زوج سابق).

كينغدون: فلاح قادم من الحقول.

المكان: غرفة جلوس ومكتبة في الطابق الأرضي من منزل داود.

الوقت: نحو الساعة الحادية عشرة من احدى ليالي كانون الثاني (يناير) عاصفة ثلجية تزمجر في الخارج.

★ ★ ★

حيث ترتفع الستارة، يمر المجنون عبر الممر الرئيسي ثم يصعد الى خشبة المسرح، ويجلس على كرسي، قرب المدفأة. ثم يظهر كل من آنا وداود جالسين على أريكة. آنا تقرأ لداود، احدى القصائد، بصوت مسموع مرتفع. حين تفرغ من قراءة القصيدة، تقول:

آنا: لا أحسن يا والدي، أن أقرأ القصيدة، كما تفعل أنت. فلكم تبدو القصيدة رائعة، حين تقرأها على مسمعي.

(يكرر داود قراءة المقطعين أو المقاطع الثلاثة الأخيرة من القصيدة. ثم يسود صمت عميق، فيما يسمع، من الخارج، هدير عصف الرياح) هل تريدني أن أقرأ على مسمعك، يا والدي، قصيدة أخرى؟

داود: لا يا عزيزتي . يكفي ما قد قرأته لي، في هذه الليلة. إنك منهكة حتماً، الآن.

آنا: كلا، لست منهكة. ولا أرغب أبداً أن أشعر بالضنك، خصوصاً حين أتلو على مسمعك ما أقرأه. أرجو أن تسمح لي بالمكوث هنا، مدة أطول.

(يخرج داود ساعة جيبه. يتلمس ميناءها بأصابعه).

داود: الوقت متأخر الآن، أكثر مما تظنين يا صغيرتي، انهضي الى فراشك قبل أن تغضب أمك، منك ومني.

آنا: أمي لا تزال تعاملني كأنني طفلة. انها لا تدرك انني اجايلها الآن. آه كم أتمنى لو كان في مقدورها أن تدرك الأمور بشكل أفضل.

داود (متأملاً): وهل مثل هذا الأمر ينطبق على والدك أيضاً؟

آنا: كلا. إنك تدرك الأمور بشكل عظيم، يا والدي.

داود: أتمنى لو كنت، حقاً، والدك.

المجنون: إنها تسميه «والدها» على رغم انه طفل قلبها. فالرجل، بل ان كل رجل إنما هو طفل المرأة التي تحبه.

آنا (تعانقه): لكن، أنت أبي. أرجوك. قل انك أبي. إذ كنت لا أزال طفلة صغيرة حين تزوجت أمي، كما اني لا أذكر شيئاً عن زوجها السابق أي والدي الآخر.

داود (يتوق الى شيء، لا يأمل الحصول عليه)

أجل يا عزيزتي، الرجل الأعمى في حاجة الى ابنة من ضلعه، لكي ترعاه، تقرأ له حين تهن أنامله من تحسس الحروف البارزة ويكلّ الظلام عينيه، يستبدّ بهما كيفما شاء.

آنا: أنا واثقة من أنّك لم تقل هذا الكلام لإيذاء مشاعري، لا سيما انك تدرك مقدار حبي العميق لك. حبي الذي يفوق حب أي مخلوق آخر، في هذا العالم. وتدرك أيضاً كم أجلك. فمنزلتك في قلبي منزلة السيد. لن أتخلى عنك أبداً ما دمت أرزق حيّة. هل تذكر يا أبي ما بعث السعادة في قلبينا، في الصيف الماضي؟

انها القصيدة التي تقول:

«إنك بالرب، طفل قلبي

انك طفل روحي.

ورغم انك لست من جسدي.

ولكن في عروقك تسري أنفاس،

يفوق ثمنها ثمن اللآلىء».

أتذكر تلك القصيدة يا أبي؟

داود: بكل تأكيد... أذكر جيداً.

(فترة صمت)

كما أدرك مقـدار حبك لي يا عزيزتي. أدرك انك انما تحبيني لأنني أعمى لا يبصر، ولأنني في حاجة اليك..

آنا: (صارخة)

كلا يا أبي. أنا أحبك لأنني في حاجة اليك، ولأنك الوحيد المبصر من البشر، في هذا العالم.

المجنون: حين يلتقي نسر السماء مع دودة الأرض، ويتجاذبان أطراف الحديث، يسأل احدهمـا الآخر عما أبصره...يظن كل واحد منهما أن الآخر ليس سوى أعمى لا يبصر...

داود: فلتباركك السماء...

(برهة من الوقت)

فلنكف الآن عن الكلام، لأن الوقت متأخر.. هيا با بنيتي.. أريني وجهك!!

(تجلس آنا على الأرض.. ترفع رأسها الى أعلى اتجاهه، يتحسس داود وجهها برفق ولين، ويتملاه بأنامله الحساسة)

هل تدرين يا آنا، ان عيني لم تعد تريا، بعد أن عميتا، سوى وجهك!! إنه الوجه الوحيد الذي أراه عبر أناملي، كم هو رائع وجميل.

(يسرح شعرها بأنامله)

وشعرك أيضاً يا آنا، رائع وغزير وناعم ومسرف بلونه الذهبي. اني أبصره ذهبياً كثيفاً لألاء..

(يلوذان للحظة بالصمت، فيما تستريح يد داود على شلال شعرها المتألق).

آنا: أود أن اسرّ لك شيئاً ما. اصغ الي، يا أبي، أرجوك.

داود: كلي آذان صاغية.. يا بنيتي!!

آنا: هل تدري!! أخذت كتبك ذات الحروف البارزة الى غرفتي. تعلمت منها كثيراً. حتى صار بامكاني أن أقرأ الآن، كما تقرأ أنت، في الظلام.. لا تخبر أمي.. أرجوك.. انها لا تدرك مغزى ما قمت به.. كم أود أن أشعر وأحس، كما تشعر أنت وتحس.. أود أن أصبح مثلك تماماً.. وأن أحيا في عالمك الخاص أعتقد بأنك لا تمانع بأن ألج عالمك الخاص..

(فترة صمت)
(كان وقع هذه الكلمات في نفس داود عظيماً. ومؤثراً..)

أأستزيدك يا أبي!!

داود: (يغطي وجهه بيديه) أجل.. مزيداً.. مزيداً..

آنا: في ذلك اليوم.. يوم عيد ميلاد رفيقتي باربارة، التي أقامت لنا، أنا وست من أترابي - حفلة خاصة في هذه المناسبة.. في ذلك اليوم.. لقد نسيت أن أذكر لك يا أبي أنها - أي باربارة - تهيم حباً بموسيقاك.

في ذلك اليوم، ونحن نحتفل بعيد ميلادها.. ونلعب معاً..، لعبنا شتى أنواع اللعب، وأنت تعرف، أية ألعاب تلعبها الفتيات في مثل هذه المناسبات.. في تلك الأثناء، جالت في ذهني فكرة ابتدعت لعبة جديدة. في واقع الأمر لم تكن لعبة.. بل كانت.. أشبه.. ما تكون بالصلاة..

(مترددة)

داود: أكملي قصتك يا آنا..

آنا: عصبت عيني.. طلبت من رفيقاتي الاقتراب مني، واحدة تلو الأخرى، ويجلسن بقربي. تماماً كما أفعل أنا الآن، جالسة هنا بقربك. فامتثلن، بالطبع لطلبي.. وجلسن بقربي، صامتات.. وفي كل مرة، كانت تأتي الي احدى الرفيقات، كنت أتحسس وجهها بأناملي.. أبدأ بجبينها ثم عينيها وخدّها وفمها وذقنها.. ثم أحزر في الحال من تكون. لم أخطىء ولا مرة واحدة..

داود: آه.. يا حبّة قلبي!!

آنا: لم يقتصر الأمر على هذا، بل حصل ما هو أروع منه بكثير. كان الفرح العظيم يدق جنبات قلبي كلما رحت ألامس وجوههن في الظلام.. (يشع من وجهها ألق نوراني غريب)

لم أشعر من قبل، بأنني في مثل هذه الرقة والحب والحنان. غدوت أحب أترابي أضعافاً مضاعفة عن ذي قبل. وشعرت أن أترابي يحببنني بدورهنّ أضعافاً مضاعفة عن ذي قبل. كم كان ذلك رائعاً ومحبّباً الى قلبي. وكم كان غريباً في الوقت نفسه.

(فترة صمت)

في ذلك المساء.. أدركت للمرة الأولى، كم أنت رائع يا أبي.. أنبأني حدسي أن أترابي يعرفنك حق المعرفة.. ويحببنك وحين نزعت العصابة عن عيني.. حدقت في وجوههن، فبَدوْن لي مختلفات تمام الاختلاف.. لم نعد نواصل اللعب، بل جلسنا نتسامر في هدوء. كنا أشبه ما نكون سبع أخوات، رغبت كل واحدة منا أن تكون أم الأخريات..

داود: (يأخذ يدها، بعد فترة من الصمت، ويقبلها)

آنا: (تنهض من مكانها وتجلس قربه)

لقد كرّمني الله ـ جل جلاله ـ حين أسلمني اليك..

داود: (يقبل جبينها، ثم يمسك بيدها، ويمسح عينيه بأطراف أناملها) يا آنا الصغيرة.. يا محبوبتي..

(يجلسان وقد لفهما الصمت تدخل هيلانة)

تنظر اليهما، لحظة بقلق وغيظ.. تحاول، أن تبدو هادئة.. تسير عبر الغرفة ثم تستدير نحوهما وترميهما بنظرة أو نظرتين)

آنا: ها انك هنا يا أمي!!

هيلانة: (بغلظة) أجل.. أنا هنا.

داود: أما زال الثلج يهطل.

هيلانة: بل هناك، في الخارج، عاصفة ثلجية مريعة.. إذا استمر هطول الثلوج طوال الليل، فلن يكون في وسعنا الخروج غداً، من المنزل..

المجنون: عاصفة ثلجية حقاً.. لكنها عاصفة مأمونة.. سوف تأتي على أغصان الأشجار النخرة، ويتوارى في أحشائها كل ما هو ميت، بلا روح..

(تتقدم هيلانة نحو النافذة.. تحدق في الخارج.. تستدير ثانية نحوهما وتحدق في وجهيهما).

(بنفاذ صبر)

داود: تمنحني العاصفة الثلجية حالة خاصة، أستطيع أن أدرك بها، مغزى الصمت.. كما أنها تمنحني قدرة عجيبة أستطيع أن أسمع، عبرها الهمسات بوضوح تام.. مع هطول الثلوج..

هيلانة: كم مرة رددت مثل هذا الكلام.. وكم يغيظني حديثك هذا كلما أسمعك تردده..

آنا: كيف تتجرأين يا أمي؟ يمنح الثلج المرء حالة خاصة يستطيع أن يدرك، عبرها، مغزى الصمت..

هيلانة: (موجهة حديثها الى آنا) توقفي عن لغوك.. إنك ترددين مثل هذا الكلام، لكي يقال عنك انك ذكية.. ليست الببغاوات على شيء من الذكاء..

(فترة صمت)

حسناً.. لنبحث الأمر هنا. والآن.. من الأفضل لك أن تذهبي إلى فراشك.. أنا سأعالج المدفأة.

داود: لم أدر أنّ الوقت متأخر الى هذا الحدّ.. كانت تقرأ لي (آنا) بعض القصائد، فلم نشعر بمرور الوقت..

(يلتفت الى آنا.. يضع يده على رأسها)

اذهبي الى فراشك أيتها العزيزة.. نوماً هادئاً وأحلاماً جميلة..

أنا أيضاً سأذهب في الحال الى فراشي

(تنهض آنا من مكانها.. تسير في اتجاهه بتؤدة.. تقبل جبينه)

آنا: تصبح على خير يا أبي..

(تلتفت الى ناحية أمها، وتودعها بصوت مغاير)

آنا: تصبحين على خير يا أمي..

هيلانة: (ببرود) تصبحين على خير يا آنا

(تصعد آنا درجات الطابق العلوي ببطء، تلتفت خلفها مرة أو مرتين.. تتملى وجه داود الذي كان أدار وجهه نحوها، الى أعلى.. يتابع خطواتها بعينيه العمياوين، فيما تذرع هيلانة أرض الغرفة، جيئة وذهاباً بقلق ظاهر)

يا لها من عاصفة هوجاء

(فترة صمت)

داود: يبدو عليك أنك في غاية التوتر والعصبية في هذه الليلة. أليس كذلك يا هيلانة؟ أراك تذرعين أرض الغرفة جيئة وذهاباً بشكل مثير وغريب!!

(تتوقف فجأة.. ولا تبدي حراكاً) لا لست عصبية..بل هادئة ألا تحس كم أنا هادئة.. أنت الذي تقول إنك تسمع كل شيء في وضوح..

داود: (في هدوء) لا.. ليس كلّ شيء.. أستطيع أن أسمع بعض الهمسات فقط، في العتمة.. بعض الهمسات لا أكثر!!

المجنون: ما الذي يستحقه المرء لكي يسمع غير الهمسات.. فقط الهمسات التي تلتقطها الأذن..

(ينهض داود من مكانه.. يستدير في هدوء باتجاه الدرجات. تبدي هيلانة ارتياحها، باشارة من إحدى يديها وذراعيها.. يصعد داود درجات الطابق الأول، ببطء)

تصبحين على خير يا هيلانة، تصبح على خير يا داود (بنبرة ذات مغزى).

آمل أن تنام ملء جفنيك..

المجنون: أنّى للمرء أن ينام! في ليلة تغشيها المخاوف والقلق. كيف

لمن يقبع بين فكي بركان متفجر، أن يستسلم لسلطان النوم في سلام! من في وسعه أن يغمض عينيه، فيما الأشواك، تنبت فوق جفنيه!

(بعد أن يتوارى داود عن الأنظار، تصعّد هيلانة زفرة ارتياح، ثم تتجه نحو النافذة، تفتحها على مصراعيها، ثم تحدق الى الخارج متقية وجهها بيدها، من رذاذ الثلج.. وحين لا تلمح في الخارج أحداً، تعود وتغلق النافذة ثم تنظر الى ساعتها وتخاطب نفسها: لم يقترب الوقت بعد من الثانية عشرة. (تعود لتذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً..)

المجنون: غذي السير.. يا سيدتي: حتماً ستبلغين مكاناً ما أبعد بكثير من هذا المكان، حتماً ستبلغين مكاناً آخر، غير هذا المكان.

(تدق الساعة الثانية عشرة ليلاً.. تشعل هيلانة في الحال ثلاث شمعات، تضعها على الطاولة قريباً من النافذة)

(ترمي ببصرها، عبر العاصفة، إلى المنارة التي ترشد السفن التائهة)

(لحظة صمت عميقة)

(تصغي هيلانة إلى أكثر الأصوات خفوتاً.. تسمّر عينيها في الباب..) يـا لها من عاصفة هوجاء

(فترة صمت)

يفتح الباب الخارجي ببطء وهدوء تامين، ثم يفتح الباب الداخلي..

يدخل كينغـدونّ وقد غشاه الثلج.. تهرع اليه هيلانة..

هيلانة: آه.. يا عزيزي!!

كينغـدون: (بصوت خفيض) بقيت أنتظر هناك لفترة طويلة، حسبت

أن منتصف الليل لن يأتي أبداً.

(يخرج الى الدهليز.. يخلع معطفه وشاله وقبعته)

كنت مدفوناً حتى نصفي في الثلج.. خلت أن الصباح قد ينبلج، قبل تمكني من رؤية اشتعال هذه الشمعات على النافذة

هيلانة: (تقوده الى الأريكة ثم تجلس الى جانبه)

تخيل الورطة التي وقعت فيها يا حبيبي.. أنت في الخارج، في العاصفة، وأنا هنا، مع هذين المخلوقين الغريبين! لم أعد أحتمل مثل هذا العذاب.. أجل.. لم أعد أحتمل كل هذا العذاب يا كينغدون

كينغدون: اخفضي صوتك. قد يسمعـان حديثنا.. اهمسي همساً.

هيلانة: (تتذكر كلام داود عن الهمس.. تستمر في حديثها بصوت خفيض).

لم أعد أحسن الهمس.. ولا أريد أن أهمس بل أرغب في التحدث بصوت مرتفع.. وأن أصرخ.. قد أختنق إن لم أصرخ.

كينغدون: انني أدرك مما تعانيه.. أدرك ذلك جيداً.. ولكن عليك، رغم ذلك أن تلوذي بالصبر..

هيلانة: الصبر.. الصبر.. لكم يشبه الصبر هلام البحر.. انه هلام بارد، لا حياة فيه ولا نفس.. ثم مع من تريدني أن أصبر؟ كفى أرجوك.. كفى..

كينغدون: ما في وسعنا أن نفعله.. أكثر من ذلك؟

(ينتصب واقفاً ويتحدث بانفعال)

لم الانتظار؟ وما الهدف من ذلك؟ انك تتجاهلين، بكل بساطة، ما أنا فيه!!

هيلانة: (تفرك يديها بانفعال شديد)

أصغ، الآن، لما سأقوله لك.. أنا أحيا في منزل أعمى.. كل ما في داخله أعمى. حتى ابنتي - وهي من جسدي - غدت عمياء. انها تقلده. تفعل ما يفعله بالضبط تدور حول البيت. تتحسس بيديها الأرائك والكراسي، كما لو انها فعلاً عمياء لا تبصر ثم تتحدث مثل العميان. يبدو لي، صوتها - في بعض الأحيان، كأنه قادم من عمق الظلام. وحين تكون معه، لا تحدث عن الأشكال، أو ألوانها.. بل عن الأنغام والألحان وحواس الشم واللمس والحدس

(تحاكي أسلوب آنا في التحدث)

كم غدوت أمقتها.. بل كم أمقتهما. وأمقت العالم الذي يعيشان فيه. ابداً، انه ليس عالماً، بل ضباب. وليست مثل هذه الحياة سوى أحلام قاتمة وخيالات زائفة لا حقائق ثابتة.

ولم أعد أحتمل - ولو ليوم واحد - مثل هذا العذاب الذي من شأنه أن يدفعني الى الجنون.

(تلتفت اليه وتطوق عنقه، بذراعيها)

خذني معك يا كينغدون أخرجني من هذا الديجور. أعتقني من سجني.

كينغدون: أنّى لي أن أقدر! ليس في وسعي أن أخرجك من هذا المكان يا هيلانة ثم الى أين يمكننا أن نذهب؟ انتظري. ليس في وسعنا أن نهرب. وإذا هربنا فماذا سيقول الناس عنا؟

هيلانة: لم الاهتمام بأقاويلهم؟ لم تعد أقوال أحد منهم تهمني. ما يهمني سعادتي.. وسعادتك فقط وهيامنا. قل لي، ما يمكن أن يقوله الناس عنـا؟ هل يقولون هيلانة رجبي؟ تخلت عن المسؤولية العمياء الملقاة على عاتقها؟ حسناً.

وأنا سأقول: تخلت هيلانة رجبي عن زوجها داود. لأنه بدوره تخلى عنها، مكرساً ولاءه وحياته لابنتها آنا.

المجنون: كم مرة، خرجت من هذا البيت يا سيدتي الجميلة؟ وكم مرة تظاهرت أنك في داخله، وبين جدرانه؟

كينغدون: قد يقولون أشياء أخرى كثيرة. قد يقولون على سبيل المثال، أن الفتوة والشباب استهوت هيلانة فراحت تبحث عنها. ما أعظمه من خطأ. حين تبحث المرأة عن رجل يصغرها كثيراً. أو حين تعمل ما في وسعها للتقرب منه.

(فجأة يتوقف عن الحديث ثم يكمل)

سامحيني يا هيلانة.. اني أردد ما يقوله الناس عنا فقط.

هيلانة: (تنتصب بأنفة)

أواه يا الهي كيف تتجرأ وتتحدث هكذا؟ بل أشعر اني أصغرهن جميعاً. أصغر حتى من ابنتي. بل لعلها طاعنة طاعنة. كلاهما طاعن. ويشبهان شخصيتين من رواية عشيقة. يتحركان معاً على ايقاع أسطر الرواية، لا في أرجاء المنزل. يتحركان ببطء ويتحدثان ببطء. وكل ما يأتيان به من أعمال، يأتيان ببطء شديد يدل على الهرم. أواه كينغدون لم تدرك حتى الآن كما أنا صغيرة؟ أظن أنك تدرك ذلك جيداً، لما يعتمل في داخلي من حرارة.

كينغدون: (ينهض من مكانه ويحتضن هيلانة)

أجل. أدرك ذلك كل الادراك. كنت فقط.. بل.. لم أرد أن أكون سبباً في شقاء أحد وكلانا لا يريد فوق أي اعتبار أن تنال من سمعته أي فضيحة كدت أفكر فقط ب..

(يتوقف فجأة عن الكلام، ثم يصغي.. ينظر أحدهما إلى الآخر.. يستطرد هامساً)

هل تسمعين وقع خطوات؟

(ينهض واقفاً، في صمت، بلا حراك.. يسمع وقع خطوات على أرضية الطابق العلوي.. يزداد ارتفاع صوت الخطوات شيئاً فشيئاً)

هيلانة: (تهمس.. ثم تضع يدها على فم كينغدون تشير عليه بأن ينتقل الى زاوية الغرفة، قرب رفوف الكتب.. انه.. داود الأعمى! (يسير كينغدون على رؤوس أصابع رجليه، تتحرك خطوات داود باتجاه أولى درجات الطابق العلوي.. تقف هيلانة في وسط الغرفة وهي في أشد حالات حنقها وتحديها. يظهر داود في أعلى الدرج، ويبدأ بالهبوط الى الطابق الأرضي، بتثاقل وبطء. يبدو بوضوح أن كل خطوة كان يخطوها، إنما كانت عاملاً يوتر ويشد أعصاب هيلانة.. للحظة واحدة يتوقف داود عن الهبوط بعد أن يكون قد نزل ست أو سبع درجات).

داود: هل أنت هناك يا هيلانة.. ألست هناك؟

هيلانة: نعم... أنا هنا، عم تبحث؟ ولم أنت هنا في هذه الساعة المتأخرة؟

(يكمل داود الهبوط حتى يصل الى نهاية الدرج)

فترة صمت

داود: أتيت الى هنا (كأنه يخاطب نفسه) لم أتيت الى هنا؟

(يرفع يده الى جبينه ويتحسسه)

آه، أجل.. أجل تذكرت لم أتيت الى هنا..

(يتقدم بضع خطوات نحو المكتبة، ويتوقف فجأة، كأنه عمد الى تغيير رأيه.. ثم يتقدم نحو الأريكة التي يجلس عليها كينغدون.. يتحسسها بيده الرقيقة، محاولاً أن يعثر على شيء ما ضائع منه).

هيلانة: (بحنق وبصوت مرتجف)

عمّ تبحث يا داود؟ ولم أتيت الى هنا؟ قل لي، ما الذي تريده؟ هل بامكاني تقديم أي مساعدة اليك؟

داود: (لا يزال يتحسس جوانب الأريكة).. لا.. لا تستطيعين تقديم أي عون الي.

(ينهض.. وللحظة واحدة، يضع يده على عينيه.. وحين يعيدها الى وضعها السابق، يظهر على صفحة عينيه الكبيرتين العمياوين تعبير آخر جديد) هل نحن هنا، في هذه الغرفة، وحدنا؟ هل أنت وأنا وحدنا في هذا المكان؟

هيلانة: أجل، اننا وحدنا.. ماذا تعني؟

ما أغرب هذا الأمر. تبدو لي الأشياء هنا غريبة.

هيلانة: ما وجه الغرابة؟

(يستدير ثانية باتجاه المكتبة، الى المكان الذي كان يقف فيه كينغدون..

(تشير هيلانة على كينغدون بالانتقال مـن مكـانـه فـي هـدوء فيمتثـل لإشارتها)

ما وجه الغرابة يا داود؟ وما الذي تريده؟

(يتقدم أكثر باتجاه الكتب)

لم تلحين الى هذا الحد على معرفة ما أريد؟

حسناً. أتيت الى هنا، من أجل الكتاب الموسيقي. الكتاب الذي أرسلته إليّ جمعية العميان. كنت نسيت أن آخذه معي الى غرفتي، أظن أني أستطيع التقاطه من بين هذه الكتب إذا لم تكن (آنا) أخذته معها الى فراشها.

هيلانة: (بحنق صامت)

قل لي، بحق السماء، لم تأخذ آنا كتابك الى فراشها؟

(داود لا يجيب على سؤالها ويمضي في التحرك ببطء)

المجنون: لأنها تود أن تتعلم لغة الليل أيتها السيدة الجميلة. كل كلمة من كلمات الليل نجم ساطع. وحده ـ سبحانه وتعالى ـ من يستطيع أن يؤلف الجمل.

(يتحسس داود الكتب فوق الرفوف. يلتقط واحداً منها ثم يمضي به، الى وسط الغرفة ويضعه على الطاولة)

(فترة قصيرة)

داود: هل قلت لي. اننا هنا وحدنا يا هيلانة في هذه الغرفة؟ أنت وأنا؟

هيلانة: ما أسخفه من سؤال. سبق وقلت لك، أننا هنا وحدنا.

داود : إن كنا هنا ، حقاً وحدنا ، معناه أن هذا البيت مسكون بالأرواح.

إني أشعر بوجود شخص آخر معنا في هذه الغرفة ، بينما تؤكدين لي عدم وجود أحد سوانا.

(يحدق في وجه كينغدون بعينيه العمياوين)

غريب جداً أن يتواجد معنا هنا في هذا المكان شخص آخر. هل تؤمنين بالأرواح يا هيلانة؟

(فترة صمت)

حقاً انه شيء غريب جداً. لا بد ، للشخص الآخر أن يفنى، قبل أن يحول هذا المكان ، الى منزل مسكون بالأرواح. أهل الحي ، جميعهم يغرقون في نوم هادىء.

المجنون : ألا تدرك يا حارس الليل ، أيها الصديق ، إن الموتى ، يجعلون الليل مسكوناً بالأرواح؟

(تقترب هيلانة من داود. تتظاهر بالرقة واللطف. ثم تتحدث بصوت مصطنع)

هيلانة : يبدو أنك مرهق جداً يا عزيزي. لم لا تذهب الى فراشك؟ ها هو كتابك خذه معك واذهب الى فراشك ، ونم نوماً هادئاً عميقاً.

داود : بلى. من المفترض أن أكون منهك القوى (ينسحب من مكانه بشكل دراماتيكي.. يصغي الى صوت الريح ، في الخارج) العاصفة. أرسلت الينا روحاً ضائعة هائمة. ماذا يمكن أن نقدم لها ملاذاً إن كانت تشعر بالبرد ، ولا طعاماً إن كانت جائعة؟ والجسد لا يحيا الا على الجسد. إذ ماذا يمكن للمرء أن يمنح أخاه غير الامان. أما هذه الروح المرسلة الى هذا

المكان فماذا بوسعنا أن نمنحها. هذه الروح الضائعة في العاصفة؟ أيتها الارواح.. كم أنت مسكينة!

هيلانة: (تحاول جاهدة أن لا تصرخ) انك تتحدث عن أشياء غريبة. كف عن التحدث عن الأرواح، أرجوك، فالوقت متأخر. وسبق وقلت لك انني أبغي المكوث، هنا وحدي، لمدة قصيرة.

داود: أواه أواه. تريدين المكوث وحدك!

المجنون: وستظلين، وحدك، أبداً، لزمن طويل طويل.. وحدك ستظلين يا سيدتي الجميلة.

(يستدير داود فجأة مبتعداً قليلاً عن هيلانة، ثم يتجه نحو الباب، عند مطلع الدرج.. تظن هيلانة أنه سيصعد الدرج، فتشير الى كينغدون ـ والأمل يحدوها ـ بأن يحافظ على هدوئه لمدة أطول.. ثم يفاجىء داود هيلانة، عندما يسير بخطى سريعة وجريئة نحو الباب.. فيقفل رتاجه ويعترضه، ثم ينادي بأعلى صوته)

داود: آنا.. آنا..

(فترة صمت)

(يدبّ الخوف والفزع في قلب كل من هيلانة وكينغدون، فيما يعاود داود نداءه)

داود: آنا.. آنا..

(يسمع خطوات آنا في الطابق العلوي)

صوت آنا: نعم يا أبي. ماذا تريد؟

داود : هيا اليّ. الى هنا في سرعة

(يسمع خطوات آنا وهي تنزل الدرجات)

هيلانة : (بغضب شديد)

آه منك أيها البغل الأعمى تبصرني عبر عيني ابنتي ما هم.. فلتأت. ولتأت الى هنا كل ابنة ملعونة، من امرأة ملعونة..

(تظهر آنا في أعلى الدرج، وقد ارتدت ثوباً فضفاضاً طويلاً فيما انساب شعرها الطويل على كتفيها. تنظر حواليها. تشاهد الموقف الغريب ثم تؤخذ على حين غرة)

داود : هل أنت قادمة الى هنا يا آنا ؟

(تهبط آنا درجة أو درجتين في آن واحد.. تتأمل المشهد وتتقدم بتثاقل وبطء)

آنا : ها أنا.

(عندما تصل الى آخر درجة، تتقدم من داود وتقف الى جانبه، فيما يقف كل من هيلانة وكينغدون مثل صنمين. وقد أصاب وجهيهما فزع مريع)

داود : (في مواجهة الزاوية التي يقف على أرضيتها كينغدون)

من معنا هنا في هذه الغرفة يا آنا ؟ قولي لي، من هنا معنا ؟

(تظل هيلانة وكينغدون واقفين بلا حراك، كأنهما ينتظران انقضاض صاعقة من السماء)

آنا : (متلعثمة وببطء)

لا أحد هنا، سوانا؟
(ينتقل كل من هيلانة وكينغدون من مكانيهما وهما يعرجان، ويبدوان كأنهما يتقيان السقوط أرضاً).

داود: (يرفع رأسه الى أعلى ويصرخ: يا الهي..

أما من أحد، في هذا العالم، يستطيع أن يرى أو يبصر ما أحس به؟

قولي لي يا آنا.. من يقف هنا معنا في هذه الغرفة؟

آنا: (تفكر قليلاً ثم تمسك بيده)

لا أحد هنا غيرنا لا أحد هنا.

المجنون: الحقيقة تنطق. الحقيقة تنطق بروعة، وجمال، يفوقان كل وصف..

داود: (مخاطباً آنا)

كنت أعتقد أنك تستطيعينَ أن تبصري ما أشعر به.. لكنني الآن أقف وحيداً. لا في الظلام.. فعيناي الميتتان، تبصران روح رجل ميت في هذا المنزل،

(فجأة يضع يده على كتف آنا)

آه، أستطيع أن أدرك مدى رقة عينيك اللتين لا تقويان ولا تحتملان أن تبصرا مثل هذه الأشياء..

انا: (بهدوء)

قلت لك يا أبي أن لا أحد هنا في هذا المكان. لا أحد سوانا. (يستدير داود فجأة الى الوراء، يفتح الباب على مصراعيه.. يقول بلهجة آمرة، بعد أن يكون قد رفع يده وأشار باصبعه في حزم، باتجاه كينغدون)

أخرجي من هذا الباب ايتها الروح الشريرة. اخرجي من هنا يا روح رجل ميت. اخرجي ولا تعودي الى هنا أبداً حتى لا تتقمصيني ثانية، كما فعلت.

(يجر كينغدون خطواته المتعثرة نحو الباب على رغم الاشارات التي كانت تمليها عليه هيلانة بأن يحافظ على هدوئه. يأخذ معه معطفه وشاله وقبعته ثم يخرج، فيما يهب، من الخارج إلى داخل الغرفة، عاصفة ثلجية. تندفع هيلانة بدورها نحو الباب ومعها معطفها. تلتفت لبرهة واحدة الى الخلف).

هيلانة: (بصوت يشبه الزعيق)

وأنا أيضاً سأخرج من هنا أيها البغل الأعمى...

(متوعدة آنا بحركة من يدها)

وأنت أيتها الساحرة... انك لصة خفيفة الأنامل. امكثي هنا، إن استطعت في الظلام. تحت عباءة هذا الليل الأبدي...

(تخرج هيلانة وتصفع الباب)

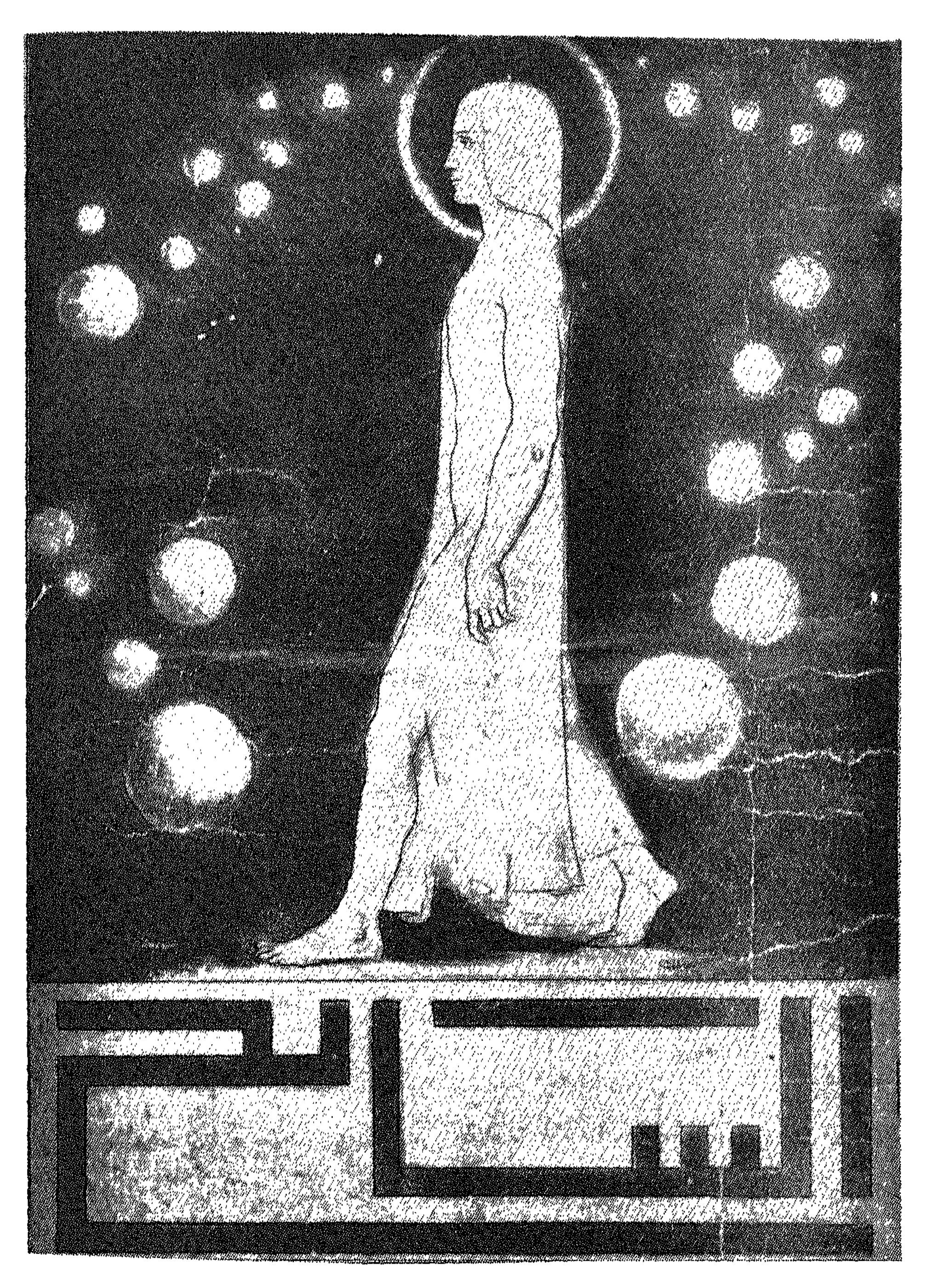
انا: لم يكن هنا أحد سوانا يا أبي.

(تضع يدها على كتف داود. ترنو بنظرها الى أعلى. يدخل داود من الباب الداخلي ويغلقه).

داود: أدرك الآن ذلك يا آنا...

المجنون: سيمحو الهواء اثار اقدامها في الثلج. وسيذوب الثلج ويأتي الربيع يا صديقي. وفي الربيع تتفتح ورود الحقول والحدائق لتواجه أشعة الشمس، فترنو اليها... وتبصرها...(*)

(*) عرّبها نويل عبد الأحد من كتاب أصدره بالانكليزية خليل جبران سنة ١٩٨١ عن دار (Westminster Press Philadelphia U.S.A) ونشرتها جريدة الحياة في العددين ١٠٧٨٣ و ١٠٧٨٤ يومي الثلاثاء والاربعاء ١٨ و ١٩ آب ١٩٩٢.



السائح الأعظم رسم فني بريشة جبران
غلاف عدد السائح الممتاز لسنة ١٩٢١.

الباب الثالث

حِكَم وآراء

١ ـ الضمير

الضمير هو الإله المتقمّص في هيكل الانسان، بل هو أفضل كتب الأدب وأحراها بالمراجعة والاستعادة، بل هو نبض الصواب يدقّ فتوقظنا دقّاته وتنبّهنا نبضاته. قال مارك أوريل: «فتّش في ثنايا سريرتك ففيها منبع الخير والبرّ منبع لا ينضب معينه ما دمت تنبش فيها أبداً». وقال سر توماس آدم: «لا جرم أن الضمير الحيّ لمن أجلّ النعم فلا يكتفي بتمييز الخير من الشرّ، بل يتجنّب الشرّ بالغريزة كما تفعل الحدقتان حين دنوّ أقلّ خطر». وقال ديدرو: «انطلق حيث تشاء فإنّ ضميرك ملازم لك». وقال لامنيه العالم الاجتماعي: «إنّ وخز الضمير وتبكيته ألم يوقظك من سنتك، ويعلمك أنّ في نفسك ارتباكاً يعمل عمل الألم الجثماني في حفظ الحياة وصيانتها».

٢ ـ السعادة

أثبت الفلاسفة والعلماء أنّ السعادة طارئة على النفس لا ناشئة فيها ولذا قال ستوارت: «إنّ كمال السعادة لفي عمل الواجب». وقال بنتام: «إنّه لخليق بمخيّلتنا أن تضع السعادة نصب أعيننا وتبعث فينا روح الأمل

لتحيينا وتنعشنا عن أن تلقي في نفوسنا الأسى والنحس فيثبط منا العزم».
وقال كوندرسيه: «حسبك من مسرّات الحياة عمل ناعم، وليس للسعادة غير طريق واحد هو أن لا تتّخذ السعادة غاية لك من الحياة ولكن لتلمس سواها».

٣ ـ الصديق

الصديق الأمين بلسم الحياة ـ الحبّ زهرة والصداقة شجرتها ـ الصداقة قران النفس ـ لا يلوح لك أنّ الصداقة سلعة تباع وتشترى، فقد يتسلّط المرء بنفوذه وقوة بطشه على إخوانه بيد أنه لا يستطيع أن يستولي على قلوبهم ما لم يرهقهم حبّاً وانعطافاً.

٤ ـ الموت

إذا سقطت أوراق الورود بسكون، وأظلمت الكواكب في جوّ السماء، وتكسّرت الأمواج على الصخور الجرداء الشاهقة وانطفأ شعاع الشفق وتوارى في السحاب فذلك هو الموت: موت ولكنّه يسحرنا بحسنه ويعلّلنا بنشوة الراحة والرخاء المزجاة. موت ولكنّه عطيّة من الطبيعة أمّ الخيرات(*).

(*) ما وراء الخيال، م. س. ص٢٤ ـ ٢٥.

الباب الرابع

شذرات فلسفيّة

١ ـ النساء

كلّ ما في المرأة لغز. لا يطلب إلا حلاًّ واحداً ذلك ما يسمونه بالحمل. الرجل للمرأة واسطة. غايتها الطفل. ولكن ما مكان المرأة من الرجل؟

كلّ رجل صادق الرجولة حقيقيّها يروم مطلبين مختلفين ـ الخطر واللهو ـ فلذلك يطلب المرأة كأشدّ اللعبات خطراً.

ليدرّب الرجل على القتال ويمرّن. ولتعلم المرأة على أن تكون ملهاة للرجل ومنعمة فكل ما عدا ذلك سخف وحماقة وجنون.

لا يستطيب الرجل المقاتل الثمار الشديدة الحلاوة ولا يستعذبها فلذلك يحبّ المرأة لأنّ أحلى النساء مذاقاً وأعذبهن مساغاً لا تبرح المرّة الطعم.

المرأة أعلم من الرجل بالأطفال ولكنّ الرجل أشدّ طفولة من المرأة. إنّ في الرجل لطفلاً مختبئاً يريد أن يلعب فأقبلن أيتّها النساء واكتشفن لي الطفل الكائن في الرجل.

ألا فلتكن المرأة لعبة الرجل نقية صافية دقيقة كالجوهرة. تتألّق بسنا فضائل عالم لم يحن بعد حينه ولم يأن أوانه.

ليسطع في حبّكن أيا جماعة النساء أشعة هذا النجم الزاهي. وعن أملكن يقول « ليتني ألد الإنسان الأعلى ».

ولنجعلنّ الشجاعة رفيقة حبّكن. وليكن في حبّكنّ شرفكنّ فإنَّ المرأة قلَّ ما تفهم الشرف في غير الحبّ ولكن ليكن شرفكنّ في أن تُحببن أكثر من أن تُحببن ولا تكنَّ في الحب إلاّ السابقات.

ليخش الرجل المرأة إن هي أحبّت فإنّها إذ ذاك تضحّي كلّ شيء وتعد كل شيء تافهاً لا قيمة له ولا قدر.

وليخف الرجل المرأة إن هي أبغضت فالرجل شريف في صميم نفسه. ودخيلة روحه. ولكنّ المرأة بجملتها شريرة فاجرة سافلة.

من هو أكره للآخر وأبغض. ألا فاسمع ما يقول الحديد للمغناطيس « أنا الذي أكره لك وأبغض، لأنّك أنت الذي تجتذب وإن كنت أضعف من أن تشدّني إليك وتجرّ ».

إنّ سعادة الرجل في أن يقول « أنا الذي أريد » وسعادة المرأة « هو الذي يريد » « ألا فانظروا الآن أصبح العالم كاملاً » كذلك تظنّ كلّ امرأة يوم تذعن بكلّ حبّها وتستسلم.

يجب على المرأة أن تطمع. بل يجب عليها أن تجد لمائها غوراً. لأنّ روح المرأة أديم متحرّك منتقل. غشاء مظلم مقيم. فوق ماء قريب الغور دانيه.

ولكن روح الرجل عميقة غائرة يفيض آذيّها من منابع وأحجار ومغاور أرضية تتخيّل المرأة قوتها ولكنّها لا تستطيع لها فهما.

٢ ـ الزوج والنسل

لي سؤال أريد أن أُلقيه عليك وحدك. أريد أن ألقي بسؤالي هذا في أعماق نفسك. مسبار أسبر به غور روحك.

أنت اليوم فتى في ميعة الشباب. وعفرة الصبا. وتريد طفلاً وتروم زوجاً ولكنّي أسألك هل أنت بالرجل الحريّ بالزواج، الخليق بالذراري والأطفال؟

أأنت القوي المنتصر الهازم نفسه، القاهر شهواته، المهيمن على عواطفه المتغلّب على فضائله ـ ذلك سؤالي إليك ومستفسري، أم هو الحيوان ينفث في رغبتك، أم هي الضرورة، أم هي العزلة، أم النزاع.

إنّك ستبني فوقك وتشيد، ولكن قبل أن تبني عليك أنت جثماناً وروحاً، أنّك تزيد في نفسك وتنميها وتكبرها، لا إلى الأمام فقط، ولكن إلى فوق. فليت جنّة الزواج تعينك على بنيانك وليتها تساعدك في تشييدك.

ستخلق جسماً أرفع من جثمانك وأسمى وأشهق من بنيانك وأعلى، ستخلق مخلوقاً خانعاً.

وما الزواج عندي إلا رغبة الزوجين في خلق وليد هو أكبر وأسمى من خالقيهما وما الزواج إلاّ الاحترام المتبادل بين الزوجين لتحقيق هذه الرغبة.

فليكن هذا معنى الزواج وحقيقته، ولكن ماذا أُسمي ما يدعوه أولئك الكلّ العيال زواجاً.

بلى أُسميه إجداب الروح في الزوجين بل أُسمّيه قذارة الروح في

الاثنين أسميه لذّة يرثى لها في البعلين.

كلّ يسمّون هذا زواجاً وكلّهم يقولون إنّ زواجهم يقضي في السماوات، ولكنّي لا أحب سماء هؤلاء الكلّ العيال، كلا لا أحب هؤلاء الحيوانات المشتبكة في حبائل السماوات.

لا تضحكوا لهذا الزواج فأيّ طفل لا يحق له البكاء على والديه؟

إنّ في هذا الرجل لسمت خير وعنوان فضل، وإنّه لناضج لمعنى الأرض، على إنّي ما كدت أرى زوجته حتى تبدّت لي الأرض كأنها دار المتهوّسين المجانين.

بلى - إنّي لأؤثر أن تهزّ الأرض رجفة أو تأخذ الأرض صيحة إذ أرى الرجل القديس لأوزة بعلا!

هذا مضى يطلب الحقّ وينشده، فرجع آخر نجعته يحمل كذبة مزخرفة يسميها زواجاً.

وهذا راح يطلب فتاة لها صفات الملائكة، فلم يصبح إلاّ وهو وصيف لامرأة لا يزال يريد أن يصير هو ملكاً.

كم من حماقات كثيرة تسمّونها أنتم حبّاً. فيأتي الزواج فيردّ هذه الحماقات القصيرة جنوناً واحداً مستطيلاً.



٣ - حاجة الحقّ إلى القوة

ليس الحقّ بقوة في ذاته وإن قال لك أولئك الجدليون الممالقون نقيض ذلك، ينبغي للحق أن يجتذب القوة إلى جانبه. وأما أن يركن هو

إلى جانبها وإلا كان نصيبه الموت والفناء. وقد شوهد صدق ذلك بما هو أكثر من الكفاية والغناء.

٤ ـ الصدق

كثيرون من الناس صادقون، ليس لأنّهم لا يستطيعون أن ينجحوا في تحريض غيرهم على التصديق بفاقتهم، ولمّا كانوا قليلي الثقة بمقدرتهم التمثيلية آثروا سهولة تمثيل الصدق(*).

(*) ما وراء الخيال، م. س. من ص٤٣ ـ ٤٨.

الباب الخامس

رسائل

من رسائل جبران إلى أميل زيدان(*)

١ ـ الاهتمام بالطباعة

«منذ بضعة أيام صدر كتاب «المواكب» فبعثت إليكم بنسخة منه مع الأمل بأنّكم ستجدون فيها ما يروقكم. ولقد كان قصدي بإصدار هذا الكتاب بهيئة تختلف عن أكثر الكتب العربية الحديثة، استنهاض همّة أصحاب المطابع في العالم العربي ولفت أنظارهم إلى مظاهر الكتب الخارجية لأنّ الطباعة في شرعي من الفنون التي يجب علينا الاهتمام بها خصوصاً في هذه الأيّام ـ أيّام انتقالنا من طور إلى طور. أقول هذا وأنا عالم بأنّ الشعر الجميل يبقى شعراً جميلاً وإن كتب بفحمة على حائط، ولكن ألا ترون في «أجساد» تلك الكراريس المعروفة بالدواوين ما يستدعي الأسف لخلوّها من مظاهر الحسن والاتقان؟ أمّا «المواكب» كقصيدة فحلم رأيته في الغابة ولمّا رمت إبرازه وجدتني كحفّار يحاول صنع تمثال من ضباب البحر. وماذا يا ترى يفعل الشاعر بأحلامه وليس لديه ما يبيّنها سوى الألفاظ والأوزان، وهي سلاسل وقيود؟»(**).

(*) أميل زيدان (١٨٩٣ ـ ١٩٨٢) خلف أباه جرجي في إدارة مجلة الهلال.

(**) نثرات من رسائل لم تنشر لجبران خليل جبران. الهلال، العدد الخامس، أول أذار =

٢ - قصدي من التأليف

... لقد كان وسيكون قصدي الأوّل في تأليف الكتب اللذّة النفسيّة والنفع المعنويّ، ولكن إذا كان هناك من نفع ماديّ فأنا أريد أن أكون آخر المنتفعين لا أوّلهم، وما رغبتي في أن أكون آخر المنتفعين سوى شكل من الأنانيّة فلا تظن أنّني غير أنانيّ!(★).

٣ - ترجمة حياتي

... كنت تعطّفت، وطلبت إليّ أن أبعثَ إليك بترجمة حياتي. وهذه يا أخي مسألة صعبة عليّ. صعبة إلى آخر ما هناك من الصعوبة. ماذا يا ترى أقول عن نفسي سوى أنني ولدت منذ أربعين سنة، ومنذ أربعين سنة وأنا أشتغل؟

هذه هي ترجمة حياتي بكاملها. يخال إليّ في بعض الأحايين أنّ لي من كل يوم ولادة جديدة، وأنّ ماضيّ لم يكن سوى منام حلمته، وأنا في رحم الليالي، وأنت تعلم أنّ من يرى نفسه طفلاً يخجل من تاريخ حياته ويستحي من عرض ماضيه المبهم الضبابي أمام الناس. إنّ ما بي من العزم، والحبّ، والتمرّد، والامتثال لم يتّخذ للآن قالباً حرّياً بالوقوف أمام الشمس. فإذا جاء الغد وأثمرت ثمرة خليقة بمقابلة النور، كانت تلك الثمرة نفسها ترجمة حياتي بكل ما في حياتي من الألم، والفرح،

=١٩٣٤، ص٥١٣. وهي رسائل بعث بها جبران إلى اميل زيدان بين سنتي ١٩١٩ و١٩٢٢.

(★) الهلال، م. س. ص٥١٥. أورد جميل جبر مقطعين آخرين من هذه الرسالة في كتاب رسائل جبران ص٢٣، وهي مؤرّخة في سنة ١٩١٩.

والوحشة، والأنس، والنار، والنّور، والدخان.

واقبل، يا أخي، تحيّاتي مشفوعة بمحبتي وإعجابي، والله يحفظك عزيزاً لأخيك(*).

(*) المنتقى للأب بطرس الخوري اللبناني بمعاونة الإخوة المريميين، الجزء الثاني، كتاب المعلم، مطبعة المعارف نجيب كنيدر - حلب، ص١١٤ - ١١٥.

إلى المسلمين من شاعر مسيحي

أنا لبنانيّ ولي فخرٌ بذلك، ولست بعثمانيّ ولي فخرٌ بذلك أيضاً. لي وطنٌ أعتز بمحاسنه، ولي أمّة أتباهى بمآتيها، وليس لي دولة أنتمي اليها وأحتمي بها.

أنا مسيحيٌّ ولي فخر بذلك ولكنني أهوى النبيّ العربي وأُكبرُ اسمه وأحب مجد الاسلام وأخشى زواله. أنا شرقي ولي فخرٌ بذلك ومهما أقصتني الأيام عن بلادي أظلُّ شرقيَّ الأخلاق سوريّ الأميال لبنانيّ العواطف. أنا شرقي وللشرق مدنية قديمة العهد ذات هيبة سحرية ونكهة طيبة عطرية ومهما أُعجب برقيّ الغربيين ومعارفهم يبقَ الشرق موطناً لأحلامي ومسرحاً لأمانيّ وآمالي.

في تلك البلاد الممتدة من قلب الهند الى جزائر العرب، المنبسطة من الخليج الفارسي الى جبال القوقاس، في تلك البلاد أنبتت الملوك والأنبياء والأبطال والشعراء، في تلك البلاد المقدسة تتراكض روحي شرقاً وغرباً وتتسارع قبلة وشمالاً مرددة أغاني المجد القديم، محدقة الى الأفق لترى طلائع المجد الجديد.

بينكم أيها الناس من يلفظ اسمي مشفوعاً بقوله: «هو فتى جحود يكره

الدولة العثمانية ويرجو اضمحلالها».

إي والله لقد صدقوا، فأنا أكره الدولة العثمانية لأني أحب العثمانيين، أنا أكره الدولة العثمانية لأني أحترق غيرةً على الأمم الهاجعة في ظل العلم العثماني.

أنا أكره الدولة العثمانية لأنني أحب الاسلام وعظمة الاسلام ولي رجاء برجوع مجد الاسلام.

أنا لا أحب العلّة، ولكنني أحب الجسد المعتلّ، أنا أكره الشلل ولكنني أحب الأعضاء المصابة به...

أنا أجلُّ القرآن ولكنني أزدري من يتخذ القرآن وسيلة لإحباط مساعي المسلمين كما انني أمتهن الذين يتخذون الإنجيل وسيلة للحكم برقاب المسيحيين.

وأيّ منكم أيها الناس لا يكره الأيدي التي تهدم، حباً للسواعد التي تبني؟

أي بشريّ يرى العزم نائماً ولا يطلب ايقاظه؟ أي فتى يرى العظمة متراجعة الى الوراء ولا يخشى انحجابها؟

إذاً، ماذا يغركم أيها المسلمون بالدولة العثمانية وهي اليد التي هدمت مباني أمجادكم بل هي الموت الذي يراود وجودكم؟

أوَ لم تنتهِ المدنية الاسلامية ببدء الفتوحات العثمانية؟

أوَ لم يتقهقر أمراء العرب بظهور سلاطين المغول؟

أوَ لم ينحجب العلم الأخضر وراء ستار من الضباب بظهور العلم الأحمر فوق رابية من الجماجم؟

خذوها يا مسلمون، كلمةً من مسيحيّ أسكن «يسوع» في شطر من حشاشته و«محمداً» في الشطر الآخر!

إن لم يتغلّب الاسلام على الدولة العثمانية، فسوف تتغلّب أمم الافرنج على الاسلام...

إن لم يقم فيكم من ينصر الاسلام على عدوّه الداخلي فلا ينقضي هذا الجيل الا والشرق في قبضة ذوي الوجوه البائخة والعيون الزرقاء...(*)

(*) جبران حيّاً وميتاً ص٣٧ - ٣٨.

من جبران الى الخوري بولس الكفوري(*)

سيدي المصلح الفاضل الخوري بولس الكفوري المحترم.

عدت الى هذه المدينة فوجدت كتابكم الكريم، وسررت به سروري بكل ما أعرفه وأسمعه عنكم، وقد تمنيت أن أكون خليقاً بما جاء فيه من الثناء والإطراء، ولكن هي النفس تحول الثناء الذي لا تستحقه الى تشجيع تحتاج اليه.

يعلم الله بأنني فكرت مرات بأن أكتب اليكم خصوصاً في تلك الأيام التي أوقفتكم كالأبطال بين صغار النفوس والمضطهدين الذين لا شفيع لهم سوى الغباوة والعماوة، ولم يصدني عن الكتابة سوى معرفتي بأنكم لا تحتاجون الى العوامل الخارجية في جهادكم الشريف.

ان السماء قد وضعتكم في محيط حرج يفتقر الى المعرفة والاستقامة والحرية، وهذا خير ما تفعله السماء بالنفوس النبيلة التي كونت منذ البدء لتخدم وتعطي وتعلم، اذ تبعث بها الى قوم متشبثين بالباطل لتظهر لهم الحق وتسكنها بلاداً مغمورة بالرماد لتوقد فيها شعلة الله.

(*) الخوري بولس الكفوري كان رئيساً لمدرسة «الشرقية» في زحلة، عرف بنضاله ضدّ العثمانيين. وكان يصدر جريدة «المهذّب».

جاء في الأمثال «إن من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس»، والغريب انه يوجد في سوريا طبقة من الناس قد مسخت هذه الآية وقالت «إن من يقول الحق فهو شيطان ثرثار». ولكن ماذا يهمكم أقوال الناس وظنونهم وأنتم على وفاق مع وجدانكم الحي؟ أليست الفضيلة نفسها جزاء الفضيلة؟

أما رأيي في الاصلاح الاجتماعي في سوريا، فهو مع كونه يتفق ببعض أولياته مع آراء أكثر المخلصين لبلادهم، فهو يختلف عنها بالسبل التي تسلكها الأمة لبلوغ الرقي الحقيقي الدائم. قد مر زمن كنت أرى فيه سوريا أمة مظلومة أما اليوم فقد صرت أراها أمة مريضة ـ بعلتين مزمنتين. علة التقليد وعلة التقاليد. ولقد فكرت طويلاً بالأدوية والمساحيق المعنوية، فلم أر دواء أنجح من زوبعة فكرية هائلة تهصر بعزمها الأغصان اليابسة، وتجرف بتيارها الجيف المنتنة، وتترك البلاد خالية إلا من السواعد القوية التي تحرث الأرض وتستغلها، وأفكار نظيفة تحب الحقيقة والعدالة. كنت أتوهم في ما مضى أن الأقوال اللينة والأفكار المستحبة تنبه الأرواح الخاملة وتشفي القروح والبثور الكريهة، أما اليوم فصرت أرى بأننا لا نقدر أن ننبه الأرواح ولا نستطيع أن نشفي القروح إلا بالنار الحامية التي تحرق العلة بتاتاً، ولا تبدلها بعلة جديدة وتستأصل الداء بكليته ولا تحوله الى داء آخر. إن الشرق يفتقر الآن الى قوة جديدة مطلقة لا ترحم المتوانين، ولا تشفق على الفاترين، ولا تتساهل مع المتفلسفين الذين يعظون الناس بما لا يتعظون به أنفسهم. إن الشرقيين عموماً والسوريين خصوصاً يتساهلون كثيراً مع رؤساء الأديان وقادة الأفكار فلا يتمردون على المطران الذي يعلم الناس محبة الفقر وهو مشغول بجمع المال، ولا ينبذون الصحافي الذي يكتب عن الفضيلة وهو منصرف الى الرذائل، ولا يخلعون الحاكم الذي يمثل الشريعة علناً ويخالفها سراً. إن الشرقيين يا سيدي يحتاجون اليوم الى رجال متطرفين

بمبادئهم الاصلاحية لأن الاعتدال يضر أكثر مما ينفع ـ الاعتدال في الأمور الاجتماعية عاطفة سلبية شبيهة بالماء الفاتر الذي تكلم عنه بولس الرسول.

واسمحوا لى الآن يا سيدي أن أعيد على مسمعكم كلمة طالما رددتها على مسامع أصدقائي في أوروبا وأميركا، وهي أن الأعمال الشريفة التي تقومون بها والمبادىء القويمة التي تبثونها في روح الناشئة، والشجاعة العظيمة التي أوقفتكم وتوقفكم منفردين أمام هيبة يسوع الناصري، سوف تجعل ذكركم من تاريخ أيامنا هذه بمقام الحلقة الذهبية من السلسلة، وترسم اسمكم في كتاب الحق والواجب الذي تخطه أصابع الله الخفية. إن زمن الشهداء لم يذهب بعد، ومن كان استشهاده بطيئاً كان ثوابه عظيماً.

تكرموا بقبول شكري وامتناني لاهدائكم إياي جريدتكم الحرة النافعة، وتفضلوا بذكر اسمي مشفوعاً بتحيتي وسلامي أمام الأدباء الغيورين الذين يشتركون معكم بخدمة البلاد والله يبقيكم لمحبكم المخلص(**).

جبران خليل جبران

نيويورك في ١٩ كانون الثاني ١٩١٢.

رسالة جبران إلى أسعد رستم

أخي العزيز أسعد

سلام على روحك وبعد فإن رجوعك إلينا محمولاً على أجنحة الشعر بعد غياب كان أطول من الدهر لمن الأمور التي يجب أن نفرح لها ونعيّد.

(**) الصيّاد، ٤ نيسان / ابريل ١٩٨٤، عدد ٢٠٥٦، ص٦٨. نشرها شبل كرم ضمن حلقات تناولت جبران ودوره السياسي خاصة.

قلت لك بالأمس شفاهاً وأقول لك اليوم كتابة إنّ احتجاجك كان ضرباً من الجريمة وشكلاً من الكفر ونوعاً من التمرّد على سنّة الله في خلقه. قرأت البارح قصيدتك في جمال القبيح فسررت بها سروري بكلّ ما تنظمه. أمّا ذكرك اسمي في أحد أبياتها فمنّة أشكرك عليها وعطف لن أنساه. قد بعثت إليك اليوم بنسخة من كتابي الانكليزي «المجنون» مع أملي بأنك ستجد فيه شيئاً يلذّ لك ويسرّك. قل كلمة فيه إذا وجدته خليقاً بكلمة أو فاطرحه في تلك الهاوية العميقة الهائلة التي ندعوها السكوت. اقبل مودّتي مشطّرة ومخمّسة ومذيّلة، بإعجابي وإخلاصي والله يحفظك.

لأخيك جبران(*)

(*) الرستميات، تحية الشعب لشاعر الشعب أسعد رستم، مطبعة جريدة النسر اليومية في ٦٠ و٦٢ شارع واشنطون نيويورك.

الباب السادس

تعريب

١ ـ الضمير (*)

فرَّ قايين من أمام ربّه يضرب في بيداء الأرض، حتى بلغ ذات مساء سفح جبل في سهل فسيح، وكان التعب قد أنهك امـرأته وأولاده فانطرحوا على الأرض وناموا بين الروعة واللوعة.

ران الكرى على عيونهم، أمّا قايين فجلس وغاص في تأمّلاته وهواجسه لأنّ النوم كان بعيداً عن عينيه ثم رفع رأسه إلى السماء الحالكة فرأى في أقصى الأفق عيناً هائلة مفتوحة تحدّق فيه تحديقاً شديداً فعرته رعدة وتملّك منه الخوف فقال في نفسه: لا أزال على مقربة منه، ثم قام وأيقظ امرأته وأولاده وعاود المسير. فطوى الفيافي حزيناً كئيباً ولبث ثلاثين يوماً وثلاثين ليلة هائماً على وجهه شاحب اللون مضعضع الحواس لا ينطق ببنت شفة ولا يجسر أن ينظر وراءه ولا أن ينام حتى انتهى إلى ساحل البحار في أرض أشور وهناك قال لنلق عصا الترحال في هذا المكان لنكون في أمان. أجل لنقم هنا فقد جاوزنا حدود العالم. وبينما كان ينحني ليجلس إذ به يرى في الجوّ القائم العين نفسها في موضعها نفسه في أقصى الأفق فاضطرب عند ذلك اضطراباً شديداً وأخذ ينتفض

(*) تعريب قصيدة فيكتور هيغو La Conscience .

من شدّة الخوف والوجل وصاح بمن حوله «اخفوني» وكان أولاده واقفين ينظرون إليه باكتئاب وحزن وأصابعهم على شفاههم.

التفت قايين إلى جوبال جدّ الذين يعيشون في القفار تحت مضارب الوبر وقال له مدّ من هذه الجهة ستار الخيمة فنشرا الستار ووضع عليه ثقلاً عظيماً من الرصاص وحينئذٍ قالت له تسيلا حفيدته وكانت رقيقة كالصباح: هل ترى بعد شيئاً؟ أجاب قايين: إي نعم، هذه هي العين لا أزال أراها.

فقام جوبال ونفخ في الأبواق وضرب على الطبول وصاح: لا بدّ من أن أقيم حاجزاً دونها. ثم بنى جداراً كثيفاً من الحديد ووضع قايين وراءه ولكن قايين نظر وقال: لا، هذه العين لا تزال تنظر إليّ.

أجاب جوبال يجب أن نقيم دائرة منيعة من الأسوار لا يجسر واحد أن يقرب منها، فلنبنِ مدينة ولنقم فيها قلعة حصينة ثم نغلقها فقام حينئذٍ تيبال أبو الحدّادين وشيّد مدينة هائلة تفوق طاقة البشر وبينما هو دائب في العمل كان إخوته يطاردون أولاد نوش وشيث في السهل ويفقأون عين كلّ من يجسر على المرور.

وفي المساء أخذوا يطلقون السهام ويرشقون بها النجوم حتى قامت المدينة وجعل الصوّان فيها مقام مضارب الشعر وشدّت الصخور بسلاسل من حديد فكان يخال لمن يراها أنّها بناية من بنايات الجحيم لأنّ أسوارها كانت بكثافة الجبال وظلّها كان يحجب النور عن البراري ونقشوا على أبوابها هذه الكلمات: «محظور على العلى الدخول».

ولمّا فرغوا من السدّ والبناء وضعوا الجدّ في الوسط ضمن برج من الصخور، ولكنّه ظلّ حزيناً مرتعداً فنادته تسيلا وهي ترتجف «يا أبي هل

اختفت العين». فأجاب: «لا تزال هنا» ثم قال: «أريد أن أسكن تحت التراب كالميت في قبرٍ لا أرى ولا أُرى».

فحفروا حفرة وقال قايين: حسناً. ثم نزل وحده في تلك الهوّة المظلمة. وما أن جلس على مقعد وسط الظلام وأغلقوا عليه الحفرة كانت العين في القبر وكانت تحدّق بقايين(★).

٢ - السلم والحرب

السلم(١)

لله ما أبهاك أيّها السلام وما أجملك وما أجمل خطواتك في الأودية الخضراء التي ألقت عليها الطبيعة حلّة بيضاء... هنا الدخان يتصاعد من بين الأشجار الباسقة ينبىء عن وجود أناس يعيشون في أكواخ بين تلك الأشجار.

هناك فلاّح لا يبالي بقدوم الشتاء ولا برعده القاصف. هناك سلام سائد وسرور دائم، هناك بيوت بيضاء بعيدة تظهر من وراء التلال وتقول سلام سلام. هناك قطعان الغنم رابضة بجانب ينابيع المياه الباردة على غاية من الطمأنينة والأمان وبيت راعيها قد حجبته زهور الياسمين والنسرين التي أريجها يعطّر ما حولها من الأرجاء.

(★) ما وراء الخيال، م. س. من ص٢١ - ٢٣. وجواهر الأدب، الجزء الأول، جمعه ونقّحه العلاّمة ب. بستاني، مكتبة صادر بيروت، ١٩٢٩. من ص٢٢٦ - ٢٢٨.

(١) في «دمعة وابتسامة» نصّ آخر عنوانه «السلم»، وهو عبارة عن أقصوصة تتحدّث عن صبية تبكي وتطلب من الله أن يردّ إليها حبيبها من الحرب. وفيما هي كذلك يدخل عليها فتى تضمّ رأسه عصائب بيضاء. ولمّا جاء الصباح وقف الاثنان في وسط الحقل يتأملان جمال الطبيعة. وفي «التائه» قصة رمزية بعنوان «السلم والحرب».

هناك أولاد يلعبون بالتراب الناعم ويتقلّبون عليه من شدّة الفرح والسرور ويصعدون على متراسهم الطبيعي المكلّل بالأزهار فيمسكون أبوابه العاجية ويقطفون من الأزهار والأثمار ما استطاعوا وحينما تأذن الشمس بالمغيب يودعونها بكل سرور ثم يحيونها في الصباح بسرور أشد.

حيث يتسلقون الأشجار المثمرة ويجنون منها كل أنواع الأثمار الحلوة الشهية بينما الشيوخ جلوس يتحادثون ومحور حديثهم عن جمال الطبيعة وأعمال القدير لا عن المال والغنى والبهرجة والسياسة والعلم وبينما الأمهات داخل البيوت تغزلن الصوف الذي هو أشدّ بياضاً من الثلج وتخزنه لأيام الشتاء الباردة حيث يجلسن حول الموائد يلعبن.

ثم العرج والعمي والمقعدون يستريحون في المستشفيات والغني يزيد غنى ويطعم الفقير من دون أن يسأله والعدل يرفع رايته والشريعة تجلس على عرشها الملوكي محاطة بعسكر الأزهار ومكللة بتيجان الراحة والسيف داخل غمده ويطرأ عليه الصدأ والبارود يسطو عليه الماء والضعيف يصير كالقويّ والخامل كالعزوم. أجسام الموتى تدفن في الثرى وتقرأ عليها كلمات الكاهن المقدّسة وتتعطّر ببخور السلام والتقوى.

هذه هي حالة السلام المقدّسة.

الحرب

هبّت الجند هبوب العاصف وماجت كجيش الجراد وها الدماء قد وقعت على الأرض كشلاّل من الماء فصبغتها بلون أحمر قان حتى اختفى تصاعد الدخان الآن من بين الأشجار واختفت علامة السلام وانطفأت نار ذلك الراعي وصعد مكانه دخان القرى التي لعبت بها ألسنة اللهيب وبينها دخان بيت ذلك المسكين الذي سكب ماء الحياة في بنائه. ها البقر قد تاهت في البراري وخوارها ملأ الفضاء لا أكل ولا شراب لها لأنّ

الأرض قد أصبحت كقطعة سواد من النار.

وهذا الفلاح قد ضمّ يديه إلى صدره وأصعد زفرات الحزن على مزروعاته التي ذهبت ضحيّة النار وبعد أن وقف على إحدى الروابي القريبة رجل أشيب وقال لنفسه هنا سأبني بيتي في وسط تلك المرجة المملوءة بالأزهار.

هنا سأعمل اسماً يخلّده لي أولادي إلى أبد الدهور فلم يجب أمله سوى أضغاث أحلام. فإن النار قد أكلت الأرض ولحست التراب وأحرقت العشب وها المعابد قد دنّستها العساكر بالسباب والشتائم ومشوا على أرضها المقدّسة برماحهم وسيوفهم الملطخة بدماء أناس أطهار.

خيولهم تصهل بقرب المذبح المبارك. الشريعة والقانون أصبحا في زاوية النسيان وسقط عليهما جدار الظلام فحطمهما. النّهب والجور قد فتكت قيودهما، رجال الهيئة الاجتماعية يصيحون صياح الويل. صراخ الشقاء وولولة الضعيف يخمدان نيران غضب الغضوب. أنين الجرحى في المستشفيات أوقف نغمات الطيور ووصل إلى معابر الطرق. الأعشاب والأنسجة الموجودة في البيت لا تكفي لتضميد جراح الأب والابن وتمسح دموعهما المنسكبة من عيونهما الدامية.

هذا الشاب كان من مدّة قصيرة يلمع فوق رأسه كوكب الشبيبة الناضر وينبسط أمامه المستقبل الزاهر ولكن ها هو الآن يتمرّغ في دمائه وآلى على نفسه أن لا ينتظر سنّ الشيخوخة. هذه هي أعمالك أيّها الإنسان كلّها أعمال ظلم تفعلها تحت أعين النار، ودفن الموتى تحت الهواء لا تحت التراب. فيا هول الحرب ويا لشدة شقاء الإنسان(★).

(★) ما وراء الخيال، م. س. من ص٤٩ ـ ٥٢.

الباب السابع

خطب

بيتنا الجديد

صورة الخطاب الذي فاه به جبران في الحفلة التي أقامتها لجنة تحرير سوريا ولبنان.

منذ زمن بعيد والسوريون واللبنانيون يعيشون سياسياً وإدراياً في خربة لا سقف لها ولا أعمدة... ولقد كانت هذه الخربة على ملتقى السبل وكان اللصوص يحتلونها وقطاع الطرق ينتابونها ورعاع الأجلاف يخربون ما بقي عامراً فيها.

منذ أجيال عديدة ونحن ساكنون في تلك الخربة بينما غيرنا يقطن البيوت العامرة والقصور الشاهقة والبروج الحصينة. منذ أجيال ونحن في تلك الخربة السياسية تحت رحمة العواصف والأنواء والأمطار. تحت رحمة وحوش الغاب وكواسره. بل تحت رحمة أفاعي الأودية وحشراتها. بل تحت رحمة كل ما على الأرض من مفرزات الجحيم.

منذ ثلاثين قرناً ونحن على هذه الحالة الموجعة المحزنة. ومن معجزات الأيام انه لم يزل منا بقية على سطح الأرض. من المعجزات اننا للآن لم نقرض عن بكرة ابينا. من معجزات الدهور أنه يوجد اليوم قوم يدعون نفوسهم سوريين ولبنانيين. فالظاهر أن ضمير الأرض، وإن شئتم فقولوا سنّة بقاء الأنسب ما برحت تجد فينا كأمة شيئاً حرياً بالوجود، خليقاً بنور

الشمس، جديراً بهذه اليقظة الجميلة اللذيذة التي ندعوها الحياة.

أيها السيدات والسادة ـ إن الشعب الذي يبقى حياً بعد أن تداولته الأمم الفاتحة من الأشوريين الى المصريين الى الاغريق الى الرومان الى المغول ـ الشعب الذي داسته سنابك الأجيال وتوالت عليه مصائب الدهور ـ الشعب الذي أكل خبزاً معجوناً بالسم وشرب الماء ممزوجاً بالعلقم ـ الشعب الذي يعيش في جوار جهنم ثلاثة آلاف سنة ويبقى حياً لهو من الشعوب الحرية بالاحترام والاعجاب. فإذا لم يكن للسوريين واللبنانيين فضيلة سوى تغلبهم على الفناء الأبدي فذلك وحده كاف لاستدعاء بعض الفخر. نعم أيها السادة والسيدات ـ نحن نستطيع أن ننتصب أمام أمم الأرض ونرفع رؤوسنا متفوقين، نحن الذين عشنا في جوف الثعبان العثماني خمسة قرون ولم نزل في قيد الحياة ـ تلك والله آية أعظم من آية يونان النبي.

أما دلائل حياتنا المعنوية فظاهرة في مصر وفرنسا والبرازيل واستراليا والولايات المتحدة. بل ظاهرة في كل مكان تبقى فيه بعض الحقوق البشرية رغماً عن الخلافات المذهبية التي زرعها الأتراك في نفوسنا ورغماً عن العصبية الجزئية التي أودعها الأتراك أرواحنا رغماً عن العبودية العقلية التي ولدها الأتراك في أدمغتنا رغماً عن الاعوجاج والشك والخوف وكل تلك الأمراض والعاهات التي أوجدها الأتراك في كياننا رغماً عن كل هذه الأمور التي ورثناها بالتطعيم والتلقيح فنحن ناجحون تجارياً وفينا مجاعة الى العلوم والفنون والصنائع وقد قام بيننا عدد ليس بالقليل من المفكرين والادباء والأحرار.

أما أشرف وأنبل دليل على حياتنا المعنوية فقد ظهر في العام الغابر. قد ظهر معلقاً بالحبال في دمشق وبيروت وطرابلس وعاليه، قد ظهر مصبوغاً

بدم الأحرار والمصلحين. قد ظهر مشعشعاً كالشمس في وجوه اولئك الشهداء الذين ماتوا من أجل الحق والحرية، قد ظهر مصلوباً فوق تلك الجلجلة التي ندعوها لبنان. هذه بعض مظاهر الحياة المعنوية في الأمة التي عاشت سياسياً وادارياً في حرية لا سقف لها ولا أعمدة.

ولكن اسمعوا أيها السيدات والسادة. نحن في بدء عهد جديد. نحن في زمن يتصارع فيه الحق والبُطل ـ والحق لن يصرع.

نحن في زمن يتغالب فيه العدل والظلم والعدل لن يغلب. نحن في زمن يتسابق فيه الحكم المطلق والحكم النيابي، والحكم النيابي فكرة وضعية خالدة لن تزول ولن تقهر. نحن في زمن عظيم علوي هائل مضرج بالدماء والدموع ولكنه مغمور بنور الله. ففي هذا الزمن الجليل بأهواله الهائل بجلاله، سنعطى لأول مرة في تاريخنا حق الخروج من تلك الحرية المتداعية لكي نبني لنا بيتاً جديداً مؤسساً على الصخر. سوف نعطي على رؤوس السيوف المقدسة رسم البناء الذي يجب علينا أن نرفعه فوق دعائم الحقوق والواجبات والأماني البشرية.

أما بناء بيتنا الجديد فيستلزم السواعد القوية والأفكار الصائبة. ويستلزم الشجاعة والاريحية. ويستلزم الصدق والاخلاص. وفوق كل شيء يستلزم التضحية.

والآن أسألكم أيها السوريون واللبنانيون ـ أسألكم هل يوجد بيننا من يستطيع أن يبقى على وفاق ضميره بدون تضحية شيء عزيز في سبيل الجديد؟ هل يوجد بيننا من لا يستطيع أن يقدم حجراً منحوتاً أو رفشاً من الطين؟

هل يوجد بيننا من يستطيع أن يقول ليس البيت بيتي ولا الديار دياري.

هل يوجد بيننا من لا يحن الى تلك الأرض التي أنبتتنا رجالاً ونساء. هل يوجد بيننا من لا يريد أن يعود ليعيش بحرية وسلامة وطمأنينة بين تلك الحقول والبساتين والجبال والأودية؟ إذا كان بيننا من نسي أو تناسى. إذا كان بيننا من يهز رأسه قائلاً «لا دخل لي ولا غرض» فلهذا أقول لست بسوري ولا بلبناني - بل لست ببشري لأن البشري الحقيقي هو الذي ينصر الحق على الباطل في كل حالة. ويساعد العدل على الظلم في كل بلاد ويشارك الحرية بافناء العبودية في كل أمة.

أيها السادة والسيدات - سوف نخرج من تلك الخربة ونسكن في بيتنا الجديد غير خائفين قطاع الطرق وكواسر الغاب، سوف نسكن في بيتنا الجديد إن شاء الله. ومن.منا لا يريد أن يقول لابنه أو حفيده بعد عشر أو عشرين سنة: أنا قد وضعت حجراً في هذا البناء. أنا قد ساعدت في رفع تلك الأعمدة. أنا واحد من الذين جبلوا الكلس بقطرات دمه وعرق جبينه. من منا لا يريد أن يرفع رأسه أمام الأرض والسماء ويقول مفتخراً: البيت بيتي وسيبقى ارثاً ثميناً لمن يأتي بعدي.

أما مهندس بيتنا الجديد فهو خير المهندسين و.. هو ذلك الفكر الحر، ذلك الروح المبدع.. ذلك الجلال المنتصب كضوء من.. بين الأرض اللانهاية. هو فرنسا، فرنسا الحرية، فرنسا الجميلة، فرنسا الخالدة فرنسا التي سارت بهيبة العلم من دكارت الى.. وبجلال الفن من.. الى روادن وبأنغام الشعر من فرنسوا.. الى فكتور هوغو، وبجلال الحرية من جان جاك روسو الى جول بيسون وبقول الحق من.. الى جان دارك الى جوزيف جوفر.

فرنسا سوف تهندس بيتنا الجديد. فرنسا ستأخذ بساعدنا لنصير أمة حية فلتحي فرنسا ولتحي سوريا ولتحي لبنان الى الأبد(★)

(★) عن كتاب «عقيدة جبران» لجان داية نقلاً عن جريدة الفتاة - العدد ٤٧ صفحة ٢، ١٩١٨. وقد وضع نقطتين مكان كل كلمة غير مفهومة في النصّ الأصلي.

وظائف الصحافة

الخطاب الذي ألقاه في حفلة اليوبيل الفضي لجريدة « الهدى ».

للصحافة وظائف كثيرة وكلها نافعة وكلها نبيلة. أما أظهر تلك الوظائف وأبينها فنشر أخبار الناس للناس وإعلام الناس بأفراح وأوجاع وأعمال ومآتي الناس. وبهذه الوساطة يتوسع نطاق العقلية البشرية لأن البشرية هي واحدة في كل مكان فيما يحدث لامرىء واحد في مكان يحدث لكل امرىء آخر في كل مكان آخر.

نقرأ في الجريدة أن رجلاً قد اكتشف سراً من أسرار الطبيعة فنجد لذة فائقة. ذلك لأن في باطن كل واحد منا الميل الى اكتشاف سر من الأسرار الخفية.

نقرأ في الجريدة أن رجلاً قد اكتشف كنزاً من كنوز الأمم الغابرة فنجد لذة بهذا الخبر لأن كل واحد منا يتمنى أن يكتشف كنزاً من الكنوز.

نقرأ في الجريدة أن رجلاً ممتازاً قد تزوج من امرأة جميلة فنرتاح الى الخبر لأن كل واحد منا يشعر بأن في كيانه تلك الميزة وان الامرأة التي أحبها وسوف يحبها هي الامرأة الجميلة.

نقرأ في الجريدة أن رجلاً قد اقتحم النار أو الماء لينقذ من الخطر طفلاً أو عجوزاً فنسر لهذا الخبر لأن البسالة والبطولة مختبئتان في كل رجل.

وكل رجل يتمنى أن يكون منقذ الطفل أو العجوز.

واني أتمادى وأتطوح قائلاً اننا نقرأ في الجريدة خبر جريمة، نقرأ أن رجلاً قد قتل رجلاً آخر فنتابع دقائق وتفاصيل الحادثة مترقبين الغد لعل الجريدة تأتينا بما بقي من الدقائق والتفاصيل. وما هو السبب يا ترى؟ السبب يا سيداتي وسادتي هو أن كل واحد منا قاتل وكل واحد منا قتيل.

نقرأ في الجريدة أخبار العالم. والعالم هو نحن. فما نتوهم انه يحدث في خارجنا يحدث حقيقة في داخلنا.

أما الوظيفة الصحافية الثانية فهي أن تقف الجريدة بجانب مبدأ من المبادىء الوطنية أو العمرانية أو السياسية أو الأدبية. فالجريدة التي تتخذ لها مبدأ من هذه المبادىء عن اخلاص سواء اتفقنا وإياها أو لم نتفق وتبقى واقفة بجانب ذلك المبدأ حتى النهاية هي الجريدة التي تجوهر النيات وتغربل العقول وتجعل الناس أن يتخذوا مبدأها أو المبدأ الذي يخالف مبداها وفي احدى الحالتين النفع واليقظة الفكرية.

أما الوظيفة الثالثة فهي أن تكون الجريدة «المدعي العمومي» فكم من مسألة لم تبلغ الحكومة ولم يسمع بها القاضي ولم يتناولها الشرطي في عالم الخفاء حتى قامت جريدة من الجرائد سبرت غورها وأعلنتها للناس طرا.

أما الوظيفة الرابعة وهي وإن تكن أبسطها فهي أهمها. وتلك الوظيفة هي أن تكون الجريدة مدرسة للشعب. وأرى أن صحافتنا في المهجر قد قامت بهذه الوظيفة بأكثر من غيرها فأنتم تعرفون وأنا أعرف كذلك الكثيرين من السوريين الذين جاءوا الولايات المتحدة وهم أميون ولسبب من الأسباب اشتركوا في جريدة من الجرائد ولم يمر الزمن الطويل حتى صاروا يحسنون القراءة بل الكتابة بل ومراسلة الجرائد.

وقد ذكرتُ أربع وظائف للصحافة وهناك وظائف أخرى أسكت عنها لضيق الوقت. وفي ذمتي واعتقادي أن جريدة الهدى قد قامت بجميع هذه الوظائف حق القيام بل تجاوزتها. أقول تجاوزتها لأن جريدة الهدى تهتم بكثير من المشاريع الخيرية التهذيبية واني لا ولن أنسى قول صاحب الهدى لي «إن أعظم أمنية وأبعد حلم في نفسي تأسيس الكلية اللبنانية» نتكلم عن جريدة الهدى والحقيقة هي أن جريدة الهدى هي نعوم مكرزل وماذا عسى أن أقول في نعوم مكرزل؟

أنت يا أخي تختلف ونعوم مكرزل على أمر سياسي ولكنك لا تستطيع إلا أن تحترمه رجلاً. تختلف وإياه على أمر وطني ولكنك لا تستطيع إلا أن تعتبره رجلاً. أنت تختلف وإياه على أمر ديني أو طائفي أو تقليدي ولكنك لا تستطيع إلا أن تعجب به كرجل. أنت تستطيع أن تقول ما شئت غير أنك لا تقدر إلا أن تقول في سرك ان جريدة الهدى هي أكبر مركب صحافي في المهجر وان نعوم مكرزل ربان حاذق عارف عليم لا يخاف صخراً ولا يخشى عاصفة.

وما هو السر الكامن وراء احترامنا لنعوم مكرزل اختلفنا وإياه أو لم نختلف. هو هذا: لنعـوم مكرزل شخصية بارزة فعالة ايجابية. شخصية تختلف تلافيفها ومزاياها ومظاهرها عن جميع الشخصيات.

نحن نحتفل الليلة بيوبيل جريدة الهدى الفضي. وإني أرجو من صميم القلب أن تكونوا هنا وأكون أنا هنا لنحتفل بيوبيل جريدة الهدى الذهبي وأن يكون نعوم مكرزل عروس تلك الحفلة العتيدة(*).

(*) «السائح» - ١٦ نيسان ١٩٢٣، نقلاً عن «عقيدة جبران» ص ٣١٢ - ٣١٣.

الباب الثامن

استفتاء

رأي جبران في نهضة الشرق العربي

الشرق

في سنة ١٩٢٣ استفتت مجلة «الهلال» طائفة من كبار الأدباء في موضوع نهضة الشرق العربي وموقفه ازاء المدنية الغربية فوافاها جبران بالرد التالي:

السؤال: «هل تعتقدون أن نهضة الأقطار العربية قائمة على أساس وطيد يضمن لها البقاء، أم هي فورانٌ وقتيّ لا يلبث أن يخمد؟».

في عقيدتي أن ما نحسبه نهضة في الأقطار العربية ليس بأكثر من صدى ضئيل للمدنية الغربية الحديثة، ذلك لأن هذه النهضة المباركة لم تختلق شيئاً من عندها، ولم يبن منها ما كان موسوماً بطابعها الخاص أو ملوّناً بصبغتها الذاتية. والاسفنجة التي تمتصّ الماء من خارجها وتنتفخ قليلاً لا تتحوّل الى ينبوع ماء حي. أما ذاك الذي يرى في الاسفنجة نبعة فهو أحوج الى الرمدي وعقاقيره منه الى صاحب هذا المقال ونظرياته في الاجتماع.

إن الشرق بكليته، ذلك الشرق الممتد من المحيط الى المحيط، قد أصبح مستعمرة كبرى للغرب والغربيين. أما الشرقيون، الشرقيون الذين يفاخرون بماضيهم ويتباهون بآثارهم ويتبجحون بأعمال جدودهم، فقد صاروا عبيداً بأفكارهم وميولهم ومنازعهم للفكرة الغربية والميول الغربية والمنازع الغربية.

ليس بحثنا في هل المدنية الغربية صالحة في ذاتها أم غير صالحة، فالمدنية الغربية قد وقفت سنة ١٩١٤ أمام منصة القضاء السرمدي ولم تزل واقفة هناك. ولو انتدبني القضاء السرمدي لإصدار حكمه عليها لفعلت وكنت بما أقوله على وفاق تام مع أكثر مفكري الغرب.

نحن نبحث الساعة في هل الأقطار العربية ناهضة أم غير ناهضة، ونبحث في ما تتناوله لفظة « نهوض » من المعاني وما تقرره من النتائج.

إذا كان النهوض بالتلمذة، وما يظهره التلميذ بعض الأحايين من المقدرة على الاقتباس السطحي، فالأقطار العربية إذاً ناهضة.

إذا كان النهوض بترقيع البالي، فالأقطار العربية أحرى الأقطار بالإعجاب.

إذا كان النهوض بأن يرتدي شعب ثوباً فصّل لشعب آخر، فالأقطار العربية قد بلغت المحجّة.

إذا كان النهوض بتبييض القاتم، وتكليس المتداعي، وترميم المهدوم، فالأقطار العربية قد وصلت الى أوج المجد والسؤدد.

إذا كان النهوض بأن ننظر بمكبرات الجهالة، فنرى النملة فيلاً والبعوضة جملاً فالأقطار العربية قد نهضت حتى ناطحت المجرّة.

إذا كان النهوض بالانصراف عن النبيل لصعوبته، والاستسلام الى التافه لسهولته، فالأقطار العربية قد أصبحت في مأمن من تقلبات الزمن.

ولكن إذا كان هذا النهوض بالاختراع والاكتشاف، فالأقطار العربية ما برحت هاجعة، هذا إذا نظرنا الى الاختراع والاكتشاف بعينيّ المشغوف بالمدنية الغربية وما فيها من المستحدثات الآلية.

وإذا كان النهوض بالروح والجوهر، فالشرق العربي ما برح بروحه وجوهره حيث كان منذ ألف سنة.

وإذا كان النهوض باليقظة المعنوية، وما يلازمها من معرفة باطنية وشعور صامت، فالشرق لم ينهض بعد لأنه لم يهبط قط. فالكنوز التي اكتشفها لم يفقدها، ولكنه تعامى عنها. وشجرة الدر التي غرسها في التربة القدسية وسقاها دمه ودموعه لم تزل غضة الأفنان شهية الأثمار، غير انه تحوّل عنها وراح يستظلّ بشجرة أخرى.

لو أتيح لنا الوقوف هنيهة على قمة من قمم التجريد مستعرضين مآتي العصور الغابرة لرأينا أن نهضات الأمم ووثباتها لم تكن بما أوجدته لمنفعة خاصة بها. أو لمجد محدود بحدودها وتخومها، بل كان بما تركته إرثاً للأمم التي جاءت بعدها، وعلمنا أن زبدة العهد الذي كان فجره في بابل ومساؤه في نيويورك هي بالحقائق العامة الشاملة التي اكتشفها الانسان وأثبتها، وهي بالجمال المطلق الذي رآه في الكيان فوضعه بقوالب خالدة وأوقفه أبراجاً ذهبية أمام وجه الشمس. فإن ذُكرت النهضات الروحية قلنا كان موسى نهضة اسرائيل وموسى لم يزل ناهضاً. وكان بوذا نهضة الهند وبوذا لم يزل ناهضاً. وكان كونفوشيوس نهضة الصين وكنفوشيوس لم يزل ناهضاً. وكان زردشت نهضة الفرس وزردشت لم يزل ناهضاً. وكان يسوع الناصري نهضة من ليس لهم أمة ولا وطن ويسوع الناصري لم يزل ناهضاً. وكان محمد نهضة العرب ومحمد لم يزل ناهضاً. وإن كان بنا ميل للآداب والفنون ـ وما الآداب والفنون من الدين إلا بمقام الشرح من المتن ـ رأينا رموز تلك النهضات العلوية ظاهرة بجلاء في مزامير داود وسفر أيوب والحكايات الهندية والأمثال الصينية، وفي آيات عليّ ونظريات الغزالي ونفحات الفارض وغصّات المعرّي، وفي رؤيا دانتي وتماثيل ميكل انجلو،

وروايات شكسبير وأنغام بيتهوڤن. وإن كان بنا نزوع الى العلوم الاجرائية وجدنا انه رغم ما يهدمه كل عصر مما بناه العصر الذي تقدَّمه فالقليل الباقي كان وسيكون لنفع المجتمع الانساني. ولكن إذا تتبعنا وتفحصنا حقيقة الذين اشتغلوا بالعلوم الطبيعية والفلسفية من جالينوس الى لستر، ومن إقليدس الى أينشتين، ومن يعقوب الكندي الى باستر، وجدنا أن كل فرد منهم كان نتيجة مقررة لعزم كامن في عقلية شعبه، ولم يكن قطّ ظلاً مرتعشاً لعقلية في الشعب الآخر.



ظهر مما تقدم أن النهضات بالمصادر لا بالفروع، وبالجوهر الثابت لا بالأعراض المتقلبة، وبما ينشره الوحي من غوامض الحياة لا بما يحوكه الفكر من الرغائب الوقتية، وبالروح المبدع لا بالمهارة المقلّدة، فالروح خالد وما يبينه الروح خالد، أما المهارة فقشور مصقولة تزول، وما تعكسه على أديمها المصقول فأخيلة تضمحلّ.

وإذا ثبت ما تقدم تقرر لدينا أن الأقطار العربية ليست بناهضة إذا كانت تحسب النهوض في تقليد المدنية الغربية الحديثة ـ تلك المدنية التي يرتاب بها أبناؤها العقلاء ويكرهون أكثر مظاهرها.

ولكن إذا عادت الأقطار العربية وتنبهت الى ما في ذاتها الخاصة من القوى، ووقفت متهيبة أمام كنوزها المعنوية القديمة تكون ناهضة حقيقة وتكون نهضتها قائمة على أساس وطيد وليست بفوران وقتي لا يلبث أن يخمد.



السؤال: هل تعتقدون بإمكان اتحاد هذه الأقطار وتآلفها، ومتى وبأي

العوامل، وما شأن اللغة في ذلك؟».

هذا سؤال يتناول النهوض من حيث هو سياسة لا من حيث هو يقظة معنوية. لا بأس فهذا جوابي:

في عقيدتي انه ليس بالامكان تضامن الأقطار العربية في زمننا هذا، لأن الفكرة الغربية القائلة بميزة القوة على الحق، والتي تضع المطامع الاستعمارية والاقتصادية فوق كل شيء، لا ولن تسمح بذلك التضامن ما دام لها الجيوش المدرّبة والبوارج الضخمة لهدم كل ما يقف في سبيل منازعها استعماريةً كانت أم اقتصادية. وكلنا يعلم أن كلمة ذلك الروماني «فرّق تسد» لم تزل قاعدة مرعيةً في اوروبا. ومن نكد الدنيا، من نكد الغرب والشرق معاً، أن يكون المدفع أقوى من الفكر، والحيلة السياسية أفعل من الحقيقة.

وأنّى للأقطار العربية التضامن وقلب كل قطر منها يخفق ولكن بصدر عاصمة من عواصم الغرب؟ وكيف تستطيع الإلفة والتعاون وكل منها يستمدُّ ميوله السياسية والعمرانية والاقتصادية من زاوية بعيدة من زوايا الغرب؟

إذا كان القطر الواحد من الأقطار العربية يريد أن يتفق سياسياً مع القطر الآخر فعليه أن يأخذ منه ويعطيه. وإذا كان يريد أن يلتحم به ادارياً فعليه أن يقرّ به ويقترب منه. وإذا كان يريد أن يستعين به اقتصادياً فعليه أن يؤثر مبادلته على مبادلة البلاد الأخرى. فهل فهم الشرق العربي هذه الأوليات البسيطة ـ البسيطة الى حد الابتذال؟.

أقول انهم لم يدركوها بعد.

وأقول انهم لن يدركوها حتى يكتشفوا في نفوسهم ما هو أعمق منها وأبعد.

ألا فليخبرني الفهماء هل يفضل السوري الأخذ والعطاء مع المصري على الأخذ والعطاء مع الغربي، وهل يؤثر المصري الاقتراب من السوري على الاقتراب من الغربي، وهل العربي في الحجاز أو اليمن أو العراق أشد رغبةً في مبادلة المصري أو السوري منه في مبادلة الغربي؟.

وليخبرني الأذكياء هل يمكن التضامن السياسي أو غير السياسي بدون التضامن الاقتصادي بل الاستقلال الاقتصادي؟.

وبعد ذلك فليقل لي العقلاءُ والوجهاءُ وقادة الرأي العام هل يرغبون حقيقةً في نهضة الأقطار العربية وفي تضامنها وفي استقلالها وجلٌّ ما يفعلونه في هذا السبيل إبداء آرائهم، وأكثرها بليدة وعقيمة، أما أعمالهم الخاصة ومآتيهم الذاتية وكل ما تتناوله حياتهم اليومية فتختلف مزاعمهم وتنكر عليهم دعواهم. فهم إن أكلوا فبصحون غربية، وإن شربوا فبكؤوس غربية، وإن لبسوا فالأثواب الغربية، وإن ناموا فعلى أسرة غربية، وإن ماتوا كفنوا بقماش منسوج في معامل غربية.

أليسَ من المضحك أن يجيئني «الوطنيّ الحرّ والسياسي المحنَّك» ليحدثني في شؤون الأقطار العربية ولكن بلغة غربية؟

أليس من المبكي أن يدعوني الى منزله لأحصل على شرف المثول أمام زوجته المهذَّبة ـ المهذبة في المعاهد الغربية؟

أليس مما يدمي القلب أن أجلس الى مائدته وابنته اللطيفة تحدثني عن أغاني شوبان، وابنه الأديب يردد على مسامعي قصائد دي موسة، كأن الروح السائرة مع الريح لم تسكب النهوند والبيات والرست في القلب الشرقي؟ وكأنها لم تتكلم قط بلسان المجنون والشريف والرضي وابن زريق.

وبعد كل ذلك أليس مما يستوجب الغضب أن يقودني هذا «الوطنيّ

الحر » الى ردهة الاستقبال ليتابع أحاديثه السياسية ويعرض عليّ آراءه في تضامن الأقطار العربية نيابياً واستقلالها إدارياً واقتصادياً ؟

لو قال لي هذا الوطني السياسي، الذي يمثل دورين بليدين في وقت واحد، لو قال لي ولو بشيء من النزاهة « الغرب سابق ونحن لاحقون. وعلينا أن نسير وراء السابق ونتدرج مع الدارج، إذاً لقلت له : حسناً تفعلون. إلحقوا السابق ولكن إلحقوه صامتين، وسيروا وراء السائر ولكن لا تدّعوا بأنكم غير سائرين، وتدرجوا مع الدارج ولكن كونوا مخلصين للدارج، ولا تخفوا حاجتكم اليه وراء غربال من الخزعبلات السياسية. وماذا عسى ينفعكم التضامن في الامور العرضية وأنتم غير متضامنين في الأمور الجوهرية، وماذا تجدي الألفة في المزاعم وأنتم متباينون في الأعمال؟ ألا تعلمون أن الغربيين يضحكون منكم عندما تحلمون الليل بالألفة المعنوية والجامعة الجنسية والرابطة اللغوية حتى إذا ما جاء الصباح سيّرتم ابناءكم وبناتكم الى معاهدهم ليدرسوا على أساتذتهم ما في كتبهم؟ ألا تعلمون أن الغربيين يسخرون بكم عندما تظهرون رغبتكم في التضامن السياسي والاقتصادي مع انكم تطلبون اليهم أن يبدلوا المواد الخام التي تثمرها أرضكم بالإبرة التي تخيطون بها أثواب أطفالكم والمسمار الذي تدقونه في نعوش أمواتكم؟ ».

هذا ما أقوله لمن يسمع، ويسمع بشيء من النزاهة. أما الصمّ، أولئك الذين لا يسمعون حتى ولا همس نفوسهم، فلهم بالحصة الكبرى من عطفي وشفقتي. أما نصيبهم من صوتي فمثل نصيبي من آذانهم.

يتضح مما تقدم، ولكن بصورة سلبية، ما أحسبه أفضل العوامل التي تؤول الى تضامن الأقطار العربية وتآلفها بل واستقلالها... أما الصورة الايجابية فهي تنحصر في أمرين أساسيين، أولهما تثقيف الناشئة في مدارس

وطنية بحتة وتلقينها العلوم والفنون باللغة العربية ـ فينتج عن ذلك الألفة المعنوية والاستقلال النفسي. وثانيهما استثمار الأرض واستخراج خيراتها وتحويل تلك الخيرات بواسطة الصناعة الشرقية الى ما يحتاجه القوم من مأكل وملبس شرقي ومأوى شرقي ـ فينتج عن ذلك التضامن الاقتصادي ثم الاستقلال السياسي.



السؤال: «هل ينبغي لأهل الأقطار العربية اقتباس عناصر المدنية الغربية، وبأي قدر وعند أي حدّ يجب أن يقف هذا الاقتباس؟».

في مذهبي أن السرّ في هذه المسألة ليس بما ينبغي أن يقتبسه الشرق أو لا يقتبسه من عناصر المدنية الغربية، بل السر كل السر هو في ما يستطيع الشرق أن يفعله بتلك العناصر بعد أن يتناولها.

قلت منذ ثلاثة أعوام إن الغربيين كانوا في الماضي يتناولون ما نطبخه فيمضغونه ويبتلعونه محوّلين الصالح منه الى كيانهم الغربي، أما الشرقيون في الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخه الغربيون ويبتلعونه ولكنه لا يتحوّل الى كيانهم الشرقي بل يحولهم الى شبه غربيين، وهي حالة أخشاها وأتبرم منها لأنها تبين لي الشرق تارةً كعجوز فقد أضراسه وطوراً كطفل بدون أضراس.

لقد طرحت الكثير من أفكاري بين ملتويات الأعوام الثلاثة الأخيرة، أما هذه الفكرة فلم تزل تلازمني، فما خشيته وتبرمت منه إذ ذاك أخشاه وأتبرم منه الآن. بل هناك أمرٌ ادعى الى الوجل والقنوط. وهو أن أوروبا في أيامنا هذه تقلد أميركا وتتبع خطواتها بينما الشرق العربي يقلد أوروبا وينحو نحوها. أعني أن الشرق العربي قد صار مقلداً للمقلدين وظلاً للاظلال.

أعني أن الاسفنجة قد أصبحت لا تمتصُّ من الماء إلاَّ ما يتسرب اليها من الاسفنجة الأخرى، وهذا منتهى الضعف والاتكال على الغير. بل هذا منتهى الغباوة والعماية لأن الشرقيين في غنى عن الاستعطاء فضلاً عن استعطاء المستعطي.

لو كان بإمكان الشرق أن يقتبس ما يجهله بدون أن ينقلب المقتبَس سماً قاتلاً لما كان يعرفه لكنت أول الداعين الى الاقتباس. ولو استطاع الشرقي أن يستعير ما يحتاجه بدون أن يجعل المستعار قبراً لما كان حاصلاً عليه لكنت من مؤيدي الأخذ والنقل والاحتذاء، ولكنني نظرت فرأيت الفطرة المبدعة في نفس الشرقي قيثارة دقيقة الأوتار ذات قرارات تختلف بطبيعتها عن كل قرار في كل وتر من كل قيثارة غربية، والشرقي لا يستطيع الجمع بين نبرات وسكنات نغمين متباينين بدون أن يفسد أحدهما أو كليهما.

كثيراً ما نسمع السطحيين يقولون «هوذا اليابان قد اقتبست المدنية الغربية فتقدمت وأفلحت وعظم شأنها حتى صارت تضاهي أعظم الأمم وأقواها».

ولكن اليابان في شرع حكمائها ومفكريها وأدبائها قد أضاعت مدنيتها الخاصة بها عندما تمشت وراء المدنية الغربية، ويقولون أن الشعب الياباني قد فقد عقليته وسليقته وأخلاقه وفنونه وصنائعه وراحة قلبه عندما انصرف الى تقليد أوروبا وأميركا. ويقولون ان انتصارات اليابان العسكرية كانت بالحقيقة انكسارات معنوية ساحقة. ويقولون ان المدرعات والمدافع والآلات التي تعلموا كيفية صنعها من المانيا والولايات المتحدة قد هدمت الجميل

والنبيل والحيوي والنافع في المدنية اليابانية ولم تثمر غير البشاعة والسماجة والثعلبة والسخافة.



في الشرق، في منزلنا القديم، كنوز وذخائر وطرائف لا عداد لها ولكنها مشوشة متراكمة محجوبة بغشاء من الغبار. ومن المعلوم أن الغربيين قد اتقنوا فن الترتيب حتى بلغوا أقصى درجاته، فهم إن رتبوا عيوبهم ظهرت كأنها حسنات جليلة، وإن رتبوا حسناتهم بدت وكأنها معجزات رائعة، فإذا كان لا بدّ من الاقتباس فلنقتبس هذا الفن عن الغربيين بشرط ألا نقتبس سواه(*).

(*) جبران حيّاً وميتاً ص ٢٤٧ ـ ٢٥٥.

الفهارس

١ ـ مؤلفات جبران المنشورة(*)

انتظم ما كتبه جبران في ستة عشر مؤلفاً صغيراً نعرِّفها بشكل موجز سريع على الشكل التالي:

١ ـ الموسيقى (١٩٠٥ م) هو أوّل كتاب له كان، في الأصل، مقالاً طويلاً تحدَّث فيه، دون تعمّق، عن الموسيقى وتأثيرها، وازدهارها في الأمم، عارضاً أشهر أبوابها كالنهاوند، والأصفهان، والصبا، والرصد، واصفاً ألحان العود وصف خبير مجرّب. كل ذلك بأسلوب شعريّ أقرب إلى الاتجاه الميتافيزيقيّ.

٢ ـ عرائس المروج (١٩٠٦ م) تضمَّن ثلاث أقاصيص:

أ ـ رمال الأجيال والنار الخالدة، وفيها يظهر اعتقاد جبران بالتقمّص، إذ يروي حكاية عاشقين عاشا في السنة ١١٦ ق.م. ثم اختطف الموتُ من الشاب معشوقته، ليعود العاشقان إلى الأرض في ربيع سنة ١٨٩٠ م.

ب ـ مرتا البانية، يصور فيها طهارة قلب امرأة أوقعها أحد أوغاد المدينة بشركه، فأعالت طفلها بشذوذها. اجتمع بها الكاتب، وهي تحتضر، فدار بينهما حديث شجيّ حول نقاء النفس وأدران الجسد.

(*) من كتاب الدكتور اميل بديع يعقوب: «جبران واللغة العربية». ص، ١٨ ـ ٢٤.

ج ـ يوحنا المجنون، وفيه يصوِّر جبران فظاظة الرهبان بمقابل سذاجة القرويّ وعفويّته، شانّاً حملة شعواء على رجال الدين.

٣ ـ الأرواح المتمرِّدة (١٩٠٨ م) فيه أربع أقاصيص. في الأولى «وردة الهاني» يتظلّم جبران من التقاليد، والشرائع الزوجيَّة الاجتماعيَّة، ويندِّد بالزواج التجاريّ الذي أَلِفه الشرقيّون، قاصّاً بعضاً من سيرة حسناء جميلة، زُوِّجت كرهاً برجل هَرِم ثريّ. وفي الثانية «صراخ القبور» يثور على إقطاعيّة رجال الدين. وعلى الشرائع التي سنّها القويّ ليفتك بالضعيف، مرتكزاً إلى حكم بالإعدام أصدره أمير طاغية على ثلاثة مظلومين: الأوّل جندل قائداً من قوّاد الأمير ذوداً عن عِرضه، والثانية امرأة جُرّت عارية إلى الحقل ورُجمت، ثم تُركت فريسة للوحوش، لأنها خانت زوجها المفروض عليها، و «المجرم» الثالث شُنِق بشجرة لأنه سرق زنبيل دقيق من الدير ليُطعم أولاده الجياع. وفي القصّة الثالثة «مضجع العروس» يروي جبران قصَّة فتاة شكَّت بإخلاص حبيبها، فقرّرت أن تتزوّج رجلاً لا تحبّه. وفي ليل زفافها، رأت حبيبها، فقتلته بخنجر ثمَّ انتحرت بعد أن ألقت عظة في قضايا الحب، والنقمة، والقوّة، والظلم، والغني، وغيره. والقصة الرابعة «خليل الكافر» تكاد أن تكون نسخة منقّحة عن «يوحنا المجنون».

٤ ـ الأجنحة المتكسرة (١٩١٢ م) وهي رواية صوّر فيها جبران الحب الذي كان بينه وبين سلمى كرامة، ولكن أبا الفتاة أذعن لمشيئة أحد المطارنة فزوَّج ابنته بابن أخي المطران، كل ذلك بأسلوب شعريّ وجدانيّ مُشبَع بروح التقديس للحب.

٥ ـ دمعة وابتسامة (١٩١٤ م) فيه ستّة وخمسون مقالاً كتبها

بأسلوب حاكى فيه مزامير داود، ونشيد سليمان، وسفر أيوب، ومراثي أرميا، ونبوءات أشعياء، وعظات الناصريّ. وضمَّنها ثورة على جهل المقاييس البشريَّة وظلمها، ومباحث في المحبَّة، والأمومة، والطفولة، والموت، وشخصيَّة المسيح، وغيرها.

٦ ـ **المجنون** (١٩١٨ م) هو أول كتاب لجبران بالإنكليزية، ينطوي على خمسة وثلاثين فصلاً، كان قد نشر قسماً منها في بعض المجلات العربيّة والإنكليزية. وفيه جدّد حملته على التقاليد الاجتماعيَّة، والظلم والجهل، فسخر من غباوة الفلاسفة في «اللعين»، وعرَّض بالرياء الاجتماعي في «بين هجعة ويقظة» و«الأم وابنتها»، وهجا الواقع، ساخراً من الناس في «الكلب الحكيم» و«الناسكان»، و«اطلبوا تجدوا» وغيرها. كذلك عرض في بعضٍ منها نظريّته في التقمّص والخلاص. والمجنون، عند جبران، في كتابه «المجنون»، وفي سواه[1] رمز السيطرة على الذات والتحرّر من التقاليد الاجتماعيَّة الفاسدة، إنه جبران الثائر على الظلم والجهل، الجريء على انتزاع الأقنعة التي يلبسها الإنسان العصريّ فيطمس بها شخصيّته.

٧ ـ **المواكب** (١٩١٩ م) قصيدة طويلة ساق فيها جبران خواطر فلسفيَّة في أهم شؤون الحياة البشريَّة، كالخير، والشر، والدين، والحق، والعدل، وغيرها. وفيها تيَّاران يبدوان كما لو كانا

(١) يَرِد ذكر الجنون في كتبه العربيَّة في «يوحنا المجنون»، (ص ٦٩ ـ ٨١ من المجموعة الكاملة)، و«حفار القبور» (ص ٣٦٧ ـ ٣٧١ م المجموعة)، و«يسوع ابن الإنسان» (المجموعة المعرَّبة. ص ٢٠٣ ـ ٣٦٢)، وغيرها.

حواراً بين شخصين. الأوّل يمثِّل الحياة بظاهرها القبيح وباطنها الجميل، فيتبّرم بما في الحياة البشريَّة من رياء وضعف وذلّ وقلق وصراع دائم بين الخير والشرّ. والثاني يمجِّد الحياة في « الغاب »، أي حياة الفطرة والسليقة حيث لا خير ولا شرّ، بل تسامٍ فوقهما. والتيّاران صدى لازدواجيَّة الذات في الإنسان: ذات التمدّن، وذات الفطرة المتمثِّلة بالرعاة الفتيان، أو هما صدى لِما يراه جبران من رياء وشر، وما يريده من صفاء وهدوء وأمن. والجدير بالملاحظة أن هذه القصيدة أصدرها جبران على نفقته الخاصة في حلَّة أنيقة ببعض رسومه الجميلة. وهي العمل الجبراني الوحيد الذي يتقيّد فيه بالوزن والقافية لخلق عمل فنيّ ذي شأن.

٨ ـ **السابق** (١٩٢٠ م) هو الكتيِّب الثاني باللغة الإنكليزية فيه خمسة وعشرون مقالاً صغيراً، بعضها قصص صغيرة رمزيَّة « الملك الناسك » « بنت الأسد »، « الحرب والأمم الصغيرة ». . . وبعضها الآخر خواطر صغيرة، كما في « المحبّة »، و « الطمع » و « التوبة ».

٩ ـ **العواصف** (١٩٢٠ م) فيه سبع قصص قصيرة، وبعض المقالات المتنوِّعة. أمّا القصص فبعضها من صنف الحكايات الرمزية: « العاصفة »، « الشيطان »، « الشاعر البعلبكيّ »، و « البنفسجة الطموح »، وواحدة تروي حادثة غريبة غامضة، هي « سفينة الضباب »، واثنتان في النقد الاجتماعيّ: « السم في الدسم »، و « ما وراء الرداء ». أمّا المقالات فتتراوح بين الثورة الصاخبة العنيفة على الضعف، كما في « حفّار القبور » ـ وهي الأشد عنفاً ـ و « العبوديَّة »، و « يا بني أمِّي »، و « نحن وأنتم »،

و « أبناء الآلهة وأحفاد القرود »، و « الأضراس المسوَّسة »، و « العاصفة »، وبين الكتابة الوجدانيَّة بكل ما فيها من حب وكآبة، ووحشية، وغربة، وألم، وشوق، وحنين، وخاصة في مقاله المؤثِّر « مات أهلي » الذي كتبه عندما قضت الحرب العالميَّة الأولى على الألوف من أبناء وطنه جوعاً ومرضاً. وفيه يتمنّى لو كان سنبلة من القمح نابتة في تربة لبنان يقتات بها طفل جائع، أو ثمرة يانعة في بساتين لبنان تجنيها امرأة جائعة، أو طائراً في فضاء لبنان يصطاده صياد جائع.

١٠ ـ **البدائع والطرائف** (١٩٢١ م) هذا الكتاب ليس سوى مجموعة اختارها صاحب « مكتبة العرب » في مصر من كتابات جبران الذي لم يكن له رأي في اختيارها وتسميتها. وجلّها مأخوذ من « دمعة وابتسامة »، و « العواصف » وغيرهما من مؤلّفات جبران، مع بعض المقالات التي لم يكن جبران قد نشرها في كتاب، ومنها « وعظتني نفسي »، وفيه عودة إلى المساواة بين البشر، و « لكم لبنانكم ولي لبناني » وفيه يفصِّل نظرته المختلفة عن غيره نحو وطنه لبنان، و « مستقبل اللغة العربيَّة » وهو مقابلة أجرتها معه مجلة « الهلال » المصريَّة في بعض شؤون اللغة العربية و « إرم ذات العماد » وفيه تأمل في مصير الإنسان، والحياة، والموت، والروح، والمادة، ووحدة الوجود، والأمل...

١١ ـ **النبيّ** (١٩٢٣ م) هو أكثر كتب جبران رواجاً، وأهمّها على الإطلاق، إذ تُرجم إلى أكثر من أربعين لغة، وبيع من نُسخه حتى السنة ١٩٥٩ م، أي بعد صدوره بست وثلاثين سنة، مليون

نسخة[٢]، ومنهم من يقول مليونين[٣]. وكان جبران قد بدأ التفكير به منذ السنة ١٩١٢ م، أي قبل صدوره بإحدى عشرة سنة، كما جاء في مذكرات ماري هاسكل[٤]. وفي الكتاب ستّة وعشرون فصلاً عدا المقدّمة والخاتمة، تتناول موضوعات كلاسيكيّة شاملة تهم الناس في كل زمان ومكان: الحب، الزواج، الأولاد، العطاء، المأكل والملبس، العمل، البيوت، الجريمة والعقاب، الشرائع، الحرية، العقل والهوى، اللذة والألم، التعليم، الصداقة، الجمال، الدين والموت. وفي هذه الموضوعات يمزج جبران بين المبادىء الصوفية. والحِكم العمليّة، والقِيَم الروحيّة. وفي كل صفحة منه نجد فكرة جميلة. أمّا الأسلوب فشاعريّ في إطار طريف يتألّف من حكاية عن نبيّ اسمه المصطفى ـ وهو جبران نفسه ـ ينتظر في مدينة خياليّة اسمها «أورفليس» ـ وترمز إلى المجتمع البشري الذي يعيش فيه جبران ـ وسفينة (هي الموت) تنقله إلى أرض أجداده (هي الآخِرة). وفي يوم وداعه لأهل المدينة، يُلقي عليهم خطباً يُضمِّنها خلاصة تعاليمه.

١٢ ـ رمل وزبد (١٩٢٦ م) لا يتضمَّن هذا الكتيِّب فكراً جبرانيّاً جديداً، فهو عبارة عن مجموعة حِكَم كان بعضها، كما تذهب السيدة بربارة يونغ Barbara Young إحدى صديقاته، ملاحظات أبداها لها، ودوَّن بعضها على قصاصات من الورق[٥].

---

(٢) خليل حاوي: جبران خليل جبران. ص ٣١٧.
(٣) عن روز غريب: جبران في آثاره الكتابية ص ١٦.
(٤) عن المرجع نفسه، ص ٢٣٤.
(٥) عن خليل حاوي: جبران خليل جبران، ص ٢٥٧.

۱۳ ـ يسوع ابن الإنسان (۱۹۱۸ م) يحاول جبران، في هذا الكتاب، أن يتحدَّث عن « أقوال المسيح، وأعماله كما رواها ودوَّنها أولئك الذين عرفُوه »، لذلك يُضمّنه انطباعات وآراء مفترَضة يُدلي بها تلامذة يسوع، وأمّه، وبعض أفراد أسرته، وأعداؤه، وغيرهم. ويتضمَّن الكتاب عقيدة التقمّص التي آمن بها جبران الذي يظهر في خاتمة كتابه تحت عنوان « رجل من لبنان بعد تسعة عشر قرناً »[٦]. وقد حاول جبران في هذا الكتاب أيضاً بحث موضوعات في المنطق والفلسفة، والحضارة اليونانيَّة، فجاء بحثه سطحيّاً غير موفَّق.

١٤ ـ آلهة الأرض (۱۹۳۱ م) يتضمَّن هذا الكتيِّب حواراً رمزيّاً بين ثلاثة آلهة يهتمون جميعاً بمصير ألوهيّتهم، ومصير الإنسان، وليسوا، في الحقيقة، سوى الإنسان الخارج عن نطاق نفسه إلى حالة من الألوهة، بنزعات إنسانيَّة ثلاث. فالإله الأوّل متبرّم بتكرار الحياة الرتيب، فيرغب في الانمحاق. ويستمتع الإله الثاني بقدرته على الإنسان، واللعب بمصيره، لكنه، قبل نهاية الحوار، يتخلّى عن القوَّة ليؤمن بالمحبَّة. وأمَّا الإله الثالث، فيعتقد أنّ المحبَّة هي الحقيقة الأساسيَّة الوحيدة في الحياة. وهكذا يدور الكتاب حول المحبَّة، ولكن بأسلوب تسوده الكآبة، والتفكير بالموت باعتباره الحقيقة الوحيدة الخالدة.

١٥ ـ التائه (۱۹۳۲ م) هو آخر كتاب لجبران أتمّ كتابته قبيل موته، يتضمَّن خمسين قصّة وأسطورة استوحاها من التراث الشرقيّ، وهي تشبه قصص « المجنون » من حيث السخرية من

(٦) جبران خليل جبران: المجموعة الكاملة، ص ٣٣٥ ـ ٣٦٢.

معتقدات الناس، والتبرّم بسخافات العالم.

١٦ ـ **حديقة النبي** (١٩٣٣ م) هذا الكتاب أصدرته السيدة بربارة يونغ إحدى صديقات جبران، بعد موته بسنتين، وهو يتضمّن فصولاً كان جبران قد هيّأها له، وأخرى لا علاقة لها بموضوع كتابه، كان جبران قد نشرها في العربيَّة، ثم نقلها إلى الإنكليزية[٧]. وثمّة تشابه كبير بين «النبيّ» وحديقته، فالبطل واحد، وهو جبران نفسه، والمواعظ تكاد تتشابه، والرموز هي هي، مع بعض الفروق أهمها أن موضوع «النبيّ» علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، أما موضوع «حديقة النبيّ»، فعلاقته بالطبيعة.

---

(٧) انظر خليل حاوي: جبران خليل جبران. ص ٢٦٣ ـ ٢٦٥.

٢ ـ فهرس الكتب الموضوعة عن جبران باللغة العربية.

- بدوي سليم: مقدمة في فكر جبران السياسي، منشورات ليبانيا، ١٩٨٣.
- براكس، غازي، جبران خليل جبران، دراسة تحليلية تركيبية، دار النسر المحلّق بيروت، ١٩٧٣.
- البستاني، فؤاد افرام ـ مع جبران منشورات الدائرة، بيروت ١٩٨٣.
- بشروئي، سهيل بديع ـ جبران خليل جبران، مختارات ودراسات، دار المشرق، ١٩٧٠.
- جبر، جميل ـ جبران. سيرته. أدبه. فلسفته. ورسمه. دار الريحاني، بيروت، ١٩٥٨.
- الجرّ، شكر الله ـ نبيّ أورفليس، دار المكشوف، بيروت.
- حاوي، خليل ـ جبران خليل جبران: إطاره الحضاري وشخصيته وآثاره، تعريب سعيد فارس باز، دار العلم للملايين بيروت، ١٩٨٢.
- حنين، رياض ـ الوجه الآخر لجبران، دار النهار، ١٩٨٢.
- الحويّك، يوسف ـ ذكريات مع جبران: باريس ١٩٠٩ ـ ١٩١٠، حررتها إدفيك شيبوب، دار الأحد بيروت، ١٩٥٧.

ـ خالد، أمين ـ محاولات في درس جبران، المطبعة الكاثوليكية بيروت، ١٩٣٣ .
ـ خالد، غسّان ـ جبران الفيلسوف، مؤسسة نوفل بيروت، ١٩٧٤ .
ـ خالد، غسان ـ جبران في شخصيته وأدبه، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٨٣ .
ـ خليل، أحمد خليل ـ المحتوى السياسي لفكر جبران، دار الرّاية، بيروت، ١٩٧٠ .
ـ خليل، أحمد خليل ـ المعرفة الاجتماعية في أدب جبران، دار ابن خلدون، ١٩٨١ .
ـ خوري، انطوان ـ جبران خليل جبران النابغة اللبناني، مركز الإعلام والتوثيق، ١٩٨١ .
ـ داية، جان ـ عقيدة جبران، دار سوراقيا للنشر، ١٩٨٨ .
ـ الريحاني، أمين ـ ذكرى جبران، دار صادر، ١٩٣٢ .
ـ زكّا، طنسي ـ بين نعيمة وجبران، مكتبة المعارف بيروت، ١٩٧١ .
ـ سكيك، عدنان يوسف ـ النزعة الإنسانية عند جبران، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠ .
ـ صايغ، توفيق ـ أضواء جديدة على جبران، الدار الشرقية للطباعة والنشر بيروت، ١٩٦٦ .
ـ صعب، وليم ـ مواكب الإيمان، مطبعة النجوى بيروت، ١٩٦٤ .
ـ طويل، ناهدة ـ شخصية جبران خليل جبران، دراسة نفسانية، مطابع التجارة والصناعة بيروت، ١٩٧٣ .

- عبد الفتّاح، محمد - كوكب الشعوب والأمم، القاهرة.

- عطوي، فوزي - جبران خليل جبران عبقري من لبنان، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، ١٩٧١.

- العظمة، نذير - جبران خليل جبران في ضوء المؤثرات الأجنبية، دراسة مقارنة، دار طلاس دمشق، ١٩٨٧.

- علم الدين، مصطفى سليم - نبيّ جبران وزرادشت نيتشه، مؤسسة خليفة للطباعة، ١٩٨١.

- غريّب، روز - جبران في آثاره الكتابية، دار المكشوف، ١٩٦٩.

- فاخوري، رياض - النفس الطاهرة بين جبران والحويّك، ١١ رسالة جديدة وميشال بصبوص، دار مصباح الفكر بيروت، ١٩٨١.

- قاسم، محمد - لغة جبران بين التهافت والابداع، دار الانشاء طرابلس، ١٩٨٤.

- كرامة، نبيل - جبران خليل جبران وآثاره في الأدب العربي، دار الرابطة الثقافية، بيروت، ١٩٦٤.

- كرم، أنطون غطاس - محاضرات عن جبران خليل جبران: سيرته وتكوينه الثقافي.

- كيروز، وهيب - عالم جبران الرسّام، لجنة جبران الوطنية، توزيع مكتبة صادر، بيروت، ١٩٨٢.

- كيروز، وهيب - عالم جبران الفكري، بشاريا للنشر، ١٩٨٣.

- متيني، داود سليمان - جبران الشاعر، الموصل، ١٩٤٥.

- مسعود، حبيب - جبران حيّاً وميتاً، دار الريحاني للطباعة والنشر بيروت، ١٩٦٦.

- منعم، الأب طانيوس - جبران والكنيسة، دار الانشاء طرابلس، ١٩٨٣.

- نجم، خريستو- المرأة في حياة جبران، دار الرائد اللبناني الحازمية، ١٩٨٥.

- نعيمة، ميخائيل - جبران خليل جبران، مؤسسة نوفل بيروت، ١٩٧٨.

- يعقوب، أميل بديع - جبـران واللغة العـربية، جـرّوس برس طرابلس، ١٩٨٥.

- يونغ، برباره - هذا الرجل من لبنان: جبران خليل جبران، ترجمة سعيد عفيف بابا، مطبعة صفدي التجارية، ١٩٥٣.

٣ ـ فهرس الكتب التي تناولت جبران بالبحث باللغة العربية

ـ أبو شادي، أحمد زكي ـ دراسات أدبية، القاهرة، مكتب المعلومات الأميركي، ١٩٥٧.

ـ أبو شبكة، الياس ـ روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة، بيروت، دار المكشوف، ١٩٤٣.

ـ إدريس، سهيل ـ القصة في لبنان، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٧.

ـ أدونيس [علي أحمد سعيد] ـ مقدمة للشعر العربي، بيروت، دار العودة، ١٩٧١.

ـ الأشتر، عبد الكريم ـ النثر المهجري، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦١.

ـ البشعلاني، أسطفان ـ تاريخ بشعلي وصليما، بيروت، مطبعة نوفل وجميل، ١٩٤٧، ص ٥٢٤ ـ ٥٢٦.

ـ بطي، رفائيل ـ سحر الشعر، بغداد، المكتبة العصرية، ١٩٢٢، ص ١٢٣ ـ ١٢٦.

ـ توتل، فردينان ـ المنجد في اللغة والأدب والعلوم، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٠، ص ١٣١.

ـ حسن، محمد عبد الغني ـ الشعر العربي في المهجر، القاهرة،

مكتبة الخانجي، ١٩٥٥، ص ١٧١ ـ ١٧٨.

ـ الخوري، إبراهيم ـ نوابغ الأدب، مقال عن جبران، ص ٥ ـ ٤٦، (لا يذكر الكتاب اسم الناشر أو التاريخ).

ـ الخوري، رئيف ـ الفكر العربي الحديث وأثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي، بيروت، دار المكشوف، ٩٤٣).

ـ خوري، ألفرد ـ الكلمة العربية في المهجر، بيروت، دار الريحاني للطباعة والنشر، ١٩٦٠ (؟).

ـ بولس، متري سليم ـ في أدب النهضة الثانية، gate ١٩٨٥.

ـ الخوري، وديع رشيد ـ ظهور وتطور الأدب في المهجر الأمريكي، بيروت، دار الريحاني، ١٩٦٩.

ـ داغر، يوسف أسعد ـ مصادر الدراسة الأدبية، صيدا، مطبعة دار المخلّص، ١٩٥٦.

ـ ديب، وديع ـ الشعر العربي في المهجر الأميركي، بيروت، دار الريحاني، ١٩٥٥.

ـ رضا، محي الدين ـ في موطن جبران خليل جبران: صور ومشاهد من ماضي لبنان وحاضره، القاهرة، المطبعة التجارية الحديثة، ١٩٥٠، ص ١٩٢.

ـ زكّا، نجيب منصور ـ أقلام مهاجرة، شركة المطابع الحديثة، ١٩٨٠.

ـ زكي الدين، محمد ـ أعلام الأدب والكتابة والشعر، القاهرة، (لا يذكر الكتاب اسم الناشر أو التاريخ).

- زيادة، مي - حضارة العصر الحديثة، القاهرة، ١٩٣٣، (لا يذكر الكتاب اسم الناشر).

- سرّاج، نادرة جميل - ثلاثة روّاد من المهجر، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٧٤.

- سرّاج، نادرة - شعراء الرابطة القلمية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٧.

- سركيس، يوسف - جامع التصانيف الحديثة التي طبعت في البلاد الشرقية والأميركية من سنة ١٩٢٠ - ١٩٢٦، القاهرة، مكتبة سركيس، ١٩٢٧. ج ١، ص ٤٧، ٥٠، ٨٠.

- سركيس، يوسف - معجم المطبوعات، القاهرة، مطبعة سركيس، ١٩٢٨ - ١٩٢٩، ص ٦٧٤.

- الشنّاوي، كامل - الذين أحبّوا ميّ وابريت جميلة، القاهرة، دار المعارف بمصر، (لا يذكر الكتاب التاريخ).

- شيّا، محمد شفيق - في الأدب الفلسفي، بيروت، مؤسسة نوفل، ١٩٨٠، ص ١٩٧ - ٢٢٤.

- شيّا، محمد شفيق - فلسفة ميخائيل نعيمة: تحليل ونقد، بيروت، منشورات بحسون الثقافية، ١٩٧٩، ص ٣٢٤ - ٣٢٧.

- شيخو، لويس - تاريخ الأدب العربي في الربع الأول من القرن العشرين، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٢٦.

- صبّاغ، الياس - وحي الكؤوس، بوستن، المطبعة السورية، ١٩٣٢.

- صرّوف، فؤاد - مشاهد العالم الجديد، القاهرة، مكتبة العرب، ١٩٢٥.
- صيدح، جورج - أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٤، ص ٢٤٢ - ٢٥٩.
- عبّاس، احسان، ومحمد يوسف نجم - الشعر العربي في المهجر (أميركا الشمالية)، بيروت، دار صادر ودار بيروت، ١٩٥٧، خاصة ص ٤١ - ٥٣ و ٧١ - ٧٦.
- عبّود، مارون - روّاد النهضة الحديثة، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٦.
- عبّود، مارون - مجدّدون ومجترّون، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦١، ص ٢٠٠ - ٢١٤.
- العقاد، عباس محمود - الفصول، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧.
- عوض، ريتا - أدبنا الحديث بين الرؤيا والتعبير: دراسات نقدية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩، ص ١٨٩ - ٢٠٣.
- الفاخوري، حنا - تاريخ الأدب العربي، بيروت، المطبعة البولسية، ١٩٥٣، ص ١١١٤ - ١١١٧.
- فارس، فليكس - رسالة المنبر إلى الشرق العربي، الإسكندرية، ١٩٣٦، ص ٩٩ - ١٣٢، ١٥٣ - ٢٢٥.
- كاتبة، حبيب - الناطقون بالضاد في أميركا، ترجمة يعقوب عودات، القدس، ١٩٤٦، (لا يذكر الكتاب اسم الناشر).

- كحّالة، عمر رضا - معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، دمشق، مطبعة الترقي، ١٩٥٧.

- الكيّالي، سامي - الراحلون، القاهرة، دار الفكر العربي، [؟ - ١٩٤] ص ١٥ - ٢٨.

- لبكي، صلاح - لبنان الشاعر، ١٩٥٥، ص ٩٤ - ١٢٤.

- لوسيرف، جان - النزعات الصوفية عند جبران خليل جبران، ترجمة شعبان بركات، صيدا وبيروت، لا.ت.، (لا يذكر الكتاب اسم الناشر).

- المقدسي، أنيس الخوري - الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٠.

- مندور، محمد - في الميزان الجديد، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٤.

- الناعوري، عيسى - أدباء من الشرق والغرب، بيروت، مطبعة عويدات، ١٩٦٦.

- الناعوري، عيسى - أدب المهجر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٧.

- نجم، محمد - القصة في الأدب العربي الحديث، القاهرة، دار مصر للطباعة، ١٩٥٢، ص ١٢١ - ١٣٢، ٢٦٢ - ٢٧٧.

- نخلة، أنيس - النبوغ اللبناني في القرن العشرين، حلب، مطبعة العصر الجديد، ١٩٣٨، ج ١، ص ٩٠.

- نعيمة، ميخائيل - الغربال، بيروت، دار صادر ودار بيروت،

١٩٦٠، ص ١٤٣ - ١٤٩، ١٨٤ - ٢٠٤. (الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٢٣).

- نعيمة، ميخائيل - في مهب الريح، بيروت، دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٢.

- نعيمة، ميخائيل - المجموعة الكاملة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٠.

- يمين، محسن أ. مساجلات قلمية منسيّة، جرّوس برس طرابلس، ١٩٨٧.

٤ - فهرس المصادر والمراجع

أولاً: الكتب:

- المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، قدّم لها ميخائيل نعيمة، دار صادر بيروت، ١٩٦١، وتتضمّن: الموسيقى - عرائس المروج - الأرواح المتمرّدة، الأجنحة المتكسّرة - دمعة وابتسامة - المواكب - العواصف - البدائع والطرائف.
- المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران المعرّبة عن الانكليزية، دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٤، وتتضمّن:

المجنون - السابق - النبيّ - رمل وزبد - يسوع ابن الإنسان - آلهة الأرض (والكتب الستة هذه من تعريب الأرشمندريت انطونيوس بشير) - التائه - حديقة النبيّ (وهما من تعريب عبد اللطيف شرارة).

- الدّرر المختارة: مجموعة مقالات شائعة أدبية انتقادية روائية بقلم جبران خليل جبران، المطبعة الرشيدية كفرشيما، لبنان.
- ما وراء الخيال أو فلسفة جبران، جبران خليل جبران، أصدره علي حمد، بيروت، مطبعة العرفان، صيدا.
- رسائل جبران، تقديم جميل جبر، مكتبة بيروت، ١٩٥١.

- رسائل جبران التائهة، رياض حنين، مؤسسة نوفل بيروت، ١٩٨٣.
- جبران حيّاً وميتاً، حبيب مسعود، دار الريحاني للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٦ (ط ٢).
- جبران خليل جبران، ميخائيل نعيمة، مؤسسة نوفل بيروت، ١٩٧٨ (ط ٨).
- جواهر الأدب، جمعه ونقّحه العلاّمة ب. بستاني، مكتبة صادر بيروت، ١٩٢٩.
- عقيدة جبران، جان دايه، دار سوراقيا للنشر، ١٩٨٨.
- المنتقى، الأب بطرس الخوري اللبناني بمعاونة الإخوة المريميين، الجزء الثاني، كتاب المعلم، مطبعة المعارف نجيب كنيدر - حلب.
- أدب الأصول العربية، الجزء الأول، مدرسة الحكمة بيروت، ١٩٣٧.

ثانياً: الصحف والمجلاّت:

- الأنوار.
- الحياة.
- الصيّاد.
- الهلال.

٥ - فهرس المحتويات

الباب الأول: مقالات

الباب الثاني: تمثيليات

الباب الثالث: حِكم وآراء

الباب الرابع: شذرات فلسفية

الباب الخامس: رسائل

الباب السادس: تعريب

الباب السابع : خطب

الباب الثامن : استفتاء

الفهارس



